

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة

سورة البقرة

@ {وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ تَبَدَّ قَرِيبٌ مِّنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ }

يقول الحق جل جلاله: { وَلَمَّا جَاءَهُمْ } يعني اليهود { رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ } محمد صلى الله عليه وسلم { مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ } من التوراة بموافقته له في بعض الأخبار { تَبَدَّ قَرِيبٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ } ، وهم من كفر من أخبار يهود، { كِتَابَ اللَّهِ } : التوراة، { وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ } ، حيث لم يعملوا بما فيه من الأمر بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، وغيروا صفته التي فيه، وكتموها، فكانهم طرحوه وراء ظهورهم، وكانهم لا علم لهم بشيء من ذلك.

قال البيضاوي: اعلم أن الحق تعالى دل على أن حال اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب، وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله:

{ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ }

[البقرة: 100]، وفرقة جاهروا بنذ عهودها، وتخطي حدودها، تمرداً وفسوقاً،

وهم المعنيون بقوله تعالى:

{ تَبَدَّ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ }

[البقرة: 100]، وفرقة لم يجاهروا بنذها، ولكن نبدوا لجهلهم بها، وهم الأكثرون، وفرقة تمسكوا بها ظاهراً، ونبدوها خفية، عالمين بالحال بغياً وعناداً، وهم المتجاهلون. هـ. قلت: ولعلم المنافقون منهم.

@ {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَا كَرَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا تَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِبَصِيرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } * { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ }

قلت: { عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ } على حذف مضيف، أي: على عهد ملك سليمان، أو { عَلَى } بمعنى { في } ، وقوله: { وَمَا أُنزِلَ } عطف على السحر، عطف تفسير، والفتنة في الأصل: الاختبار، تقول: فتنت الذهب والفضة إذا أدخلتهما النار لتعلم جودتهما من رداءتهما، وقوله: { لَمَثُوبَةٌ } جواب { لَوْ } ، والأصل: لأثبوا، ثم عدل إلى الجملة الاسمية لتدل على الثبوت.

يقول الحق جل جلاله: في شأن اليهود: ولما جاءهم كتاب من عند الله نبدوهم { وَاتَّبَعُوا } ما تقرأ { الشَّيَاطِينُ } على الناس من السحر { عَلَى } عهد { مُلْكِ سُلَيْمَانَ } ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا

أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة، وهم يدونونها ويعلمونها الناس، وَقَسْنَا ذلك في عهد سليمان حتى قيل: إن الجن يعلم الغيب، وإن ملك سليمان إنما قام بهذا، وأنه به سخر الجن والإنس والريح، فجمع سليمان ما دُونَ منه ودفنه، فاستخرجته الشياطين بعد موته، فردَّ الله تعالى قولهم بقوله: { وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ } باستعمال السحر؛ لأنه تعظيم غير الله بالتقرب للشيطان، والنبى معصوم { وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ } هم الذين { كَفَرُوا } باستعماله { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } إغواء وإضلالاً، ويعلمون { مَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ } في بلد بابل من سواد الكوفة، وهما { هَارُوتَ وَمَارُوتَ }.

كانا ملكين من أعبد الملائكة، ولما رأت الملائكة ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عيروهم بذلك، وقالوا: يا ربنا هؤلاء الذين جعلهم خليفة في الأرض يعصونك؟ فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض، وركبتم فيكم ما ركبت فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا، قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. فقال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبتهما إلى الأرض. فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أعبد الملائكة، فركب الله تعالى فيهما الشهوة، وأمرهما أن يحكما في الأرض بين الناس بالحق، في الأرض بين الناس بالحق، ونهاهما في الشرك والقتل بغير الحق، والزنا وشرب الخمر، فكانا يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء، فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة يقال لها الزهرة: وكانت من أجمل النساء من أهل فارس، فأخذت بقلبيهما، فراودها عن نفسها، فأبت ثم عاودت في اليوم الثاني، ففعلت مثل ذلك فأبت، وقالت: إلا أن تعبد ما أعبد، وتصلبا لهذا الصنم، وتقتلا النفس وتشربا الخمر، فأبيا هذه الأشياء، وقالوا: إن الله نهاهما عنها، فانصرفت، ثم عادت في اليوم الثالث، فرادها، فعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله ذنب عظيم، وأهونُ الثلاث شرب الخمر، فشربا، وانتشيا، ووقعا بالمرأة، فلما فرغا رأهما إنسان فخاف أن يظهر عليهما فقتلاه.

وفي رواية عن سيدنا عليّ - كرم الله وجهه - أنه قال: (قالت لهما: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء، فقالا: باسم الله الأعظم، فعلمها ذلك، فتكلمت به، وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكبا).

@ { وَاتَّبَعُوا مَا يَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَا كَرَّ الشَّيَاطِينِ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ يُبَايِلُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا تَحَرُّ فِتْنَةُ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } * { وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ }

قلت: { عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ } على حذف مضإف، أي: على عهد ملك سليمان، أو { عَلَىٰ } بمعنى { فِي } ، وقوله: { وَمَا أَنْزَلَ } عطف على السحر، عطف تفسير، والفتنة في الأصل: الاختبار، تقول: فتننت الذهب والفضة إذا أدخلتهما النار لتعلم جودتهما من رداءتهما، وقوله: { لَمَثُوبَةٌ } جواب { لَوْ } ، والأصل: لأثيبوا، ثم عدل إلى الجملة الاسمية لتدل على الثبوت.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في شأن اليهود: ولما جاءهم كتاب من عند الله نبذوه { وَاتَّبَعُوا } ما تقرأ { الشَّيَاطِينُ } على الناس من السحر { على } عهد { مُلْكٍ سُليْمَانَ } ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب، وبلقونها إلى الكهنة، وهم يدونونها ويعلمونها الناس، وقسنا ذلك في عهد سليمان حتى قيل: إن الجن يعلم الغيب، وإن ملك سليمان إنما قام بهذا، وأنه به سخر الجن والإنس والريح، فجمع سليمان ما دُونَ منه ودفنه، فاستخرجته الشياطين بعد موته، فردّ الله تعالى قولهم بقوله: { وَمَا كَفَّرَ سُليْمَانُ } باستعمال السحر؛ لأنه تعظيم غير الله بالتقرب للشياطين، والنيي معصوم { وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ } هم الذين { كَفَرُوا } باستعماله { يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ } إغواء وإضلالاً، ويعلمون { مَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ } في بلد بابل من سواد الكوفة، وهما { هَارُوتَ وَمَارُوتَ }.

كانا ملكين من أعبد الملائكة، ولما رأت الملائكة ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عيروههم بذلك، وقالوا: يا ربنا هؤلاء الذين جعلهم خليفة في الأرض يعصونك؟ فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض، وركبْتُ فيكم ما ركبتُ فيهم لارتكبتم ما ارتكبوا، قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. فقال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض. فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أعبد الملائكة، فركب الله تعالى فيهما الشهوة، وأمرهما أن يحكما في الأرض بين الناس بالحق، في الأرض بين الناس بالحق، ونهاهما في الشرك والقتل بغير الحق، والزنا وشرب الخمر، فكانا يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء، فاختصمت إليهما ذات يوم امرأة يقال لها الزهرة: وكانت من أجمل النساء من أهل فارس، فأخذت بقلبيهما، فراودها عن نفسها، فأبت ثم عاودت في اليوم الثاني، ففعلا مثل ذلك فأبت، وقالت: إلا أن تعبدا ما أعبد، وتصليا لهذا الصنم، وتقتلا النفس وتشربا الخمر، فأبيا هذه الأشياء، وقالوا: إن الله نهاهما عنها، فانصرفت، ثم عادت في اليوم الثالث، فراودها، فعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالا: الصلاة لغير الله ذنب عظيم، وأهونُ الثلاث شرب الخمر، فشربا، وانتشيا، ووقعا بالمرأة، فلما فرغا رأهما إنسان فخاف أن يظهر عليهما فقتلاه.

وفي رواية عن سيدنا عليّ - كرم الله وجهه - أنه قال: (قالت لهما: لن تدركاني حتى تخبراني بالذي تصعدان به إلى السماء، فقالا: باسم الله الأعظم، فعلمها ذلك، فتكلمت به، وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكباً).
@ولبئس ما شروا به أنفسهم - حيث آثروا الحياة الدنيا على الآخرة - لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا بالله، واتقوا كل ما يشغل عن الله لكانوا من أولياء الله، وتلك المثوبة - التي صاروا إليها - خير لو كان يعلمون.

قال عبد الواحد بن زيد: سمعت أن جارية مجنونة في خراب الأبلّة تنطق بالحكم، فطلبتها حتى وجدتها، وهي مخلوقة الرأس، وعليها جبة صوف، فلما رأته قال: مرحباً بك يا عبد الواحد، ثم قالت: يا عبد الواحد ما جاء بك؟ فقلت: تعطينني، فقالت: واعجباً لواعظ، يوعظ، يا عبد الواحد... اعلم أن العبد إذا كان في كفاية، ومال إلى شيء من الدنيا، سلبه الله حلاوة الزهد، وظل حيراناً ولها، فإن كان له عند الله نصيب عاتبه وخياً في سره، فيقول له: عيدي أردت رفع قدرك عند ملائكتي، وأجعلك دليلاً لأوليائي، ومرشداً لأهل طاعتي، فملت إلى عرض الدنيا وتركنتي، فأورثك ذلك الوحشة بعد الأنس،

والذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، اَرْجَعُ إِلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ أَرْجِعُ إِلَيْكَ مَا كُنْتُ
تَعْرِفُهُ مِنْ نَفْسِكَ. ثم انصرفت عني وتركتني وبقيت حسرتها في قلبي. هـ.

ولما كان المسلمون يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: راعنا يا رسول
الله وَأُرِعْنَا سَمْعَكَ، يَعْثُونَ مِنَ الْمِرَاعَةِ وَالْأَنْتِظَارِ، وَهِيَ عِنْدَ الْيَهُودِ سَبٌّ مِنْ
الرَّعُونَةِ، ففرحت اليهود، وقالوا: كنا نسب محمداً سرّاً، فأعلنوا له بالشتيم،
فكانوا يقولون: يا محمد راعنا ويضحكون، نهى الله تعالى المسلمين عن هذه
اللفظة.

@ { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ
خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }

قلت: إلود: محبة الشيء مع تمنييه و { مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } بيانية كقوله: { لَمْ
يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ } ، و { أَنْ يُنَزَّلَ } معمول يود، و { مِّنْ
خَيْرٍ } صلة، و { مِّنْ رَبِّكُمْ } ابتدائية.

يقول الحق جلّ جلاله: ما يتمنى { الذين كفروا من أهل الكتاب } إنزال خير
عليكم { مِّنْ رَبِّكُمْ } ولا المشركون حسداً منهم، بل يتمنون أن تبقوا على
ضلاتكم ودلّكم، { والله يختص برحمته } كالنوبة والولاية { من يشاء } من
عباده. فلا يجب عليه شيء ولا يمتنع عليه ممكن، { وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }
، قِيمُنُّ بِالنُّبُوَّةِ أَوْ الْوِلَايَةِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ فَضْلاً وَإِحْسَاناً.

الإشارة: في الآية تنبيهان: أحدهما: أن من كان يحسد أهل الخصوصية وينكر
عليهم، فيه نزعة يهودية، وخصلة من خصال المشركين، والثاني: أن حسد أهل
الخصوصية والإنكار عليهم أمر شائع وسنة ماضية، فليوطن المرید نفسه على
ذلك: وليعلم انه ما يقال له إلا ما قيل لمن قبله،
{ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا }
[الأحراب: 62]، وما من نعمة إلا وعليها حسود.

وقال حاتم الطائي:

وَمِنْ حَسَدٍ يَجُورُ عَلَيَّ قَوْمِي وَأَيُّ الدَّهْرِ ذُو لَمْ يَحْسُدُونِي
وبالله التوفيق.

@ { مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا يَا يُحْيِي مَنَّهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَنَا
كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } * { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ
مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }

قلت: النسخ في اللغة يطلق على معنيين؛ أحدهما: التغيير والتحويل، يقال:
مسخه الله قرداً ونسخه. قال الفراء: ومنه نسخ الكتاب، والثاني: بمعنى رفع
الشيء وإبطاله. يقال: نَسَخَتِ الشَّمْسُ الظِّلَّ، أي: ذهبت به وأبطلته، وهو المراد
هنا.

والإنساء هو الترك والإذهاب، والنساء هو التأخر. و { مَا } شريكة منصوبة
بشرطها مفعولاً به. و { تَاتِ } جوابها.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في الرد على اليهود حيث قالوا: انظروا إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، فأجاب الله عنهم بقوله: { مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ { أي: نزيل لفظها أو حكمها أو هما معاً، { تَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا { في الخفة أو في الثواب، { أو تُنْسِئُهَا { من قلب النبي - عليه الصلاة والسلام - بإذن الله، أو نتركها غير منسوخة، أو نؤخر إنزالها أو نسخها. باعتبار القراءات، { تَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أو مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ { يا محمد { أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { لا يعجزه نسخ ولا غيره { أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ { يتصرف فيهما كيف يشاء، لا راد لما قضى ولا معقب لما حكم به وأمضى، ينسخ من شرائع أحكامه ما يشاء، يثبت فيها ما شاء، بحسب مصالح العباد، وما تقضيه الرأفة والوداد.

وهو جائز عقلاً وشرعاً، فكما نسخت شريعتهم ما قبلها نسخها ما بعدها، فمن تحكم على الله، أو رد على أصفياء الله ممن اطصفاهم لرسالاته، فليس له { مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ { يمنع من عذاب الله، { وَلَا تَصِيرُ { ينصره من غضب الله.

والنسخ إنما يكون في الأوامر والنواهي دون الأخبار، لأنه يكون كذباً، ومعنى النسخ: انتهاء العمل بذلك الحكم، ونقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة، فلا يلزم عليه البداء كما قالت اليهود، والنسخ عندنا على ثلاثة أقسام: نسخ اللفظ والمعنى: كما كان يُقْرَأُ: " لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر "، ثم نُسخ، ونسخ اللفظ دون المعنى: " كالشيخ والشيخة إذا زينا فرجموهما البتة " ثم نسخ لفظه، وبقي حكمه وهو الرجم، ونسخ المعنى دون اللفظ: كآية السيف بعد الأمر بالمهادنة مع الكفار. الله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه في تفسيرها: ما نذهب من يدل إلا ونأت بخير منه أو مثله. هـ. ومعناه: ما نذهب بولي إلا ونأت بخير منه أو مثله إلى يوم القيامة، وبهذا يُرَدُّ على من زعم أن شيخ الترية انقطع؛ فإن قدرة الله عامة، وملك الله قائم، والأرض لا تخلو ممن يقوم بالحجة حتى يأتي أمر الله.

قال في لطائف المنن: وقد سئل بعض العارفين عن أولياء المدد: أينفضون في زمن؟ فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم، ولا بنقص إمدادهم، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم، ثم قال: وقد قال عليّ - كرم الله وجهه - في مخاطبته لكميل: اللهم لا تخلو الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى.
@أولئك خلفاء الله في بلاده وعباده، واشوقاه إلى رؤيتهم.

وروى الترمذي الحكيم عن ابن عمر رضي الله عنه يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أمّتي كالمطر لا يُدرى أوله خيرٌ أم آخره " وبالله التوفيق.

@ { أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ }

قلت: { أَمْ } للإضراب بمعنى بل؛ وهو على قسمين: إما إضراب عن المعنى السابق، أو لفظه فقط كما هنا، انظر تفسير ابن عطية، وإضافة الرسول إليهم باعتبار ما في نفس الأمر. وهو نص في إرساله إليهم كما أرسل إلى غيرهم. والضلال: التلف. و { سواء السبيل } : وسط الطريق.

يقول الحقّ جلّ جلاله: أتريدون يا معشر اليهود أن قترحوا على نبيكم الذي أرسلت إليكم، وإلي كافة الخلق من غيركم الآيات، وتسالوه أن يريكم المعجزات، كما سألتم موسى من قبل فقلتم:

{ أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً }
[النساء: 153] تشغيياً وتعنتاً، وأبيتم عن الإيمان، واستبدلتموه بالكفر والعصيان، { ومن يتبدل الكفر بالإيمان } فقد تلف عن طريق الحق والسداد، ومأواه جهنم وبئس المهاد.

الإشارة: لا يُشترط في الولي ظهور الكرامة، وإنما يشترط فيه كمال الاستقامة، ولا يشترط فيه أيضاً هداية الخلق على يديه؛ إذ لم يكن ذلك للنبي فكيف يكون للولي؟ قال تعالى:

{ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ }
[يونس: 99] وقد سترى في طبع العوام ما سترى في طبع الكفار، قالوا:
{ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا }
[الإسراء: 90] الآية. فكثير من العوام لا يقرون الولي حتى يروا له آية أو كرامة، مع أن الولي كلما رسخت قدمه في المعرفة قلّ ظهور الكرامة على يديه؛ لأن الكرامة إنما هي معونة وتأييد وزيادة إيقان. والجبل الراسي لا يحتاج إلى عماد.

والحق هو ما قاله الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: (وإنهما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان على نعت الشهود والعيان، وكرامة العمل على السنة والمتابعة، ومجانبة الدعاوى والمخادعة، فمن أعطيهما ثم اشتاق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم والفهم، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى والكرامة، ثم جعل يشناق إلى سياسة الدوام وخلق الرضا) أو كما قال رضي الله عنه.

وقال شيخنا رضي الله عنه: (الكرامة الحقيقية هي الأخلاق النبوية والعلوم اللدنية). فمن أنكر أولياء أهل زمانه وطلب منهم الدليل غير ما تقدم فقد ضلّ سواء السبيل، وبقي مربوطاً في سجن البرهان والدليل. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } * { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَحِدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

قلت: { لو } مصدريةٌ مفعول { وَدَّ } ، و { كفاراً } : مفعول ثانٍ، و { حسداً } : مفعول له، علة لود، أو حال من الواو، و { من عند } متعلق بـ { أي } : يتمنوا ذلك من عند أنفسهم وتَشَهَّبَهُمْ، أو بقوله: { حسداً } ، فالوقف على قوله: { كفاراً } ، أي: حسداً حاصلًا من تلقاء أنفسهم، لم يستندوا فيه إلى شبهة ولا دليل، والعفو: ترك العقوبة بالذنب. والصفح: الإعراض عن المذنب، كأنه يولي عنه صفحة عنقه، فهو أبلغ من العفو.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في التحذير من اليهود وغيرهم من الكفار: تمّنى الذين كفروا من أهل الكتاب وغيرهم لو يصرفونكم عن دينكم و { يردونكم من بعد إيمانكم } بنبيكم { كفاراً } ضالين، كما كنتم قبل الدخول فيه، وذلك { حسداً } من { تلقاء } أنفسهم { غيرة } أن تكون النبوة في غيرهم، وذلك { من بعد ما بين لهم الحق } وعرفوه كما يعرفون أبناءهم، { فاعفوا } عن عتابهم، وأعرضوا عن تشغيبيهم { حتى يأتي الله بأمره } فيهم بالقتل والجلاء. { إن الله على كل شيء قدير } ، واشتغلوا بما كلفكم به من أداء حقوق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، كإتقان الصلاة وأداة الزكاة، واعلموا أن الله لا يضيع من أعمالكم شيئاً، فما تقدموا لأنفسكم ليوم فقركم تجدوه عند الله وأعظم أجراً، إن الله لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم.

نزلت الآية في عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، أتيا بيت المدّراس، فألنوا لهم الكلام، فطمعوا في صرفهما عن دينهما، ففضحهم الله ورد كيدهم في نحركم، والله تعالى أعلم.

الإشارة: من جملة ما دَبَّ إلى بعض الطوائف المتجمدين على تقليد أشياخهم: التعصب والحمية على طريق أشياخهم، ولو ظهر الحق عند غيرهم، وخصوصاً أولاد الصالحين منهم، فإذا رأوا أحداً ظهرت عليه أنوار الولاية، وأسرار الخصوصية، تمثّوا أن يردوهم عن طريق الحق، ويصرفوهم إلى مخالطة الخلق، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فيقال لمن توجه إلى الحق: فاعفوا واصفحوا حتى يظهر الحق، ولا تلتفتوا إلى تشغيبيهم، ولا تشتغلوا قط بعيبيهم فتكونوا أقيح منهم.

قال بعض العارفين: (لا تشتغل قط بمن يؤذيك واشتغل بالله يردك عنك، وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير، اشتغلوا بمن يؤذيه فطال الأذى مع الإثم. ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم). بل ينبغي لمن يُحَسِّدُ أو يُؤذِي أن يغيب عن الحاسد وكيدته، ويشتغل بما هو مكلف به من حقوق العبودية وشهود عظمة الربوبية، فإن الله لا يضيع من التجأ إليه، ولا يخيب مقصود من اعتمد عليه. وبالله التوفيق.

@ { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارًا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } * { بَلَا مَنَ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }

قلت: { وقالوا } عطف على { ود الذين كفروا } ، والضمير يعود على أهل الكتاب واليهود والنصارى، أي: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً،

وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان نصارى، و { هود } : جمع هائد، كبازل و بُزْلٍ و حائلٍ و حُولٍ، و { الأمانى } : جمع أمينة، وهي ما يتمنى المرء وبشتهيهِ، وأصله أمْنُويَةٌ كأصْحُوكةٍ وأعجوبة، فقلبت الواو ياءً وأدغمت، و { هاتوا } : اسم فعل بمعنى الأمر، ومعناه أت، وأهمل ماضيه ومضارعهُ، و { أسلم } : معناه: استسلم وخضع، والخوف مما يتوقع، والحزن على ما وقع.

يقول الحقُّ جلّ جلاله: وقالت اليهود: { لن يدخل الجنة } إلا مَنْ كان يهودياً، أي: على دينهم، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان نصرانياً، وهذه دعاوى باطلة، وأمانى فارغة ليس عليها بينة، بل مجرد أمانيم الكاذبة، { قل لهم يا محمد: { هاتوا برهانكم } أنكم مختصون بالجنة { إن كنتم صادقين } في هذه الأمانة، بل يدخلها غيركم من أهل الإسلام والإحسان، فإن { من أسلم وجهه لله } أي: انقاد بكلّيته إليه { وهو محسن } في أفعاله واعتقاده، { فله أجره عند ربه } وهو دخول النعميم والنظر إلى وجهه الكريم، { ولا خوف عليهم } من مكروهه يُتوقع { ولا هم يحزنون } على فوات شيء يحتاجون إليه؛ لأنهم في ضيافة الكريم تُساق إليهم المسار وتدفع عنه المضار، وبالله التوفيق.

الإشارة: من جملة ما دخل على بعض الفقهاء أنهم يَخُصون الخصوصية بهم وبمن تبع شيخهم، وينفونها عن غيرهم، وهذه نزعة يهودية، وتحكم على القدرة الإلهية فيقال لهم: تلك أمانيكم الفارعة، بل ينالها غيركم، فمن قصد الله صادقاً وجهه، وأنجز بالوفاء مواعده، فمن خضع لله وانقاد لأولياء الله، فله أجره عند ربه، وهو المعرفة به، ولا خوف عليه من القطيعة، ولا يحزن على فوات نصيبه من المعرفة. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَا عَلَيَا شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَا لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَيَا شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }

يقول الحقُّ جلّ جلاله: إخباراً عن مقالات اليهود والنصارى وتفتيحاً لصنيعهم: { وقالت اليهود } في الرد على النصارى: { ليست النصارى على شيء } يعتد به، { وقالت النصارى } في سبِّ اليهود، { ليست اليهود على شيء } يعتمد عليه، والحالة أنهم { يتلون الكتاب } ، فاليهود يتلون التوراة وفيها البشارة بعيسى عليه السلام، والنصارى يتلون الإنجيل، وفيه تقرير شريعة التوراة وصحة نبوة موسى عليه السلام، فقد كفرت كلُّ فرقة بكتابها غضباً وتعصباً، ومثل مقالتهُم هذه { قال الذين لا يعلمون } وهم المشركون، فقالوا: ليس المسلمون على شيء، { فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون } فيُدخل أهل الحقِّ الجنةَ وأهل الباطل النار، وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما قصه الحق تعالى علينا من مساوئ غيرنا فالمقصود به التنفير والتحذير من مثل ما راتكبوه، والتخلق بصد ما فعلوه، فكل من تراه ينقص الناس ويصغرهم فهو أصغرهم، وكل من تراه يقول: أصحاب سيدي فلان ليسوا على شيء، وأصحاب سيدي فلان ليس عندهم شيء، فليس هو على شيء، وقد ابتلي بعض المتصوفة بهذا الوصف الذميم، ينصب الميزان على الناس، فيسقط ثوماً ويرفع آخرين، وهو يتلو كتاب الله، ويسمع قوله تعالى:

{ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا... }
[الْحَجَرَات: 12] الآية.

وأكثر ما تجد هذا الوصف في بعض الفقهاء المتجمدين على ظاهر الشريعة،
يعتقد ألا علم فوق علمه، ولا فهم فوق فهمه، كيف؟ والله تعالى يقول:
{ وَمَا أوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا }
[الإِسْرَاء: 85]،

{ وَقَوْقُ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ }
[يُوسُف: 76]، وقد قال إمام الحرمين: (لأنَّ أَدْخَلَ الْكَاْفِرِ فِي الْإِسْلَامِ بِشُبُهَةٍ
حَيْرٌ مِنْ إِخْرَاجِ وَاحِدٍ مِنْهُ بِشُبُهَةٍ).

فالواجب على مَنْ أراد السلامة أن يُحسن الظن بجميع المسلمين، ويعتقد فيهم
أنهم كلهم صالحون، ففي الحديث: " حَصَلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ:
حُسْنُ الظن بالله، وحُسْنُ الظن بعباد الله، وَحَصَلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ
الشَّرِّ: سُوءُ الظنِّ بالله، وسُوءُ الظنِّ بعبادِ الله " وبالله التوفيق.

ثم وبَّح الحق - تعالى - النصارى على منع الناس من بيت المقدس وإيذاء مَنْ
يصلي فيه، وطرح الأقداء فيه، مع زعمهم أنهم على الحق دون غيرهم، قاله
ابن عباس، أو كفار قريش حيث منعوا المسلمين من الصلاة فيه، وصدوا
رسول الله عن الوصول إليه، قاله ابن زيد، والتحقيق: أن الحق تعالى وبَّح
الجميع.

@ { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا
أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }

قلت: { مَنْ } مبتدأ، و { أظلم } خبر، و { أن يذكر } إما منصوب على
إسقاط الخافض وتسلسل الفعل عليه، أي: من أن يذكر، أو بدل اشتمال من
{ مساجد } ، أو مجرور بالحروف المحذوف، قاله سيويه. و { خائفين } حال
من الواو.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: لا أحد أكثر جُرمًا ولا أعظم ظلمًا { ممن } يمنع
{ مساجد الله } من { أن يذكر } اسم الله فيها، جماعة أو فرادى، في صلاة
أو غيرها، { وسعى في خرابها } حيث عطل عمارتها، { أولئك ما كان } ينبغي
{ لهم أن يدخلوها } إلا بخشية وخشوع، فكيف يجترئون على تخریبها؟ أو ما
كان الواجب أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلاً عن
أن يمنعوهم منها، أو { ما كان لهم } في علم الله وقضائه { أن يدخلوها إلا
خائفين } ، فيكون وعداً أنجزه الله لهم، وقد فتح الله لهم مكة والشام، فكان
لا يدخل بيت الله الحرام كافر إلا خفية، خائفاً من القتل، ولا يدخل نصراني
بيت المقدس إلا خائفاً من المسلمين، فنالهم { في الدنيا خزي } وهو قتل
الحربي، وضرب الجزية على الذمي، وخزي المشركين قتلهم يوم الفتح،
وإذلالهم بدخولها عليهم عنوة، ولمن مات على الكفر { في الآخرة عذاب عظيم
{.

وهذه الآية - وإن نزلت في الكفار - فهي عامة لكل من يمنع الناس من الذكر في المساجد، كيفما كان قياماً أو قعوداً، جماعة أو فرادى، والله تعالى أعلم.

الإشارة: مساجدُ الله هي حضرة القلوب وحضر الأرواح وحضرة الأسرار، فحضرة القلوب لأهل المراقبة من أهل الإيمان، وحضرة الأرواح والأسرار لأهل المشاهدة والمكالمة من أهل الإحسان، فمن منع نفسه من الدخول في هذه الحضرات الثلاث، وسعى في خراب باطنه باتباع الحطوط والشهوات، ومال إلى الدنيا وزخارفها الغرارات، فلا أحد أظلم منه نفساً، ولا أبخس منه صفقةً. فلا ينجعُ في هؤلاء إلا خوف مزعج أو شوق مقلق. فإن لم يكن أحد من هذين بقي على غيِّه حتى مخايل الموت. فيحن إلى الدخول فيها خائفاً، ولا ينفع حينئذٍ الندم، وقد زلت به القدم، له في الدنيا ذلك الفقر والجزع، وله في الآخرة غم الحجاب وسوء الحساب وحسرة العتاب، نسأل الله العافية في الدارين. آمين. بمنه وكرمه.

وقال القشيري: نفسُ العابدِ وَطَنُ العبادة، وقلب العارف وطن المعرفة، وروح الواجد وطن المحبة، وسر الموحِّد وطن المشاهدة، ولا أظلم ممن سعى في خراب وطن العابد بالشهوات، وفي وطن المعرفة بالمُنَى والعلاقات، وفي وطن المحبة بالحطوط والمسكنات، وفي وطن الموحِّد بالالتفات إلى القربات. هـ. وبالله التوفيق.

@ { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }

قلت: { أينما } شرطية، و { تولوا } شَرْطُهَا، وجملة { فثم } جوابها، و(وَلِي) يستعمل بمعنى أدير وبمعنى أقبل، تقول: وليت عن كذا أو كذا، والوجه هنا بمعنى الجهة، تقول: سافرت في وجه كذا، أي في جهة كذا. قاله ابن عطية.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { ولله المشرق والمغرب } ، والجهات كلها له، لا يختص ملكه بمكان دون آخر، فإذا مُنعت من الصلاة في المساجد ففي أي مكان كنتم ووليتم وجهكم إلى القبلة التي أمرتم بالتوجه إليها فثم جهته التي أمر بها، أو فثم ذاته المقدسة، أي: عالم مطلع على ما يفعل فيه، { إن الله واسع } { بإحاطته بالإشياء، أو برحمته يريد التوسعة على عباده } { عليم } بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها.

وعن ابن عمر: أنها نزلت في صلاة المسار على الراحلة حينما توجهت به، وقيل: في قوم عميت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم، وعلى هذا: لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ، لم يلزمه التدارك. قاله البيضاوي.

الإشارة: اعلم أن الأماكن والجهات، وكل ما ظهر من الكائنات، قائمة بأنوار الصفات، ممحوة بأحدية الذات، " كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان "؛ إذ لا وجود لشيء مع الله، { فأينما تولوا فثم وجه الله } ، محق الآثار بإفلاك الأنوار، وانمحت الأنوار بأحدية الأسرار، وانفرد بالوجود الواحد القهار، ولله درُّ القائل:

مُدُّ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْراً وكذا الغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعٌ
مُدُّ تَجْمَعْتُ مَا حَشِيْتُ افْتِرْقاً فأنا اليومَ واصلُ مَجْمُوعٌ
وقال آخر:

فَالكُلُّ دُونَ إِنْ حَقَّقْتَهُ عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ
مَنْ لَّا وَجُودَ لذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوْجُودُهُ لَوْلَاهُ عَيْنٌ مُحَالٍ
وقال صاحب العينية:

تَجَلَّى حَبِيبِي فِي مَرَائِي جَمَالِهِ فِي كُلِّ مَرْنِي لِلْحَبِيبِ طَلَائِعُ
فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَّوَعاً تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهِنَّ مَطَالِعُ
وقال الششتري:

مَحْبُوبِي قَدْ عَمَّ الْوَجُودُ وَقَدْ ظَهَرَ فِي بَيْضِ وَسُودُ
قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: (دَخَلْتُ دَبْرًا جَاءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، فَقُلْتُ لِبَعْضِ النَّصَارِيِّ: ذُلْنِي
عَلَى بَقْعَةٍ طَاهِرَةٍ أَصْلِي فِيهَا، فَقَالَ لِي: طَهَّرْ قَلْبَكَ عَمَّا سِوَاهُ، وَقِفْ حَيْثُ
سَمْتٌ، قَالَ: فَحَجَلْتُ مِنْهُ). وَيَحْكِي عَنْ أَبِي يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَصْلِي
إِلَى جِهَةِ شَاءَ، وَيَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ، فَالْوَجْهَ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ هُوَ عَيْنُ الذَّاتِ، يَعْنِي
أَسْرَارَ الذَّاتِ وَأَنْوَارَ الصِّفَاتِ. قَالَ تَعَالَى: { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ } أَي: كُلُّ
شَيْءٍ فَإِنْ وَمَسْتَهْلِكُ فِي الْحَالِ وَالْإِسْتِقْبَالَ إِلَّا ذَاتَهُ الْمَقْدَسَةَ، وَأَنْشَدُوا:

فَالْعَارِفُونَ فَتَوْا بَأَنَّ لَمْ يَشْهَدُوا شَيْئًا سِوَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِي
وَرَأَوْا سِوَاهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ هَالِكًا فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْإِسْتِقْبَالِ
وقلت في تائيتي الخمرية في وصف الخمرة الأزلية:

تَنَزَّهَتْ عَنِ حُكْمِ الْخُلُولِ فِي وَصْفِهَا فَلَيْسَ لَهَا فِي سِوَى شَكْلِهِ حَلَّتِ
تَجَلَّتْ عَرُوسًا فِي مَرَائِي جَمَالِهَا وَأَرْحَتْ سُتُورَ الْكِبْرِيَاءِ بِعَرَّةِ
فَمَا ظَهَرَ فِي الْكُونِ عَيْزٌ بِهَائِهَا وَمَا احْتَجَبَتْ إِلَّا لِحَبِّ سُرْبَةِ
ولما قالت اليهود: عَزَّيرَ ابْنِ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارِيُّ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ
الْمَشْرُكُونَ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ.
@ { وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ
قَائِنُونَ } * { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَا أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }
{

قلت: هذه الجملة معطوفة على قوله: { وقالت اليهود... } الخ، ومن قرأ بغير
واو جعلها مستأنفة، و { بديع } بمعنى مُبْدِع، والإبداع: اختراع الشيء من غير
تقدم شيء. وقوله: { كن فيكون } قَدَّرَهُ سَبِيوِيهِ: فَهُوَ يَكُونُ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ
بِنَصْبِ الْمَضَارِعِ، وَلِحْنِهِ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّ الْمَنْصُوبَ فِي جَوَابِ الْأَمْرِ لَا بَدَأَ أَنْ يَصْلِحَ
جَوَابًا لِشَرْطِهِ، تَقُولُ: اضْرِبْ زَيْدًا فَيَسْتَقِيمُ، أَي: إِنْ تَضْرِبْهُ يَسْتَقِيمُ. وَلَا يَصْلِحُ أَنْ
تَقُولَ هُنَا: إِنْ يَكُنْ يَكُنْ، وَقَدْ يَجَابُ بِحَمَلِهِ عَلَى الْمَعْنَى، وَالتَّقْدِيرُ: إِنْ قُلْتَ كُنْ
يَكُنْ.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: وقالت اليهود والنصارى والمشركون: { اتخذ الله ولدا }
تعالى الله عن قولهم، وتنزهه عن ذلك؛ لأنه يقتضي الجنسية والمشابهة
والاحتياج، والحق منزّه عن ذلك. بل كل ما استقر في السماوات السبع

والأرضين السبع ملكه وعبيده، فكيف يكون العبد ولدًا لملكه؟. وأيضاً كل ما ظهر في الوجود كله قانت، أي: خاضع ومطيع لله، وعابد له، ومقهور تحت حكمه ومشيتته، وذلك مُنافٍ لحال البُنية.

وأيضاً: كل ما دخل عالم التكوين فهو مُبدَع ومَخْتَرَع لله، ومصنوع من مصنوعات الله، فلا يصح أن يكون ولدًا، وأيضاً: الولد يحتاج إلى صاحبة ومعالجة ومهلة، والحق تعالى أمره بين الكاف والنون، بل أسرع من لحظ العيون، فإذا { قضى أمراً } أي: أَرادَه، { فإنما يقول له كن فيكون } ، لا يتوقف على لفظة { كن } ، وإنما هو كناية عن سرعة الاقتدار.

قال البيضاوي: واعلم أن السبب في هذه الضلالة أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله تعالى، باعتبار أنه السبب الأول، حتى قالوا: إن الأب هو الرب الأصغر، والله تعالى هو الرب الأكبر، ثم ظنَّ الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة، فاعتقدوا ذلك تقليداً، ولذلك كفر قائله ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد. هـ.

الإشارة: اعلم أنك إذا نظرت بعين البصيرة، أو بحق البصيرة، إلى الوجود بأسره، وجدته ذاتاً واحدة، ونسبته من الحق نسبة واحدة، أنوار ظاهرة، وأسرار باطنة، حكمته ظاهرة، وقدرته باطنة حسن ظاهر، ومعنى باطن، عبودية ظاهرة، وأسرار معاني الربوبية باطنة؛ إذا لا قيام للعبودية إلا بأسرار معاني الربوبية. قال تعالى:

{ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا }
[فاطر: 41]، وقال تعالى:

{ اللَّهُ نُورٌ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }

[التور: 35]، وقال في الحكم: " الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فالنفس تنظر إلى ظاهر بهجتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها ". فأهل القَرَقِ يشبتون الأشياء مستقلة مع الله، وربما تعالى بعضهم فأشركها معه في الألوهية، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قال محيي الدين الحاتمي: من رأى الخلق لا فعلَ لهم فقد فاز، ومن رآهم لا حياة لهم فقد جاز، ومن رآهم بعين العدم فقد وصل. هـ. قلت: ومن أثبتهم بالله فقد تمكن وصله، وأنشدوا:

مَنْ أَبْصَرَ الْخَلْقَ كَالسَّرَابِ فَقَدْ تَرَقَّى عَنِ الْحَجَابِ
إِلَى وُجُودِ تَرَاهُ رَتَقًا بِلَا ابْتِعَادٍ وَلَا اقْتِرَابِ
وَلَمْ تُشَاهِدْ بِهِ سِوَاهُ هُنَاكَ تَهْدِي إِلَى الصَّوَابِ
فَلَا خِطَابَ بِهِ إِلَيْهِ وَلَا مُشِيرَ إِلَى الْخَطَابِ
هـ.

ولما قال رافع بن حريملة - من أحبار يهود - للرسول صلى الله عليه وسلم: أسمعنا كلام الله إن كنت رسوله، أو أرننا آية تصدقك. @ { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } * { إِنَّ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ }

قلت: هذه المقالة صدرت من بعض اليهود والمشركون، قالوا ذلك تعنتاً وعناداً، لا طلباً لليقين، فلذلك نفى الله عنهم العلم رأساً، والمقصود في هذه الآيات كلها توبيخ اليهود.

يقول الحق جلّ جلاله: { وقال الذين { لا علم عندهم: هلا { يكلمنا الله { حتى نسمع منه أنك رسوله، { أو تأتينا آية { ظاهرة، نراها جهرة تدل على رسالتك، كما كانت لموسى - عليه السلام - .

وهذه المقالة التي صدرت من اليهود، تعنتاً وعناداً، قد صدرت ممن قبلهم من أسلافهم، فقالوا: { أرنا الله جهرة { ، ومن النصاري فقالوا: { هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ { [المائدة: 112]، ومن المشركين فقالوا: { وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن تَخِيلٍ وَعَيْنٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا { [الإسراء: 90، 91] الآية. فقد تماثلت قلوبهم في الكفر والعناد، وتشابهت في العتو والفساد، قد أوضحنا لك الآيات البيّنات، تحقق رسالتك وتقرر اصطفايتك، لمن طلب مزيد الإيقان، وكشف البيان على نعت العيان، فأعظمها القرآن، ثم ما أوضحته من شرائع الأحكام، وما بينته من الحلال والحرام، ثم ما أخبرت به من الغيوب، وما كشفتته عن القلوب من الكروب، ثم نطق الجمادات والأحجار، كحنين الجذع وانقياد كشفتته عن القلوب من الكروب، ثم نطق الجمادات والأحجار، كحنين الجذع وانقياد الأشجار، وتسبيح الحصى، وتسليم الحجر، وقد نبع الماء من بين أصابعه وانهمر، إلى ما لا يعد ولا يحصى.

فقد { أرسلناك بالحق { ، أي: متلبساً بالحق ومبيناً له، { بشيراً { لمن صدقتك واتبعك بالنعيم المقيم، و { نذيراً { لمن خالفك بعذاب الجحيم. فلا تسأل عن حالهم إذا أفضوا إليه، فإنه أعظم من أن يذكر، وأقطع من أن يسمع، إذ لا يمكن تفسير حالهم، ولا يستطيع أحد سماع أهوالهم، فالله يعصمنا من موارد الردى، ويوفقنا لاتباع الحق والهدى، أو لا يسألك ربك عنهم فهو أعلم بحالهم، وبالله التوفيق.

الإشارة: طلب الكرامات وظهور الآيات من طبع أهل الجهل والعناد، وليس هو من شيم أهل الهداية والاسترشاد. فالطريق واضح لمن طلب السبيل، والحق لائح لمن أبصر الدليل، فمن كحل عين بصرته بإثمد التوحيد الخاص، لم يقع بصره إلا على إلا على الحق، ولا يعرف إلا إياه، ورأى الأشياء كلها قائمة بالله، بل لا وجود لها مع الله، ومن فتح الله سمع قلبه لم يسمع إلا من الحق، ولا يسمع إلا به، كما قال القائل: أنا بالله أنطق ومن الله أسمع.

وقال الجنيد رضي الله عنه: (لي أربعون سنة أناجي الحق، والناس يرون أنني أناجي الخلق). فالخالق محذوفون عند أهل العلم بالتحقيق، مُتَبَيَّنُونَ عند أهل الجهل والتفريق. يقولون: لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، مع أنه يكلمهم في كل وقت وساعة، كذلك قال من شاركهم في الجهل بالله، مع وضوح الآيات لمن عرف الله. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ولمّا قالت اليهود والنصارى لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اجعل بيننا وبينك هُدنةً نتبعك بعدها، وأضمرُوا في نفوسهم أنهم لا يتبعونه حتى يتبع ملتهم، فضحهم الله تعالى.

@ { وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ }

<B: الملة هي الشريعة، وهي ما شرع الله على لسان أنبيائه ورسوله، من أملت الكتاب وأملته، إذا قرأته. والهوى: رأى يتبع الشهوة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: لرسول صلى الله عليه وسلم: { ولن ترضى عنك اليهود { وتتبع دينك أبداً، { ولا النصارى { كذلك { حتى تتبع ملتهم { على فرض المحال، والمقصود قطع رجائه من إسلامهم باختيارهم؛ لأن اتباعه ملتهم محال، وكذلك إسلامهم. ولعله في قوم مخصوصين. ثم زاد في التنفير من اتباعهم فقال: { ولئن اتبعت أهواءهم { الباطلة فرضاً وتقديراً { بعد الذي جاءك من العلم { بالله وبأحكامه على المنهاج القويم، { ما لك من الله من ولي { يمنعك منا، { ولا نصير { ينصرك من غيرنا، أي: لا ولي ولا نصير لك إلا نحن؛ حيث واليتنا، وأحببتنا، وأظهرت ملتنا، فنحن لك على ما تحب وترضى.

الإشارة: التماس رضى الناس من علامة الإفلاس، ولن يرضى عنك الناس حتى تتبع أهواءهم، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما تحققت ما هم فيه، إنك إذا لمن الظالمين، فمن التمس رضى الناس وقع في سخط الله، ومن التمس رضى الله قطع يأسه من الناس، ولذلك قال بعضهم: كل ما سقط من عين الخلق عظم في عين الحق، وكل ما عظم في عين الخلق سقط من عين الحق، وقال آخر: إن الذي تكرهون مني هو الذي يشتهي قلبي. هـ.

وقال بعض الصالحين: (لقيتُ بعض الأبدال، فقلت له: دُلّني على الطريق؟ فقال: لا تخالط الناس؟ فإن مخالطتهم ظلمة، فقلت: لا بد من مخالطتهم وأنا بين أظهرهم؟ فقال: لا تعاملهم، فإن معاملتهم خسران. قلت: لا بد من معاملتهم؟ فقال: لا تركز إليهم، فإن في الركون إليهم هلكة، فقالت: هذا لعله يكون؟ فقال: يا هذا، أتخالط الباطلين، وتعامل الجاهلين، وتركن إلى الهلكى، وتحب أن يكون قلبك مع الله؟ هيهات... هذا لا يكون أبداً، ثم غاب عني ولم أره).

ولما عاتب الله بني إسرائيل ووبخهم استثنى من آمن منهم.

@ { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }

قلت: جملة { يتلونه { حال، و { أولئك { خبر الموصول.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { الذين آتيناهم الكتاب } ، كعبد الله بن سلام وأصحابه، حالتهم { يتلونه حق تلاوته } غير محرّفين له، ولا كاتمين ما فيه، { أولئك } هم الذين { يؤمنون به } حقيقة، وأما غيرهم ممن حرف وكتّم صفة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كفر به، { ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون } أي: الكاملون في الخسران، حيث بخسوا أنفسهم من عزّ الدارين.

الإشارة: ما قيل في التوراة وأصحابه يقال مثله في القرآن وأهله؛ فمن آتاه الله القرآن، وتلاه حق تلاوته، بحيث جَوَّدَ حروفه وتَدَبَّرَ معانيه، وعمل بما فيه، فأولئك هم المؤمنون به حقاً، والفائزين بثمار معانيه حلاوة وذوقاً، ومن ترك التدبر في معانيه فقد حرم نفسه ثمار حلاوته، وذلك عين الخسران عند أهل الإيقان، وبالله التوفيق.

@ { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } * { وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ } {

قلت: جملة { لا تجزي } : نعت ليوم، وحذف العائد، أي: لا تجزي فيه نفس، قال المرادي: (إذا نعت بالجملة اسم زمان جاز حذف عائده) ثم استدل بالآية. وهل حذف برمته أو بالتدرّيج؟ قولان.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم } بأن جعلت الأنبياء تسوسكم، والملوك منكم يدبرون أموركم، و { فضلتمكم } على عالم زمانكم، فاشكروا هذه النعم بالإيمان بالرسول الذي أرسلته إليكم، وخافوا أهوال يوم القيامة، الذي لا تغنى فيه { نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها } فداء إن أرادت الفداء، { ولا تنفعها شفاعة } شافع، ولا يدفع عنها أهوال ذلك اليوم ولي ولا ناصر، إلا من اتخذ يداً عند الملك القادر، وبالله التوفيق، وتقدمت إشارة هذه الآية في الآية الأولى.

ولما أراد الحق تعالى أن ينسخ القبلة ويردها إلى بيت الله الحرام بعد أن كانت إلى بيت المقدس، ذكر خصوصية مَنْ بناه، وكيفية بنائه، وفي ضمن ذلك ذكر شرفه ليكون ذلك داعياً إلى الامتثال.

@ { وَإِذِ ابْتَلْنَا إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَّهَنَّ قَالَ إِنَّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } {

قلت: { ابتلى } اختبر، و { إبراهيم } مفعول، وفيه أربع لغات، إبراهيم وإبراهوم وإبراهيم وبالقصر، و { ربه } فاعل، وقدم المفعول للاهتمام، وقدم المفعول للاهتمام، ولئلا يعود الضمير على بعده لفظاً ورتبة، و { عهدي } فاعل، و { الظالمين } مفعول.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكر يا محمد، أو اذكروا يا بني إسرائيل، حين اختبر { إبراهيم ربه بكلمات } أن يعمل بها، وهي: تسليم بدنه للنيران، وولده للقربان، وطعامه للضيّفان، أو عشر خصال: خمس في الرأس: المضمضة، والاستنشاق،

وقصّ الشارب، والسواك، وفرق الرأس: وقيل: وإعفاء اللحية، وخمس في الجسد: تغليم الظفر، وحلق العانة، وبتف الإبط، والاستنجاء بالماء، والاختتان، أو مناسك الحج أو الخصال التي امتحن بها وهي: الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والذبح، والأحسن أنها ثلاث: الهجرة من وطنه، ورمي ولده بمكة، وذبح الآخرة حين بلغ أن يسعى معه { فأتهمهن } أي: وقى بهن، فلما وقى بهن { قال } الله تعالى له: { إني جاعلك للناس إماماً } ، أي: قدوة بك في بك في التوحيد، أو في الأصول والفروع، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته، ومأمور باتباعه.

ولما جعله الله إماماً طلب ذلك لأولاده فقال: { ومن ذريتي } فاجعل أئمة، { قال } الحق تعالى: { لا ينال عهدي } أي: لا يلحق عهدي بالإمامة { الظالمين } منهم، إذ لا يصلح للإمامة إلا البررة الأتقياء، لأنها أمانة من الله وعهد، والظالم لا يصلح لها، وفيه تنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة لا يستحقون الإمامة، وفيه دليل على عصمة الأنبياء قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة. قاله البيضاوي.

الإشارة: إذا أراد الله تعالى أن يجعل ولياً من أوليائه إماماً يُقتدى به، وداعياً يدعو إليه، ابتلاه، فإن صبر ورضي اصطفاه، ولحضرته اجتهابه، فيكون إماماً يُقتدى به، وداعياً يُهتدى به، وهذه سنة الله تعالى في أصفائه يبتليهم الله تعالى بتسليط الخلق عليهم وأنواع من البلايا، فإذا نقوا من البقاياء، وتكلمت فيهم المزايا، أظهرهم للخلق داعين إلى الله ومرشدين إلى طريق الله، وقد تبقى الإمامة ذريتهم إن ساروا على هديهم، ومن لم يسلك به هذا المسلك فلا يصلح للإمامة، وإن توجه إليها كان ناقصاً في الدعوة، ولذلك قال بعضهم: (من ادعى شهود الجمال قبل تأدبه بالجلال، فرفضه فإنه دجال). هـ. وكل من اتصف بشيء من ظلم العباد لا ينال عهد الإمام في طريق الإرشاد، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ }

قلت: { المثابة } المرجع الذي يُثوب الناس إليه كل سنة، و { اتخذوا } على قراءة الأمر، محكي بقول محذوف، أي: وقلنا اتخذوا، وعلى قراءة الماضي: معطوف على { جعلنا } ، أي: جعلناه مثابة، واتخذها الناس مُصلى.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } اذكر يا محمد { إذ جعلنا البيت } الحرام: أي: الكعبة، مرجعاً للناس يرجعون لزيارته والطواف به كل سنة، وجعلناه محل أمن، كل من دخله كان آمناً من عقوبة الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنّ الناس يُتخطفون من حوله، وأهله آمنون، وأما في الآخرة فلأن الحج يُجب ما قبله، وهذا يدل على شرف البيت وحرمة.

وقلنا لهم: { اتخذوا من مقام إبراهيم } ، وهو الحجر الذي فيه أثر قدميه، { مصلى } يصلون إليه، وهو الذي يصلون خلفه ركعتي الطواف، { وعهدنا }

أي: أوحينا { إلى إبراهيم وإسماعيل } ولده، بأن قلنا لهما: { طهرا بيتي } من الأذناس والأرجاس والأصنام والأوثان، { للطائفين } به { والعاكفين } أي: المقيمين فيه، والمصلين فيه الراكعين الساجدين. فكان البيت مطهراً في زمانهما وبعدهما زماناً، ثم أدخلت فيه الأصنام فطهره نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وتبقى طهارته حتى يأتي أمر الله، والله تعالى أعلم.

الإشارة: القلب هو بيت الرب، يقول الله تبارك وتعالى لبعض أنبيائه: { طهر لي بيتاً أسكنه، فقال: يا رب أي بيت يسعك؟ فقال له: لن تسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن } فإذا تطهر القلب من الأغيار وملئ بالأنوار، وتمكنت فيه المعارف والأسرار، كان مرجعاً وملجأ للعباد، كل من وصل إليه، وطاف به، كان أمناً من الزيف والعناد، ومن خواطر السوء سوء الاعتقاد، ومن دخله والوداد، أمن من الطرد والبعد، وكان عند الله من أفضل العباد. ومقام إبراهيم - عليه السلام - هو الاستغراق في عين بحر الشهود، ورفع الهمة عن ما سوى الملك المعبود.

وهذا المقام هو الذي اتخذته العارفون كعبة لصلاة قلوبهم، وغاية لمنتهى قصودهم.

عِبَارَاتُهُمْ شَتَّى، وَحُسْنُكَ وَاجِدٌ، وَكُلُّ إِلَى ذَلِكَ الْجَمَالِ يُنْبِئُ
وقد عهد الله تعالى إلى أنبيائه وأصفيائه أن يطهروا قلوبهم من الأغيار، ويرفضوا كل ما سواه من الأكدار، لتتهباً بذلك لطواف الواردات والأنوار، ولعكوف المعارف والأسرار، وتخضع لهيبتها ظواهر الأشباح، وتنقاد لجمال بهجتها القلوب والأرواح، وما ذلك على الله بعزيز.
@ { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }

قلت: الإشارة تعود إلى المكان، أو البلد، أي: اجعل هذا المكان بلداً ذا أمن، قال بعضهم: نكر البلد هنا، وعرفه في سورة إبراهيم، لأن هذا الدعاء وقع قبل أن يكون بلداً، وفي سورة إبراهيم وقع بعد أن كان بلداً فلذلك عرفه، وفيه نظر من جهة التاريخ، وسيأتي تمامه هناك إن شاء الله.

وقوله: { مَنْ آمَنَ } بدل من { أهله } ، بدل البعض للتخصيص، و { مَنْ كَفَرَ } معطوف على { مَنْ آمَنَ } ، على حذف المضارع، أي: وارزق من كفر.

يقول الحق جل جلاله: { و } اذكر { إذ قال إبراهيم } في دعائه لمكة لما أنزل الله بها بوادٍ غير ذي زرع، وتركه في يد الله تعالى: { رب اجعل هذا } المكان { بلداً آمناً } يأمن فيه كل من ياوي إليه، { وارزق أهله من } أنواع { الثمرات } ، كالحبوب وسائر الفواكه، { من آمن بالله واليوم الآخر } { قال } الحق جل جلاله: بل وارزق أيضاً { من كفر } في الدنيا { فأمتعته } زمنياً { قليلاً } ، أو تمتيعاً قليلاً، { ثم } أجهه { إلى عذاب النار } وبئس المرجع مصيره.

قاس إبراهيم الخليل الرزق على الإمامة، فبَّه سبحانه وتعالى أن الرزق رحمه دنيوية، تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة، والتقدم في الدين، فإنها سبب النعيم الأخروي، ولا ينالها إلا أهل الإيمان والصلاح.

الإشارة: دعاء الأنبياء عليهم السلام، كما يصدقُّ بالحس يصدق بالمعنى، فيشمل دعاء الخيل القلوب التي هي بلد الإيمان، والأرواح التي هي معدن الأسرار والإحسان، فتكون أمانة من طوارق الشيطان، ومحفوظة من الوقوف مع رؤية الأكوان، أمانة من الأكدار، محفوظة من رؤية الإغيار، فيرزقها الله من ثمرة العلوم، ويفتح لها من مخازن الفهوم، من أمن منهم بالشرعية الظاهرة، وجاهد نفسه في عمل الطريقة الباطنة، حتى أشرقت عليه أنوار الحقيقة العيانية، وأما من كفر بطريقة الخصوص، ووقف مع ظاهر النصوص، وإنما يُمتَّع بعلم الرسوم الذي حدَّ حلاوته اللسان، ثم يلجأ إلى عذاب الحجاب، وسوء الحساب، ولم يُفَضَّ إلى حلاوة الشهود والعيان، التي يمتع بها الجنَّ حتى يُفَضِّي إلي نعيم الجنَّ، فيتم النعيم بالنظر إلى وجهه الكريم، منحنا الله من ذلك حظاً وافراً يمتُّه وكرمه.

@ { وَإِذْ پَرَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }

قلت: { القواعد } جمع قاعدة، وهي الأساس، وكأنه مأخوذ من العقود بمعنى الثبات، وأما القواعد من النساء، فجمع قاعد، بلا تاء، لأنه وصف خاص بالنساء، فلا يحتاج إلى تمييز التاء، و { ربنا } منصوب على النداء محكي بحال محذوفة، أي: حال كونهم قائلين ربنا... الخ.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: واذكر وقت رفع { إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل }، وبنائهما له، بعد أن درس بالطوفان، وكان بناء آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض بإعلام الملائكة، كان إبراهيم عليه السلام بيني، وإسماعيل يُناوله الحجارة، فنسب البناء لهما لتعانهما، وقيل: كانا بينان كلَّ في ناحية، حال كونهما قائلين: { ربنا تقبل منا } علمنا هذا، { إنك أنت السميع } لدعائنا، { العليم } بنباتنا وسرائرنا.

الإشارة: ينبغي للعبد أن يرفع قواعد إسلامه، ويشيد دعائمه بتحقيق أركانه، كإتقان الشهادتين بتحقيق معانيها، وإتقان الصلاة بإتقان أركانها الظاهرة والباطنة، وإتقان الزكاة بإخلاص أدائها، وإتقان الصيام بتحصيل آدابه، وإتقان الحج بتحصيل مناسكه بعد وجوبه، ويرفع أيضاً قواعد إيمانه بتحقيق أركانه، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، حُلوه ومُره، اعتقاداً وذوقاً، ويرفع أيضاً قواعد إحسانه، بتحصيل مراتبه، كتحقيق المشاهدة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يستطع فليعبده كأن الله يراه، وإن شئت قلت: رفع قواعد الإسلام يكون بتحقيق التوبة والتقوى والاستقامة، ورفع قواعد الإيمان يكون بتحقيق الإخلاص والصدق والطمأنينة، ورفع قواعد الإحسان يكون بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة، كما قال الساحلي - رحمه الله -

@ { رَبَّنَا وَإِجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } * { رَبَّنَا وَإِيعِزُّ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلِيَهُمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَبُزَكِيَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } {

قلت: قال ابن عباس رضي الله عنه: لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بناء البيت، دَعَا بهذا الدعاء، فقال: { ربنا واجعلنا مسلمين لك } أي: منقادين لأوامرك الظاهرة ولأحكامك القهرية.

واجعل { من ذريتنا أمة } أي: جماعة { مسلمة لك }؟ عِلْمًا - بوحى أو إلهام - أنه يكون من ذريتهما من يكفر بالله، { وأرنا } أي: عرفنا وعلمنا { مناسكنا } في الحج. والتسك في الأصل: غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من المشاق والكلفة، والبعد عن العادة. { وتب علينا } مما لا يليق بحالنا، فسحنا الأبرار سيئات المقربين، فلكل مقام ما ينقصه وإن كان كاملاً. ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يستغفر في المجلس سبعين مرة. إذ ما من مقام إلا وقبلة ما فيه نقص، فإذا ترقى عنه استغفر منه { إنك أنت التواب الرحيم } أي: كثير القبول والإقبال على التائبين.

{ ربنا وابعث فيهم } أي: في الذرية { رسولاً منهم } وهو مولانا محمد صلى الله عليه وسلم قال - عليه الصلاة والسلام -: " أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى " ، حال كونه { يتلو عليهم } أي: يبلغهم { آياتك } الدالة على توحيدك وصدق رسالتك، { ويعلمهم الكتاب } أي: القرآن { والحكمة } أي: الشريعة أو السنة. وقال مالك: هي الفقه في الدين والفهم فيه، أو نور يضعه في قلب من شاء من عباده، { وبزكيتهم } أي: يطهرهم من لوث المعاصي وكدر الحس، { إنك أنت العزيز } الغالب في حكمه وسلطانه، { الحكيم } في صنعه وإتقانه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: تضمن دعاؤهما عليهما السلام ثلاثة أمور يُطلب التماسها والتحقق بها من كل أحد؛ أولها: الانقياد لله في الظاهر والباطن، بامتثال أمره والاستسلام لقهره، حتى يسري ذلك في الأصل إلى فرعه، وهي غاية المنّة، قال في الحكم: " متى جعلك في الظاهر ممثلاً لأمره، وفي الباطن مستسماً لقهره، فقد أعظم منته عليك ". الثاني: معرفته الطريق، والسلوك على جادتها، كارتكاب مشاق الطاعات، ومعانقة مخالفة الهوى والشهوات، ورؤية التقصير في ذلك، وطلب التوبة مما هنالك، وهذه هي مناسك حج القلوب، والطريق الموصل إلى عَرَفَةَ حَصْرَةَ الغيوب، والثالث: الظفر بالداعي إلى الله والدال عليه، وهو المعلم الأكبر، صحبته تطهر من العيوب، ورؤيته تغني القلوب، وتدخلها إلى حضرة الغيوب، ظاهره قائم بوظائف الحكمة، وباطنه مشاهد لتضاريف القدرة، وهذا هو القائم بالترية النبوية. وبالله التوفيق.

@ { وَمَنْ يَرْعَبْ عَن مَّלَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } * { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } * { وَوَصَّيْنَا بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَا لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } {

قلت: { من } : استفهامية إنكارية، فيها معنى النفي، مبتدأ، و { يرغب } وما بعده خبر، و { إلا } إبطال لنفيها الذي تضمنته، و { مَن سَفِهَ } بدل من ضمير { يرغب } على المختار، و { نفسه } مفعول { سَفِهَ }؛ لتضمنه معنى جهل أو أهلك، قاله الزجاج، أو على التمييز؛ قاله الفراء؛ لأن الضمير فيه معنى الشيعو الذي في { مَن } فلم يكسب التعريف، أو على إسقاط الجار وإيصال الفعل إليه، كقولهم: ضرب فلان الظهر والبطن. و { إذ } معمول لاصطفيائه، وأوصى ووصى: لغتان، إلا أن وصى فيه معنى التكثير. وضمير { بها } يعود على كلمة { أسلمت }، أو الملة، و { يعقوب } معطوف على { إبراهيم }، و { بني } محكي بحال محذوفة، أي: قائلين يا بني، أو مبتدأ، والخبر محذوف، أي: قال يا بني... الخ، فيوقف على { بينه }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وَمَن } هذا الذي { يرغب } عن ملة إبراهيم { الواضحة } { إلا } من جهل قدر { نفسه } وبسخها حقها؟ أو إلا من خف رأيه وسفهت نفسه؟ وكيف يرغب عاقل عنها وقد اخترناه أماماً { في الدنيا } يقتدي به أهل الظاهر والباطن؟ { وإنه في الآخرة لمن الصالحين } لحضرتنا، والساكنين في جوارنا.

وإنما اخترناه لذلك لأنه حين { قال له ربه } : استسلم لحكمنا، وانقد لأمرنا، قال سريعاً: { أسلمت } وجهي { لرب العالمين }، وانقدت بكليتي إليه. { ووصى } بهذه الكلمة أو الملة { إبراهيم }، عند موته، { بنيه }، وكانوا أربعة: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان. وكذلك حفيده { يعقوب } أوصى بهذه الكلمة بنيه. وكانوا اثني عشر، على ما يأتي في الأسباط، قائلين في تلك الوصية: { يا بني إن الله } اختار لكم { الدين } الحنيف الواضح المنيف، فتمسكوا به ما عسبتم ولا تموتن { إلا وأنتم مسلمون } متمسكون به.

الإشارة: ملة أئينا إبراهيم عليه السلام هي رفع الهمة عن الخلق، وإفراد الوجهة للملك الحق، ورفض الوسائط والأسباب، والتعلق بربّ الأرباب، وفي ذلك يقول الشاعر، وهو الششتري:

فَرَفِضُ السُّوَيِّ فَرَضُ عَلَيْنَا لِأَنَّنا بَمِلَّةِ مَحُو الشُّرِكِ والشَّكِّ قَدْ دَنَا
وَمِنْ مِلَّتِهِ أَيْضاً: تَرَكَ التَّدْبِيرَ والِاخْتِيَارَ، والِاسْتِسْلَامَ لأَحْكَامِ الوَاحِدِ القَهَّارِ، فَمَنْ
تَمَسَّكَ بِهَذِهِ الخِصَالِ عَلَى التَّمَامِ. وِوَصَى بِهَا نَمَ لِقِيهِ مِنَ الأَنَامِ، جَعَلَهُ اللهُ فِي
الدُّنْيَا إِمَاماً يَقْتَدِي بِأَقْوَالِهِ وَيَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِ، وَإِنِّه فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
المُقْرَبِينَ مَعَ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ، وَأَمَّا مَنْ رَغِبَ عَنِ هَذِهِ المِلَّةِ الحَنِيفَةِ فَقَدْ
خَسِرَ الدُّنْيَا والآخِرَةَ. نَسَأَلُ اللهَ الحِفْظَ بِمُتَّهٍ وَكِرْمِهِ.
@ { أُمَّ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْثُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي
قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهاتِكُ وَإِلَهاتِ آبَائِكُ إِبراهيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلَهاتِ وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ } * { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

قلت: { أم } : منقطعة، والاستفهام فيها للإنكار، أي: ما كنتم حاضرين حين حضر يعقوب الموت، وقال لبنيه ما قال، فكيف تدعون اليهودية عليه، و { إلهها واحداً } بدل من { إله آبائك }، وفائدته التصريح بالتوحيد، ونفي التوهم الناشئ عن تكرير المضاف، لتعذر العطف على المجرور، والتأكيد، أو نصب على الاختصاص

أو الحال، وعد إسماعيل من الآباء تغليباً، أو لأنه كالأب؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام:- " عَمُّ الرَّجُلِ صِنُّ أَبِيهِ " وقال في العباس: " هذا بقية آبائي " قاله البيضاوي.

يقوله الحق جلّ جلاله: في توبيخ اليهود على زعمهم أن اليهودية كانت ملة إبراهيم، وأن يعقوب عليه السلام أوصى بها عند موته، فقال: هل كنتم حاضرين عند يعقوب حين حضرته الوفاة حتى أوصى بما زعمتم؟ وإنما كانت وصيته أن قال لبنيه: { ما تعبدون من بعدي { أي: أي شيء تعبدونه؟ أراد به تقريرهم على التوحيد وأخذ ميثاقهم على الثبات عليه، { قالوا { في جوابه: { نعبد إلهك { المتفق على وجوب وجوده وثبوت ألوهيته الذي هو { إلهك وإله آبائك { قبلك { إبراهيم { وولده { إسماعيل وإسحاق { الذي هو إله واحد. ونحون منقادون لأحكامه، مستسلمون لأمره إلى مماتنا، فلم يوص يعقوب إلا بما سمعتم، فانتسابكم يا معشر اليهود إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم.

فتلك { أمة { أي: جماعة { قد خلت لها ما كسبت { من الخير، { ولكم ما كسبتم { أنتم، { ولا تسألون عما كانوا يعملون { فلا تؤاخذون بسينئاتهم، كما لا تثابون بحسناتهم. وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم لقريش: " لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأئسابكم ".

الإشارة: يقال لمن حصر الخصوصية في أسلافه، ونفاها عن غيرهم: هل حضرتهم معهم حين أوصوا بذلك؟ بل ما كانوا يوصون إلا بإخلاص العبودية، وتوحيد الألوهية، ومشاهدة عظمة الربوبية، فمن حصل هذه الخصال كانت الخصوصية معه أينما كان، ومن حاد عنها ومال إلى متابعة الهوى انتقلت إلى غيره، ويقال له: إن أسلافه قد جدوا ووجدوا، وأنت لا تنتفع بأعمالهم في طريق الخصوصية، { تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم... { الآية. وبالله التوفيق.

@ { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارًا تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {

قلت: الضمير في { قالوا { لأهل الكتاب، و { أو { للتفصيل، أي: قالت اليهود: كونوا هوداً، وقالت النصارى: كونوا نصارى. و { تهتدوا { جواب الأمر، و { ملة { منصوب بفعل محذوف، على حذف مضاف، أي: بل نكون أهل ملة إبراهيم، أو نتبع أو نلزم ملة إبراهيم، و { حنيفاً { حال من المضاف إليه، لأنه كجزئه، أي: مائلاً عن الباطل، إلى الحق.

يقول الحق جلّ جلاله: وقالت اليهود للمسلمين: { كونوا { معنا هوداً { تهتدوا {؛ فإن ديننا أقدم، وقالت النصارى لهم أيضاً، كونوا { نصارى { معنا { تهتدوا { فإن ديننا أصوب، { قل { لهم يا محمد: { بل { نلزم { ملة إبراهيم { الذي كان مائلاً عن الباطل متبعاً للحق، ومشاهداً له وحده. ولم يكن من المشركين كما أشركتم بعزير وعيسى وغيرهما، تعالى الله عن قولكم علواً كبيراً.

الإشارة: قد سرى هذا الطبع في بعض المنتسبين، يُرَعَّبُونَ الناس في طريقهم، ويحرصون على اتباعهم والدخول معهم، وينقصون طريق غيرهم، وهو وصف

مذموم، بل الواجب أن ينظر الإنسان بعين البصيرة، فمن وجده يدل على الله ويغيب عما سواه، ينهض حاله ويدل على الله مقاله، اتبعه وخط رأسه له، ولزم ملته وطريقه وإنما كان، وكيفما كان. ومن وجده على غير هذا الوصف، أعرض عنه، والتمس غيره، وليس من شأن الدعاة إلى الله الحرص على الناس، أو الترغيب في اتباعهم، بل هم أزهّد الناس في شأن الدعاة إلى الله الحرص على الناس، أو الترغيب في اتباعهم، بل هم أزهّد الناس في الناس، من أتاهم دلوه على الله، ومن لقيهم نصحوه في الله، هم على قدّم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قال له الحقّ تعالى:

{ أَقَانَتْ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ }
[يونس: 99].

{ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ }
[الغاشية: 22].

{ لَعَلَّكَ بَاجِعٌ تُفْسِكُ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ }
[الشّعراء: 3] فكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يدل على الله وينظر ما

يفعل الله. وبالله التوفيق.

@ { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن رَّبِّهِمْ وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } * { فَإِن آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } *
{ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ }

قلت: الأسباب: الأحفاد، والسبب في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، والباء في { بمثل } يحتمل أن تكون زائدة كقوله تعالى:

{ جَزَاءً سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا }
[يونس: 27]، أو { مثل } مُقْتَم، أي: فإن آمنوا بما آمنتم به، كقوله تعالى:

{ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ }
[الأحقاف: 10]. والشقاق: المخالفة، كأن كل واحد من المتخالفين في شق غير شق الآخر، و { صبغة الله } مصدر مؤكد لآمنا؛ لأن الإيمان ينصبغ في القلوب، ويظهر أثره على الجوارح ظهور الصبغ على المصبوغ، ويتداخل في قلوبهم تداخل الصبغ للثوب. أي: آمنا وصبغنا الله به صبغة.

وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وعبر عنها بالصبغ للمشاكلة؛ فإن النصراني كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وبه تحقق نصرانيتهم، فردّ الله تعالى عليهم بأن صبغة، الله أحسن من صبغتهم وقيل: نصب على البديل من { ملة إبراهيم }، أو على الإغراء، أي: الزموا صبغة الله.

يقول الحق جلّ جلاله: { قولوا } يا معشر المسلمين في تحقيق إيمانكم: { آمنا بالله } أي: صدقنا بوجوده متصفاً بصفة الكمال، منزهاً عن النقائص، { و } بما { أنزل إلينا } وهو القرآن، { و } بما { أنزل } من الصحف { إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب } ولد إسحاق، { والأسباط } أولاد يعقوب عليه السلام وهم: روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وربالون وبشخر، وندية بنته، وأمهم

لياً، ثم خلف على أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، وُوُلِدَ له من سَرَّتَيْنِ: دان ونفتالي وجاد وأشر.

قال ابن حجر: اختلف في نبوتهم، فقيل: كانوا أنبياء، وقيل: لم يكن فيهم نبي، وإنما المراد بأسباط قبائل من بني إسرائيل، فقد كان فيهم من الأنبياء عدد كثير. هـ. وممن صرَّح بنفي نبوتهم عياض وجمهور المفسرين. انظر: المحشي الفاسي.

وقولوا: آمنا بما أنزل إلى { موسى } وهو التوراة، { وعيسى } وهو الإنجيل، وبما { أوتي النبيون } كلهم { من ربهم } من عرفنا منهم ومن لم نعرف، { لا نفرق بين أحد } واحد { منهم } كما فرقت اليهود والنصارى، فقد آمنا بالله وجميع أنبيائه { ونحن له مسلمون } أي: منقادون لأحكامه الظاهرة والباطنة.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { فإن آمنوا } أي: أهل الكتاب إيماناً مثل إيمانكم، { فقد اهتدوا } إلى الحق والصواب، وإن أعرضوا عن ذلك فاتركهم حتى نامرك فيهم، { فإنما هم في شقاق } وخلاف لك، فلا تهتم بشأنهم، { فسيكفيهم الله } أي سيكفيك شرهم وينصرك عليهم، { وهو السميع } لدعائكم، { العليم } بإخلاصكم، فالزموا { صبغة الله } التي صُبِغتم بها، هي الإيمان بما ذكرت لكم؛ فإنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، { و } { قولوا: نحن له عابدون }.

الإشارة: كما أوجب الله تعالى الإيمان بجميع الرسل في طريق العموم، كذلك أوجب الله التصديق بكل من ثبتت ولايته في طريق الخصوص، فمن فرق بينهم فقد كفر بطريقهم، ومن كفر بطريقهم طرد عن بابهم، ومن طرد عن بابهم طرد عن باب الله، لأن إسقاطه من الولاية إيذاء له، ومن أذى ولياً فقد أذن الله بالحرب، فالواجب، على من أراد أن يرد مناهلهم، أن يصدق بجميعهم، ويعظم من انتسب إليهم، حتى تتصغ في قلبه حلاوة الإيمان، وتشرق عليه شمس العرفان، فمن فعل هذا فقد اهتدى إلى الحق والصواب، واستحق الدخول مع الأحباب، ومن أعرض عن هذا فإنما هو في شقاق، وربما يخاف عليه من شؤم الكفر والنفاق، فسيكفي الله أوليائه سوء شره، والله غالب على أمره.

@ قال القشيري: فللقلوب صبغة، وللأرواح صبغة، وللسرائر صبغة، وللظواهر صبغة، فصبغة الأشباح والظواهر بأثار التوفيق، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق. هـ. وقال الورتجبي: صبغة الله: صفته الخاصة التي خلق آدم عليها، وأورثت ذلك في أرواح ذريته من الأنبياء والأولياء. ثم قال: وسقاها من شراب الزلفة، وألهمها خصائص علوم الربوبية، فاستنارت بنور المعرفة، وخاصت في بحر الربوبية، وخرجت منها تجليات أسرار الوجدانية، وتكوّنت بصغ الصفات. هـ. وبالله التوفيق.

@ { قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَتَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ } * { أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُوداً أَوْ نَصَاراً قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } * { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ }

قلت: الذي يظهر أن { أم } منقطعة، بمعنى بل، على قراءة الخطاب والغيبة؛ لأن المقصود إنكار وقوع الأمرين معاً، لا أحدهما.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد لأهل الكتاب: أتخاصموننا { في الله } وتقولون: أنتم أولى به منا { وهو ربنا وربكم } ، لا يختص به واحد دون آخر، { ولنا أعمالنا } نتقرب بها إليه، { ولكم أعمالكم } تتقربون بها أيضاً، فكيف تختصون به دوننا { ونحن له مخلصون } في أعمالنا وقلوبنا دونكم فإنكم؛ أشركتم به غيره، فإن قلت: إن الأنبياء كلهم منكم وعلى ملتكم فقد كذبتم، أتقولون { إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب } وأولاده { الأسباط كانوا هوداً } على دينكم يا معشر اليهود، { أو نصارى } على ملتكم يا معشر النصارى.

{ قل } لهم يا محمد: { أنتم أعلم أم الله } وقد نفى الأمرين معاً عن إبراهيم فقال:

{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا }
[آل عمران: 67]، وقال:

{ وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ }

[آل عمران: 65]، وهؤلاء المعطوفون عليه: أتباعه في الدين، فليسوا يهوداً ولا نصارى، فكيف تدعون أنهم كلهم منكم، وعلى دينكم، وأنتم تشهدون أنهم لم يكونوا على دينكم؟ { ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله } ، وهي شهادة الحق لإبراهيم بالحنيفية، والبراءة من اليهودية والنصرانية، أي: لا أحد أظلم منه، وليس الله تعالى { بغافل عما تعملون } ، بل يجازيكم على النقيير والقطمير، فإن اعتمدتم على نسبكم إليهم فقد اغتررتم.

{ تلك أمة } قد مضت، { لها ما كسبت } لا ينتفع به غيرها، { ولكم ما كسبتم } لا ينفعكم غيره، ولا تسألون عن عملهم كما لا يسألون عن أعمالكم، قال البيضاوي: كرهه للمبالغة في التحذير، والزجر عما استحکم في الطباع من الافتخار بالأباء، والاتكال عليهم، وقيل: الخطاب فيما سبق لهم، وفي هذه الآية لنا، تحذيراً عن الاقتداء بهم، وقيل: المراد بالأمة في الأولى الأنبياء، وفي الثانية أسلاف اليهود والنصارى. هـ.

الإشارة: كل من أقامه الحقّ في وجهه، ووجهه إليها، فهو عامل لله فيها، قائم بمراد الله منها، وما اختلفت الأعمال إلى من جهة المقاصد، وما تفاوت الناس إلى من جهة الإخلاص. فالخلق كلهم عبيد للملك المجيد، وما وقع الاختصاص إلا من جهة الإخلاص. فمن كان أكثر إخلاصاً لله كان أولى من غيره بالله، وبقدر ما يقع للعبد من الصفاء يكون له من الاصطفاء، فالصوفية والعلماء والعباد والزهاد وأهل الأسباب على اختلاف أنواعهم كلهم عاملون لله، ليس أحد منهم بأولى من غيره بالله إلا من جهة الإخلاص وإفراد القلب لله، فمن ادعى الاختصاص بالله من غير هذه الوجهة فهو كاذب، ومن اعتمد على عمل غيره فهو مغرور، يقال له: { تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون }.

ولمّا أراد الله تعالى أن ينسخ القبلة من جهة الشام ويردها إلى الكعبة، أخبر أنه سيكرها قومٌ حَقَّتْ أحلامُهم، وفسدت بالتقليد الردي عقولهم، وهم أحبار اليهود والمنافقون والمشركون.

@ { سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَا صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

يقول الحقُّ جلّ جلاله: { سيقول السفهاء من الناس { الذين لا عقل لهم ولا دين، حين تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة: ما صرفهم { عن قبلتهم التي كانوا عليها { ، فلو دام عليها لاتبعناه. { قل { لهم يا محمد: { لله المشرق والمغرب { لا يختص ملكه بمكان دون مكان بخاصية ذاته تمنع من إقامة غيره مقامه، بل الأماكن عند الله سواء: والخلق في حقه سواء، { يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم } ، ويضل مَن يشاء عن المنهاج القويم " لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ " [الأنبياء: 23]، والصراط المستقيم: ما ترضيه الحكمة وتقتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة، والكعبة أخرى، وفائدة تقديم الإخبار به: توطين النفس وإعداد الجواب. قاله البيضاوي.

قال بعض العارفين: (لي أربعون سنة ما أقامني الحق في شيء فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته). بخلاف السفهاء من الجهال، فشأنهم الإنكار عند اختلاف الأحوال، فمن رأوه تجرد عن الأسباب وانقطع إلى الكريم الوهاب، قالوا: ما ولاه عن حاله الذي كان عليه؟ وأكثروا من الاعتراض والانتقاد عليه، وكذلك من رأوه رجع إلى الأسباب بعد الكمال، قالوا: قد انحط عن مراتب الرجال. وهو إنما زاد في مراتب الكمال. فالملك كله لله، يهدي مَن يشاء إلى الصراط مستقيم، ويضل مَن يشاء بعدله الحكيم.

@ { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَبْتَغِ الرَّسُولَ مِن مَّن يَنْقَلِبُ عَلَيْنَا عَقْبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ }

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... } قلت: { الوسط } هو العدل الخير الفاضل، وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة؛ لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبين، ثم أطلق على المتصف بها مستويًا فيه الواح والجمع، والمذكر والمؤنث. قاله البيضاوي.

يقول الحقُّ جلّ جلاله: وكما جعلناكم مهتدين إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبيلتكم أفضل الجهات، جعلناكم أمة أفضل الأمم، خياراً عدولاً مزكين بالعلم والعمل، لتصلحوا للشهادة على غيركم، فتكونوا يوم القيامة { شهداء على الناس } ، ويزكيكم نبيكم فيشهد بعدالتكم.

قال البيضاوي: رُوِيَ (أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيُطالِبُهُم الله بينة التبليغ وهو أعلم بهم، إقامة للحجة على المنكرين، فيؤْتَى بأمة مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فيشهدون، فتقول الأمم: مِنْ أَيْنَ عَرَفْتُمْ؟ فيقولون: عَلِمْنَا ذلك بِأَخْبَارِ الله فِي كِتَابِهِ النَّاطِقِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الصَّادِقِ. فيؤْتَى بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فيَسْأَلُ عَنْ حَالِ أُمَّتِهِ فَيَشْهَدُ بَعْدَ أَلْتِهِمْ).

وهذه الشهادة، وإن كانت لهم، لكن لما كان الرسول كالرقيب المهيمن على أمته عُذِّي بِعَلَى، وقُدِّمَت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم. هـ.

الإشارة: التفاضل بين الرجال إنما يكون بالعلم والحال، فمن قَوِيَ عِلْمُهُ بالله كان أعظم قدراً عند الله، والعلم الذي به الشرف عند الله هو العلم بذات الله وبصفاته وأسمائه، وكذا العلم بأحكام الله إذا حصل معه العلم بالله، فكلمة انكشف الحجاب عن القلب كان أقرب إلى الرب، وانكشف الحجاب يكون على قدر التخلية والتحلية، فيقدر ما يتخلى القلب عن الرذائل، ويبعد عن القواطع والشواغل، ويتحلّى بأنواع الفضائل، ينكشف عنه الحجاب ويدخل مع الأحباب، ويقدر ما يتراكم على القلب من الخواطر والشواغل، ويدخل عليه من المساوئ والرذائل، يقع البعد عن الله، ويطرد العبد عن باب الله، فلا يدل على كمال العبد كثرة الأعمال، وإنما يدل على كماله علو الهمة والحال، وعلو الهمة على قدر اليقين، وقدر اليقين على قدر المعرفة، والمعرفة على قدر التوجه والتصفية، والتوجه تابع للقسيمة الأزلية. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم إن العلماء بأحكام الله إذا لم يحصل لهم الكشف عن ذات الله يكونون حجة على عباد الله. والعلماء بالله الذين حصل لهم الكشف عن ذات الله حتى حصل لهم الشهود والعيان يكونون حجة على العلماء بأحكام الله. فكما أن الأمة المحمدية تشهد على الناس، والرسول يشهد عليهم ويزكيهم، فكذلك العلماء يشهدون على الناس، والأولياء يشهدون على العلماء، فيزكون من يستحق التزكية، ويردون من لا يستحقها؛ لأن العارفين بالله عالمون بمقامات العلماء أهل الظاهر، لا يخفى عليهم شيء من أحوالهم ومقاماتهم، بخلاف العلماء، لا يعرفون مقامات الأولياء، ولا يشمون لها رائحة، كما قال القائل:

@تركنا الثُّورَ الزاخراتِ ورَاءَتَا قَمِينُ أَيْنَ يَدْرِي النَّاسُ أَيْنَ تَوَجَّهَتَا
قال القشيري: (جعل هذه الأمة خيار الأمم، وجعل هذه الطائفة خيار هذه الأمة فهم خيار الخيار. وكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم في القيامة؛ فهذه الطائفة هم المدار وهم القطب وبهم يحفظ الله جميع الأمة. وكل من قبلته قلوبهم فهو المقبول، ومن ردته قلوبهم فهو المردود. فالحكم الصادق لفراساتهم، والصحيح حكمهم، والصائب نظرهم، عصم جميع الأمة من الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة من الخطأ في النظر والحكم والقبول والرد، ثم إن بناء أمرهم مستند إلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فكل من لا يكون له اقتداء بالرسول فهو عندهم مردود، وصاحبه كلا شيء). وبالله التوفيق.

ثم ذكر الحق تعالى حكمة نسخ القبلة، فقال:

{... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيْنَا عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) } قلت: { جعل } تصيرية، و { القبلة } مفعول أول، و { التي } صفة للمفعول الثاني المحذوف، أي: وما جعلنا القبلة الجهة التي كانت عليها وهي بيت المقدس، ثم وجهناك إلى الكعبة إلا لنعلم الثابت على الإيمان من غيره، أو: وما صَبَّرْنَا القبلة الجهة التي كنت عليها بمكة وهي الكعبة، فإنه كان - عليه الصلاة والسلام - يصلي إليها بمكة.

وقيل: كان يستقبل بيت المقدس ويجعل الكعبة بينه وبينها، كما قال ابن عباس، و { إن } مخفية، واللام فارقة. أي: وإنه، أي: الأمر والشأن: كانت التحويلة لشاقة على الناس، والرأفة: شدة العطف، فهي أبلغ من الرحمة. والله تعالى أعلم.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: وما نسخنا حكم القبلة وجعلناها الجهة التي كنت عليها بمكة دون التي كانت بالمدينة، وهي بيت المقدس، { إلا لنعلم } علم ظهور وشهادة { من يتبع الرسول } في التحويل إليها { ممن ينقلب على عقبيه } لضعف إيمانه وقلة إيقانه، فإن التحويلة عن القبلة الأولى والرجوع إلى الثانية شاق على النفوس، إلا من سبقت له الهداية وحفت به الرعاية، فإنه يدور مع مراد الله أينما دار، ويتبع رسوله أينما سار. ومن مات قبل التحويل إلى الكعبة فإن الله لا يضيع أجر عمله { وما كان الله ليضيع إيمانكم } أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ { إن الله بالناس لرؤوف رحيم }.

الإشارة: الخروج عن العادات وترك الأمور المألوفات كلاهما شاق على النفوس، إلا على الذين هدى الله، ولذلك كان خرق الوائد هو الفصل بين الخصوص والعموم، ومفتاح لمخازن العلوم والفهوم، فمن لم يخرق عوائد نفسه فلا يطمع أن يدخل حضرة قدسه.

@ "كيف يخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد". وهو الميدان الذي تحقق به سير السائرين. "لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين". وهو عند شيوخ التربية ميزان يتميز به من يتبع الرسول ويلزم طريقه إلى الوصول، ممن ينقلب على عقبيه، فمن رآه خرق عوائد نفسه، زهد في ملبسه وجنسه، تحققوا بدخوله حضرة قدسه، إلا من سبق له الحرمان والعباد بالله من الخذلان، ومن رآه وقف مع العادات، وركن إلى المألوفات، ومال إلى الرُّخص والتأويلات، علموا أن مقامه مقام أهل الحجاب، يأخذ أجره من وراء الباب، ولا نصيب له في الدخول مع الأحباب.

وأيضاً عند تخالف الآثار وتنقلات الأطوار، يظهر الإقرار من الإنكار. أهل الإقرار عارفون في كل حال، يدورون مع رياح الأقدار حيث سارت، ويسيرون معها حيث سارت، وأهل الإنكار جاهلون بالله في كل حال، معترضون عليها عند اختلاف الأحوال، نعوذ بالله من الضلال.

@ { قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَيُؤَلِّقُ وَجْهَكَ بِسَطْرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ سَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِعَاقِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } * { وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ

قِبْلَةً بَعْضٌ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِدَا لَمَنَّ
الظَّالِمِينَ } * { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ قَرِيبًا
مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } * { الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ
{

قلت: القلب: التردد، ووليت كذا: جعلته والياً له، والشطر هنا: الجهة.

يقول الحقّ جلّ جلاله لنبهه - عليه الصلاة والسلام - حين تمنى أن يُحول إلى الكعبة، لأنها قبله أبيه إبراهيم وأدعى إلى إسلام العرب، وهي أقدم القبلتين، فكان ينظر إلى السماء، ويقلب وجه فيها انتظاراً لنزول الوحي، وهذا من كمال أدبه - عليه الصلاة والسلام - حيث انتظر ولم يطلب، فقال له الحق تعالى: { قد نرى { أي: ربما نرى تردد { وجهك في السماء { انتظاراً للوحي، فلنعطينك ما تمنيت، ونوجهك إلى قبله { ترضاها { وتحبها لمقاصد دينية وافقت المشيئة، واقتضتها الحكمة، { فولّ وجهك { أي: اجعله موالياً { شطر { أي: جهة { المسجد الحرام وحيثما كنتم { أيها المؤمنون أي في أي مكان كنتم { فولوا وجوهكم شطره { جهته.

وإنما ذكر الحق تعالى شطر المسجد، أي: جهته، دون عين الكعبة، لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان في المدينة، والبعيد يكفيه مراعاة الجهة، فإن استقبال عينها حرج عليه، بخلاف القريب، فإنه يسهل عليه مسامته العين. وقيل: إن جبريل - عليه السلام - عيّن لها بالوحي فسميت قبله وحي.

رُوِيَ أنه صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فصلّى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم وُجّه إلى الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين، وقد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر، فتحوّل في الصلاة، واستقبل الميزاب، وتبادل الرجال والنساء صفوفهم، فسُمي مسجد القبلتين. قاله البيضاوي.

الإشارة: في الآية إشارة إلى أن ترك التصريح من كمال الأدب، وفي الحكم: " ربما دلهم الأدب على ترك الطلب، كيف يكون دعاؤك اللاحق سبياً في قضائه السابق؟! جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل ". فإذا تمنيت شيئاً وتوقفت على أمر فاصبر وتأدب واقتد بنبيك - عليه الصلاة والسلام - حتى يعطيك ما ترضى، أو يعوضك منها مقام الرضا. وفي المسألة كلام، والتحقيق أن ينظر إلى ما ينشرح به صدره في الوقت، فإن انشرح للدعاء دعا، وإن انقبض عن الدعاء سكت. والله يرزق من يشاء بغير حساب ولا علة ولا أسباب.

وإن شئت قلت: قد نرى فكرتك أيها العارف في سماء المعاني، غائباً في شهود الأواني، فلنولينك قبله ترضاها، وتتلذذ بشهود جمالها وسناها، وهي الحضرة المطهرة التي هي صلاة القلوب، فولّ وجهك ووجهتك إلى تلك الحضرة، وحيثما كانت فولّ وجهك شطره، ودم على صلاة الفكرة والنظرة، فهي صلاة العارفين، ومنتهى أمل القاصدين، وبالله التوفيق.

ولما تحوّلت القبلة إلى الكعبة غضبت اليهود، حيث ترك قبلتهم، مكابرة وعناداً، وقالوا: لو بقي على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النبي المبعوث في آخر الزمان فنتبعه، فردّ الله عليهم وكذبهم فقال:

{ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (*) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا يَبْتَدِعُ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ قَرِيبًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتُمِينَ }

قلت: { ولئن } اللام موطنة للقسم، و { إن } شريطة، و { أتيت } فعل اشترط، و { ما تبعوا } جواب القسم المحذوف سد مسد جواب الشرط. @ قال في الألفية:

واحذف لدى اجتماع شرطٍ وقسمٍ جواب ما أحرزت فهو مُلْتَرَمٌ يقول الحقُّ جلّ جلاله: { وإن الذين أوتوا الكتاب } من أخبار اليهود { ليعلمون } { أن التحول إلى الكعبة حق } { من ربهم } { لما يجدون في كتابهم أنه يصلي إلى القبلتين، وأن عاداته تعالى تخصيص كل أمة بشريعة، } وما الله بغافل عما يعملون { من التعنت والعناد، وإنما يمهلهم ليوم المعاد، والله لئن أتيتهم بكل حجة وبرهان علي صحة التوجه إلى الكعبة { ما تبعوا قبلك }؛ لأنهم ما تركوا قبلك لشبهة نُزِيلُهَا الْحِجَّةَ، وإنما خالفوك مكابرة وعناداً. وقد طمعوا أن ترجع إلى قبلتهم، ولست { بتابع قبلتهم } أبداً، بل لهم قبلتهم؛ صخرة بيت المقدس، وللنصارى قبلتهم؛ مطلع الشمس، وليس بعضهم { بتابع قبلة بعض }؛ لتصلب كل حزب بما هو فيه، وإن كان على خطأ وفساد؛ لأن مفارقة العوائد نا صعب على النفوس إلا من سبقت له العناية.

{ ولئن اتبعت أهواءهم } الباطلة وإراءهم الزائفة قَرِضاً وتقديراً { من بعد ما جاءك من العلم } الواضح والوحي الصحيح { إنك إذا لمن الظالمين } ، لكنك معصوم، فلا يتصور اتباعك لهم أبداً.

{ الدين آتيناهم الكتاب } أي: اليهود { يعرفونه } أي: الرسول - عليه الصلاة والسلام - وإن لم يتقدم ذكره لدلالة الكلام عليه أو القرآن أو التحويل، { كما يعرفون أبناءهم } لا يشكون في صحة رسالته كما لا يشكون في معرفة آبائهم. وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أنا أعلمُ به مِنِّي يابني، قال له: ولم؟ قال: لأني لستُ أشكُ في محمدٍ أنه نبيُّ الله. وأما ولدي فلعل والدته قد حانت).

وبعد حصول هذه المعرفة لهم جحدوه وكتموا صفته، إلا من عصمة الله بالإيمان كعبد الله بن سلام وأصحابه - فقد كتم فريق منهم الحق وهم أحبارهم، وهم يعلمون أنه حق حسداً وعناداً.

هذا الذي أنت عليه يا محمد هو { الحق من ربك } فلا تكون من الممترين { أي: من الشاكين في أنه الحق، أو في كتمانهم الحق عالمين به.

@والخطاب مصروف للسامعين لا للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه غير متوقع منه، وإنما المراد تحقيق الأمر، وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر، أو أمر الأمة باكتساب المعارف المزينة للشك على الوجه الأبلغ قاله البيضاوي.

الإشارة: مما جرت به سنة الله تعالى في خلقه أن أهل الحقيقة منكورون عند أهل الشريعة، أو تقول: علماء الباطن منكورون عند علماء الظاهر، يقابلونهم بالإذابة والإنكار، مع أنه يعلمون أن الحقيقة حق من ربهم، وأن علم الباطن حق لقوله - عليه الصلاة والسلام -: "إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا سمعه أهل الغرة بالله أنكروه عليهم" أو كما قال - عليه الصلاة والسلام-، وقال صلى الله عليه وسلم: "لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع".

{ وما الله بغافل عما يعلمون } فجزاؤهم الحرمان عن لذة الشهود والعيان، فيقال لأهل الباطل: ولئن أتيتهم بكل آية وبرهان ما تبعوا وجهتك التي توجهت إليها؛ لأنها منوطة بموت النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس، وخرق العوائد لاكتساب الفوائد، ومفارقة الأوطان والغيبة عن الأهل والولدان، وما أنت أيها المرید بتابع وجهتهم التي توجهوا إليها، ولئن اتبعت أهواءهم من بعدما ظهر لك من علم التحقيق: إنك إذا لمن الظالمين لنفوسهم.

الذين آتيناهم الكتاب من علماء الشريعة يعرفون علم الحقيقة، كما يعرفون أبناءهم، أي: يقرون به في الجملة وينكرون وجود أهله مخصوصين، وقد يتحققون به ويكتمون الحق حسداً، وهم يعلمون وجود خصوصيته، فيقال للعارف: هذا الذي أنت عليه من سلوك جادة الطريقة، وعلم التحقيق، هو الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أنك على الحق المبين.

@ { وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ آيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } * { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا لِلَّهِ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } * { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

{ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ آيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا لِلَّهِ بِعَاقِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ... }

قلت: التنوين { لكل } تنوين العوض، أي ولكل أمة قبلة، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة، و { وجهة } مبتدأ، والخبر: المجرور قبله. و { هو } مبتدأ، و { مولياها } خبر مقصور، و (ولى) يتعدى إلى مفعولين، وهو هنا محذوف، أي: مولياها وجهه إن كان الضمير يعود على المضاف المحذوف، وهو هنا محذوف، أي: مولياها وجهه إن كان الضمير يعود على المضاف المحذوف، ويحتمل أن يعود على الله تعالى، أي: الله تعالى مولياها إياه، أي: يجعلها موالية له إن استقبل جهتها.

وقرأ ابن عامر: { هو مُؤَلَّاهَا } بالبناء للمفعول، فالنائب ضمير يعود على { هو }، وهو المفعول الأول، والثاني: المضاف إليه تخفيفاً، وأصله: مُلي إياها، أي مصروفاً إليها.

يقول الحقُّ جلِّ جلاله: ولكل فريق من المسلمين جهة من الكعبة يستقبلها ويوليها وجهه، أينما كان وحيثما حل، فأكثروا من الصلوات، واستقبلوا الخيرات قبل هجوم هادم اللذات، { أينما تكونوا } في مشارق الأرض ومغاربها، يأتكم الممات، ويأت بكم إلى المحشر حُفَاة عراة، ولا ينفعكم حينئذٍ إلا صالح عمل قدمته، أو فعل خير أسلفتموه، { إن الله على كل شيء قدير }، فلا يعجزه بعث العباد، ولا جمعهم من أعماق الأرض وأقطار البلاد. وإذا علمت أن لكل قوم جهة يستقبلونها، فمن { حيث خرجت } وفي أي مكان حللت { فولَّ وجهك شکر المسجد الحرام }، والله { إنه للحق من ربك } فبادر إلى أمثاله، { وما الله بغافل عما تعملون } من خير أو شر، فيجازي كل واحد على ما أسلف.

ثم كرّر الحق تعالى الأمر بالتوجه إلى الكعبة لعلة أخرى سيذكرها، فقال: { ومن حيث خرجت فولَّ وجهك شطر المسجد الحرام } وحيثما حللتهم { فولُّوا وجوهكم شطره }. قال البيضاوي: كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم بابتغاء مرضاته، ووجرت العادة الإلهية على أن يُولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين على ما بينه، وقرن كل علة بمعلولها، مع أن القبلة لها شأن، والنسخ من مظان الفتنة والشبهة، فبالخبري أن يُؤكد أمرها وبعاد ذكرها مرة بعد أخرى. هـ.

ثم ذكر العلة الثالثة وهي دفع الحجج المخالفين، فقال:

{ ... لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } {

قلت: الاستثناء من { الناس } أي: لئلا يكون لأحد من الناس حجة عليكم إلا المعاندين منهم، و { لأنتم } متعلق بمحذوف، أي: ولإتمام نعمتي عليكم وإرادة اهتدائكم أمرتكم بالتحويل، أو معطوف على محذوف، أي: واخشوني لأحفظكم ولأنتم نعمتي عليكم.

@ يقول الحقُّ جلِّ جلاله: وإنما أمرتكم بالتوجه إلى الكعبة دون الخصرة لتدفع حجج الناس، فإن اليهود ربما قالوا: المنعوت في التوراة قبلته الكعبة، وهذا يستقبل الصخرة، أو إن محمداً يخالف ديننا ويستقبل قبلتنا. والمشركون ربما قالوا: يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته، فأمرتكم باستقبال القبلة دفعاً لحجج الناس، إلا المعاندين منهم فلا ينقطع شغبهم، فإنهم يقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وحباً لبلده، أو بداً له فرجع إلى قبلة آبائه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم.

فلا تخافوهم ولا تلتفتوا إلى مطاعنهم، فإنها لا تضركم، { واخشوني } أكفكم شرهم، فإن من خافني خاف منه كل شيء، ومن لم يخشني خاف من كل شيء، وأمرتكم أيضاً بالتوجه إلى قبلة جدكم { لأنتم نعمتي عليكم } بإقرار عين

نبيكم، وإرادة اهتدائكم، فاشروا ما أوليتكم، واذكروا ما به أنعمت عليكم أزدكم من فضلي وإحساني، وأسيع عليكم إنعامي وامتناني.

الإشارة: من حكمة المدير الحكيم أن دبر ملكه العظيم، ووجه كل فرقة بوجهه من مصالح عباده، أفناه فيها وولاه إياها. فقوم اختصهم لمحبتهم واصطفاهم لحضرتهم؛ وهم العارفون، وقوم أقامهم لخدمته وأفناهم في عبادته؛ وهم العباد والزهاد، وقوم أقامهم حمل شريعته وتمهيد دينه؛ وهم العلماء العاملون، وقوم أقامهم لحفظ كتابه رسماً وتلاوة وتفهماً؛ وهم القراء والمفسرون، قال تعالى:

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }

[الجر: 9]، وقوم أقامهم لتسكين الفتن ودفع المظالم والمحن؛ وهم الحكام ومن يستعان بهم في تلك الوجهة، وقوم أقامهم لحفظ نظام الحكمة؛ وهم القائمون بالأسباب الشرعية على اختلاف أنواعها وتعدد فروعها، وقوم أعدهم لظهور حلمه وعفوه فيهم؛ وهم أهل المعاصي والذنوب، وقوم أعدم للانتقام وظهور اسمه القهار؛ وهم أنواع الكفار.

فكل وجهة من هؤلاء توجهت لحق شرعي أقامت القدرة فيه، وحكم بها القضاء والقدر، إلا أن القسمين الأخيرين لا تقرهما الشريعة. فلو حسنت المقاصد لكان الكل عملاً لله، فيقال لهم: { استبقوا الخيرات } بتحسين المقاصد والنيات، وبادروا إلى الطاعات قبل هجوم هادم اللذات، أينما تكونوا يجمعكم للحساب، وتُعابنوا جزاء ما أسلفتم من عذاب أو ثواب، ومن حيث خرجت أيها العارف فولّ جَهْتِكَ وكليتك لمسجد الحضرة باستعمال الفكرة والنظرة، فإنها حق وما سواها باطل، كما قال الشاعر:

ألا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَخَالَهَ زَائِلٌ
وحيثما كنتم أيها العارفون فولوا وجوهكم إلى قبلة تلك الحضرة، وابدعوا ربكم بعبادة الفكرة، فإنها صلاة القلوب، ومفتاح ميادين الغيوب، وفي ذلك يقول القائل:

يَا قِبْلَتِي فِي صَلَاتِي إِذَا وَقَفْتُ أَصِلِّي
جَمَالَكُمْ نُصَبَ عَيْنِي إِلَيْهِ وَجَّهْتُ كُلِّي

فإذا تحققت بهذه الحضرة، وتحصنتم بحصن الشهود والنظرة، انقطع عنكم حجج خصيم النفس والجنس، وتنزهتم في رياض القرب والأنس، إلا الخواطر التي تحوم على القلوب، فلا تقدر في مشاهدة الغيوب، فلا تخافوا غيري، ولا تتوجه همتكم إلا لإحساني وبرّي؛ فإني أتم عليكم نعمتي، وأرشدكم إلى كمال معرفتي، وأتجفكم بنصري ومعونتي.

@ { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } * { فَادْكُرُونِيَا أَدْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ }

قلت: { كما } متعلق بأتتم، أي: ولأتم نعمتي عليكم في شأن القبلة كما أتممتها عليكم بإرسال الرسول. أو بأذكروني، أي: كما ذكرناكم بالإرسال، فاذكروني بالمقال والحال. وقدم هنا التزكية على التعليم، باعتبار القصد؛ لأن القصد من الإرسال والتعليم هو التطهير، وآخره في دعوة إبراهيم باعتبار الفعل، لأن

الإرسال والتعليم مقدم على التطهير، وأعاد العامل في قوله: { ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون } إيداناً بأنه جنس آخر شرفاً له.

يقول الحقّ جلّ جلاله يا عبادي اذكروا بَرِّي وإحساني، فقد أتممت عليكم نعمتي والآتي بإسعافكم في تحويل القبلة، كما أتممتها عليكم بأعظم النعم وأجلها، وهو إرسال من يعلمكم { رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا } الموصلة إلى حضرتنا، ويظهركم من المساوئ والعيوب، { ويعلمكم الكتاب } المشتمل على علم الغيوب ودواء القلوب، ويعلمكم { الحكمة } وهي الشريعة المطهرة والسنة النبوية، { ويعلمكم } علوماً غيبية لم يكن لكم بها علم ولا معرفة، { فاذكروني } بالطاعة والإحسان { أذكركم } بالثواب ونعيم الجنان. قال صلى الله عليه وسلم: " مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهَ، وَإِنْ قَلَّتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَتُهُ الْقُرْآنَ، وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَقَدْ نَسِيَ اللَّهَ، وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتِلَاوَتُهُ " .

أو فاذكروني بالجَنَانِ أذكركم بنعمة الشهود والعيان، أو فاذكروني بالقلوب أذكركم بكشف الحجب، أو فاذكروني بالتوحيد والإيمان أذكركم بالدرجات في الجنان. قال الصديق رضي الله عنه: (كفى بالتوحيد عبادةً، وكفى بالجنة ثواباً). أو فاذكروني بالشكر أذكركم بالزيادة، أو فاذكروني على ظهر الأرض أذكركم في بطنها؛ قال الأصمعي: (رأيت أعرابياً واقفاً يوم عرفة بعرفات، وهو يقول: إلهي عَجْتُ لَكَ الْأَصْوَاتُ بِضُرُوبِ اللُّغَاتِ يَسْأَلُونَكَ الْحَاجَاتِ، وَحَاجَتِي إِلَيْكَ أَنْ تَذَكِّرَنِي عِنْدَ الْبَلَاءِ إِذَا تَسَيَّنِي أَهْلُ الدُّنْيَا).

أو: فاذكروني في الدنيا أذكركم في العقبى، أو: فاذكروني بالطاعات أذكركم بالمعافاة، يعني يحييه حياة طيبة. أو: فاذكروني في الخلاء والملا أذكركم في أفضل الملا، دليله الحديث: " أنا عِنْدَ ظَنِّ بِي فليُظَنَّ بِي مَا شَاءَ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَمَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي. وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأَ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأَ خَيْرٍ مِنْ مَلِيهِ... " الحديث.

أو: فاذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، أو: فاذكروني بالتسليم والإرضا أذكركم بحسن التدبير ولطف القضاء،
{ وَمَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ }
[الطلاق: 3] أو: فاذكروني بالشوق والمحبة أذكركم بالوصال والقرية. أو: فاذكروني بالتوبة أذكركم بغفران الحوبة، أو: فاذكروني بالدعاء أذكركم بالعطاء، أو: فاذكروني بالسؤال أذكركم بالنوال، إلى غير ذلك مما لا ينحصر.

واعلم أن الذكر ثلاثة أنواع: ذكر اللسان فقط وهو ذكر الغافلين، وذكر اللسان والقلب وهو ذكر السائرين، وذكر القلب فقط، وهو ذكر الواصلين، والذكر هو أفضل الأعمال كما تقتضيه الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى، إذا كان بشيخ كامل، واعلم أن الذكر على أنواع كثيرة من تهليل وتكبير وتسيح وحمدلٍ وحسبَلَةٍ وحوقلة وصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكل خاصية وثمره، وتجتمع في ذكر المفرد، وهو: الله، الله.

@فإن ثمرته الفناء في الذات، وهي الغاية والمنتهى. انظر ابن جزي.

قال الحقّ تعالى: واشكروا لي ما أوليتكم من إحساني وبرّي بأن تنسبوا لي لا غيري، ولا تجحدوا إحساني فأسلبكم ما خولتكم من إنعامي.

الإشارة: كما أنعم الله على الأمة المحمدية بأن بعث فيهم رسولاّ منهم يعلمهم الشرعية النبوية، ويطهرهم من شهود الغيرية، ويعلمهم العلوم اللدنية، كذلك منّ الله تعالى على عباده من هذه الأمة في كل زمان، يبعث شيوخ التربية يطهرون الناس من العيوب، ويدخلونهم حضرة الغيوب، ويطلعونهم على شهود القدرة الأزلية والحكمة الإلهية، ويعلمهم من غرائب العلوم، ويفتح لهم مخازن الفهوم، فيطلعون على السر المصون، ويعلمون ما لم يكونوا يعلمون، فيقول لهم الحقّ جلّ جلاله: اذكروني بأرواحكم وأسراركم، أذكركم بالغيبة عن رؤية أشباحكم، اذكروني بالفكرة والنظرة أمتعكم بدوام شهود الحضرة، واشكروا لي الآتي وبرّي، ولا تكفروا بالركون إلى غيري فإني أسلبكم من مزيد معوني ونصري.

ولمّا أمر عباده بالشكر أمرهم بمقام الصبر لأنه أخوه في ضده؛ إذ الشكر في النعمة والصبر في الهيبة.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } * { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ } * { وَتَبْلُوَنَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ } * { الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ } * { أَوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ }

قلت: { أحياء } و { أموات } خبران عن مبتدأ مضمّر، والابتلاء هو الاختبار، حيثما ورد في القرآن، ومعناه في حقه تعالى: أنه يظهر في الوجود ما في علمه لتقوم الحجة على العبد، وليس كاختبار الناس بعضهم بعضاً؛ لأن الله علم ما كان وما يكون، والصلاة هنا المغفرة والتطهير، والرحمة: اللطف والإحسان.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا استعينوا } على نيل رضواني وبرّي وإحساني { بالصبر } على مشاق الطاعات وترك المعاصي والهفوات، وبالصلاة التي هي أم العبادات، ومحل المناجاة ومعدن المصافاة، فيها تشرق شوارق الأنوار، وتتسع ميادين الأسرار، وهي معراج أرواح المؤمنين ومناجاة رب العالمين، فإن تجرعتم مرارة الصبر فإن { الله مع الصابرين } ، وأعظم مواطن الصبر عند مفارقة الأحباب، وذهاب العشائر والأصحاب، فإن كان موتهم في الجهاد فلا ينبغي لأجلهم أسف ولا نكاد؛ لأنهم { أحياء عند ربهم يرزقون } ، وكذلك من ألحق بهم من ذي هدم وعرق وحرق ونفاسٍ وطاعون، فلا تقولوا لمن يقتل { في سبيل الله } من هؤلاء: هم { أموات } ، { بل } هم { أحياء } حياة روحانية لا بشرية، { ولكن لا تشعرون } بحياتهم لأنهم مجرد أرواح، وأنتم لبستم طلسم الأشباح، فاخفى عنكم مقام الأرواح، وكذلك أرواح المؤمنين كلهم أحياء.

وإنما خصّ الشهداء لمزيد بهجة وكرامة. وإجراء رزقهم عليهم دون غيرهم، ففي الحديث: "أرواح الشهداء في حواصل طير خضرٍ تعلّق من ورق الجنة" أي: تأكل، وفي حديث آخر: "يخلق الله الشهداء جُسوماً على صورة طير خضرٍ،

فَنَكُونُ فِي حَوَاصِلِهَا، فَتَسْرُخُ بِهَا فِي الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَنَالُ مِنْ حَيْرَاتِهَا وَتَعِيمُهَا، حَتَّى تُحْشَرَ مِنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " .

ولا يدخل الجنة أحد غيرهم إلى ميقاتها إلا الصديقون، وهم العارفون، فهم أعظم من الجميع؛ لمزيد تصرف وإدراك وسعة روح وريحان، وتحقق شهود وعيان، فهم في نعيم الجنان كالشهداء، لكن الصديقين غير محصورين في حواصل الطيور، بل لهم هياكل وصور سرحوا بها حيث شاءوا. وكذلك من فوقهم من الأنبياء والرسل، والله تعالى أعلم.

ثم قال الحق جلّ جلاله: ولنختبركم يا معشر المسلمين { بشيء } قليل { من الخوف } لهيجان العدو ووصول الكفار، { والجوع } لغلاء الأسعار وقلة الثمار، { ونقص من الأموال } بموت الحيوان وتعذر التجارة أو الخسران، { والأنفس } بالموت في الجهاد، { والثمرات } بذهابها بالجوائح.

وعن الشافعي رضي الله عنه: (الخوفُ خوفُ الله، والجوعُ صومُ رمضان، والنقصُ من الأموال بالزكوات والصدقات، ومن الأنفسُ بالأمراض، ومن الثمرات مَوْتُ الأولاد).

وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " إذا ماتَ وَلَدُ العبدِ قالَ اللهُ للملائكةِ: أَقْبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيقولون: نَعَمْ. فيقولُ اللهُ تعالى: أَقْبِضْتُمْ ثَمْرَةَ قلبه؟ فيقولون: نَعَمْ. فيقولُ اللهُ تعالى: ماذا قال؟ فيقولون: حَمْدَكَ واسترَجَعَ، فيقولُ اللهُ تعالى: ابْتُوا لِعَبْدِي بَيِّنًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيِّنَ الحَمْدِ " .
@ { وبشر الصابرين } يا من تتأذى منه البشارة؛ { الذين إذا أصابتهم مصيبة } في بدن أو أهل أو مال أو صاحب { قالوا إنا لله } ملكاً وعبداً يحكم فينا بما يريد { وإنا إليه راجعون } فيجازينا بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فتغيب مصائب الدنيا في جانبه.

وفي الحديث: " من أصابته مُصِيبَةٌ فقال: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ. اللهم أَجْزِنِي فِي مُصِيبَتِي وأخْلِفْ لي خَيْرًا منها، إلا أَخْلَفَ اللهُ له خيراً مما أصابه " قالت أم سَلَمَةَ: فلما ماتَ زوجي أبو سَلَمَةَ قلتُ ذلك، فأبدلني اللهُ برسوله صلى الله عليه وسلم.

{ أولئك } الصابرون الراجعون إلى الله { عليهم صلوات } أي: مغفرة وتطهير { من ربهم ورحمة } أي: عطف ولطف { وأولئك هم المهتدون } لكل خير في الدنيا والآخرة.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا بطريق الخصوص استعينوا على سلوك طريق حضرتنا ومشاهدة أنوار قدسنا بالصبر على ما تكره النفوس؛ من ترك الحظوظ والشهوات، والميل إلى العادات والمالوفات، وبالصلاة الدائمة، وهي صلاة القلوب بالعكوف في حضرة الغيوب. { إن الله مع الصابرين } بالمعونة والتأييد، وإشراق أنوار التوحيد، ولا تقولوا لمن ترونه قتل نفسه بالذل والافتقار، وخرق العوائد وخلع العذار: إنه قد مات، بل هو حي لا يموت، قال الله تعالى: { لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى } فإذا ماتت نفس المرید. واستوى عنده الذل والعز والمدح والذم، والغنى والفقر، والموت والحياة، فقد حيت روحه

واتسع عليها فضاء الشهود، وتمتعت بالنظرة إلى الملك المعبود، فلا يزيد بها الموت الحسيّ إلا اتصالاً وتمتعاً وشهوداً، فهي في الترقى أبداً سرمداً، ولكن لا تشعرون بما هم فيه في هذه الدار وفي تلك الدار.

وبقال لهم عند إرادة سلوكهم الطريق إلى عين التحقيق: والله لنبلونكم يا معشر المريدين بشيء من إذابة الخلق وتضييق الرزق، وذهاب الأموال، وضعف الأبدان بالمجاهدة، وتأخير الفتح بظهور ثمرة المشاهدة؛ ليظهر الصادق في الطلب الثبوت في أحكام العبودية، حتى تشرق عليها أنوار الربوبية، ومن الكاذب بالرجوع إلى العوائد والشهوات، والركون إلى الرخص والتأويلات، { وبشر الصابرين } الثابتين في الطلب، بالظفر بكل ما أمّلوا، وبالوصول إلى ما إليه رحلوا، الذين إذا أصابتهم نكبة أو وقفة تحققوا بضعف العبودية، وتعلقوا بقوة الربوبية، فرجعوا إلى الله في كل شيء، فأواهم إليه من كل شيء، أولئك عليهم تحنُّ من ربهم وتقريب، وهم المهتدون إلى جوار الحبيب.

قال ابن جزّي: فائدة: وَرَدَ ذكر الصبر في القرآن في أكثر من سبعين موضعاً؛ وذلك لعظم موقعه في الدين، قال بعض العلماء: كل الحسنات لها أجر معلوم إلا الصبر، فإنه لا يحصر أجره؛ لقوله تعالى: { إِنَّمَا يُؤَقِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ }

@ [الزمر: 10]. وذكر الله للصابرين ثمانياً من الكرامات.

أولها: المحبة، قال: { وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } [آل عِمْرَانَ: 146]، والثاني: النصر، قال: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [التَّحْرَةُ: 153]، والثالث: غرفات الجنة، قال: { يُجْرُونَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا } [الفرقان: 75] والرابع: الأجر الجزيل، قال: { إِنَّمَا يُؤَقِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } والأربعة الأخرى المذكورة في هذه الآية، فمنها البشارة قال: { وبشر الصابرين }، والصلاة والرحمة والهداية قال: { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ }.

والصبر على أربعة أوجه: صبر على البلاء، وهو منع النفس عن التسخط والهلع والجزع، وصبر على النعم، وهو تقييدها بالشكر وعدم الطغيان والتكبر بها، وصبر على الطاعة بالمحافظة والدوام عليها، وصبر على المعاصي بكف النفس عنها. وفوق الصبر التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخط ظاهراً، وترك الكراهية باطناً، وفوق التسليم الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله، وهو صادر على المحبة، وكل ما يفعل المحبوب. هـ.

ولما ذكر الحقّ تعالى الكعبة، وأمر بالتوجهة إليها، ناسب أن يذكر الصفا والمروة؛ لقربهما منها ومشاركتهما لها في أمر الدين، وذلك أن الصحابة تخرجوا أن يطوفوا بهما؛ لأن الصفا كان عليه صنم يقال له إساف، وعلى المروة صنم يقال له نائلة، فخافوا أن يكون الطواف بينهما تعظيماً لهما، فرفع الله ذلك.

@ { إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ }

قلت: { الصفا } في أصل الوضع: جمع صفاة، وهي الصخرة الصلبة الملساء، يقال: صفاة وصفاء، كحصاة وحصى، وقطاع وقطا، ونواة ونوى. وقيل: مفرد، وتشبيته: صفوان، وجمعه: أصفاء، و { المروة } { مَا لَانَ مِنَ الْحَجَارَةِ وَجَمَعَهُ مَرَوْ وَمَرَوَاتٍ، كتمر وتمر وتمرات. والمراد هنا جَبَلَانِ بِمَكَّةَ، وَ { شعائر الله } : أعلام دينه، جمع شعيرة أو شعارة، والشعيرة: كل ما كان معلماً لقربان يتقرب به إلى الله تعالى، من دعاء أو صلاة أو أداء فرض أو ذبيحة.

والحج في اللغة: القصد، والعمرة: الزيارة، ثم غلباً شرعاً في العبادتين والمخصوصتين.

وقرأ الأَخْوَانُ وخلف: { يَطَّوَعُ } بلفظ المضارع، مجزوم اللفظ، وهو مناسب لقوله { أن يطوف } ، أصله: يتطوع، أدغمت التاء في الطاء لقرب المخرج، والباقون بلفظ الماضي، مجزوم المحل، وهو مناسب لقوله: { فمن حج البيت } . و { الجُناح } : الإثم، من جَنَحَ إذا مال، كان صاحب الإثم مال عن الحق إلى الباطل، و { خيراً } : صفة لمصدر محذوف، أو على إسقاط الخافض.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { إن { الطواف بين { الصفا والمروة } من معالم دينه ومناسك حجه، { فمن { قصد { البيت { للحج أو العمرة { فلا جناح عليه أن يطوف { بينهما، ولا يضره الصنمان اللذان كانا عليهما في الجاهلية؛ فإن الله محاذ ذلك بالإسلام، { ومن تطوع { لله بخير من حج أو عمرة أو صلاة أو غير ذلك، { فإن الله { يشكر فعله ويجزل ثوابه. واختلف في حكمه، فقال مالك والشافعي: ركن لا يجبر بالدم، وقال أبو حنيفة: فرض يجبر بالدم، وقال أحمد: سنة، والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصفا والمروة إشارة إلى الروح الصافية والنفس اللينة الطيبة، فالاعتناء بتطهيرهما وتصفيتهما من معالم الطريق، وبهما يسلك إلى عين التحقيق، فمن قصد بيت الحضره لحج الروح بالفناء في الذات، أو عمرة النفس بالفناء في الصفات، فلا جناح عليه أن يطوف بهما؛ ويشرب من كأسهما، حتى يغيب عن حسهما، ومن تطوع خيراً ببذل روحه لله، والغيبة عنها في شهود مولاه، فإن الله يشكر فعله، وينشر فضله ويظهر خيره، ويتولى أمره، والله ذو الفضل العظيم.

@ { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَيْنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } * { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَّا لِلنَّوَابِ الرَّحِيمِ } * { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } * { خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ }

قلت: الضمير في { فيها } : يعود على اللعنة أو النار، وإضمارها قبل الذكر تفخيماً لشأنها، وتهويلاً لأمرها.

يقول الحقّ جلّ جلاله في شأن أحبار اليهود حيث كتموا صفة الرسول صلى الله عليه وسلم: { إن الذين يكتُمون } ما أنزلناه عليهم في كتابهم من صفة محمد - عليه الصلاة والسلام - من الآيات لاواضحات في شأنه، وبيان صفته وبلده وشريعته، وما يهدي إلى وجوب اتباعه، والإيمان به، { من بعد ما بيناه للناس } في التوراة، { أولئك } الكاتمون { يلعنهم الله } ويطردهم عن ساحة رحمته، { ويلعنهم } الجن والإنس، وكل ما يتأتى منه اللعن كالملائكة وغيرهم. { إلا الذين تابوا } من الكتمان، وكل ما يجب أن يتاب منه، { وأصلحوا } ما أفسدوا من الدين بالتدارك، { وبينوا } ما كتموا { فأولئك أتوب عليهم } وأرحمهم { وأنا التَّواب الرحيم } أي: المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة، وأما من مات على الكفر ولم يتب فأولئك { عليهم لعنة الله } ، ومن يُعْتَدَّ بلعنته من { الملائكة والناس أجمعين } خالدين في اللعنة أو في النار { لا يخفف عنهم العذاب } ساعة، ولا هم يمهلون عنه، أو لا ينتظرون للاعتذار أو الفداء.

الإشارة: ما قيل في أحبار اليهود يقال مثله في علماء السوء من هذه الأمة، الذين ملكتهم جيفة الدنيا، وأسرهم الهوى، الذين يقبضون الرِّشَا على الأحكام، فيكتمون المشهور الواضح، ويحكمون بشهوة أنفسهم، فأولئك يلعنهم اللاعنون، وفي ذلك يقول ابن المبارك - رحمه الله -:

وهل أفسدَ الدينَ إلا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها
وباعوا النفوسَ ولم يَرْتَحُوا ولم تَعْلُ في البَيْعِ أثمانُها
لقد رتَعَ القومُ في جيفةٍ يبينُ لذي العقلِ إثنانُها
وكان يحيى بن معاذ الرازي رضي الله عنه يقول لعلماء وقته: (يا معشر العلماء، دياركم هَامَانِيَّة، وملايسكم قَارُونِيَّة، ومراكبكم فرعونية وولائمكم جالوتية، فأين السنَّة المحمدية؟). إلا مَنْ تاب وأصلح ما أفسد، ويَبِين ما كتم، فأولئك يتوب الله عليهم.

تنبيه: العلم باعتبار وجوب إظهاره وكتمه على ثلاثة أقسام:

قسم يجب إظهاره، وَمَنْ كَتَمَهُ دخل في وعيد الآية، وهو علم الشريعة الظاهرة، إذا تعيَّن على المسؤول بحيث لم يُوجَد من يُفتي في تلك النازلة.

وقسم يجب كتمه، وهو علم سرِّ الربوبية، أعني التوحيد الخاص، فهذا لا يجوز إفشاؤه إلا لأهله، وهو من بذل نَفْسَهُ وَقَلْبَهُ وَحَرَقَ عوائد نفسه، فهذا لا يحل كتمه عن إذا طلبه.

وقسم يُستحب كتمه، وهو أسرار القَدَرِ الْمُعَيَّنَاتِ، فهذا من باب الكرامات يستحب كتمها ولا يجب، والله تعالى أعلم.

هنا انتهى العتاب لبني إسرائيل والكلام معهم، وابتداؤه من قوله تعالى: { يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم... } ، وإنما تخلل الكلام ذكر إبراهيم وبنيه توطئةً لنسخ القبلة الذي أنركوه، فذكر بناء الكعبة وبيان شرفها، وأنجز الكلام إلى ذكر الصفا والمروة لقرب المناسبة والجوار. فلما فرغ من عتابهم دلهم على التوحيد، وشاركهم في ذلك غيرهم.

@ { وَإِلَهُكُمْ إِلَاهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } * { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }

قلت: { إلهكم إله واحد } مبتدأ وخبر، وجملة { لا إله إلا هو } : تقرير لها وتأکید، و { الرحمن الرحيم } : خبران آخران، أو عن مبتدأ مضمر، وأنث { الفلك } لأنه بمعنى السفينة، و { من السماء } ابتدائية، و { من ماء } بيانية، و { بث } : عطف على { أنزل } أو { أحيا } لأن الحيوانات تنمو بنزول المطر والخصب، والبث: النشر والتفريق و { تصريف الريح } : هبوبها من الجهات المختلفة.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وإلهكم } يا معشر العباد الذي يستحق أن يعبد { إله واحد } لا شريك له، ولا نظير، ولا ضد له ولا ند، { لا إله إلا هو } ، إذ لا يستحق العبادة غيره، إذ هو { الرحمن } بنعمة الإيجاد { الرحيم } بنعمة الإمداد، فكل ما سواه مُكوِّن مخلوق، إما مُنعم عليه أو نعمة، فلم يستحق العبادة غيره.

ثم برهن على وجوده، وثبوت وحدانيته بثمانية أمور، فقال: { إن في خلق السماوات { طباقاً متفاصلة مرفوعة بغير عمد، وما اشتملت عليه من الكواكب والبروج والمنازل، وفي { الأرض } وما اشتملت عليه من الجبال والبحار والأنهار والأشجار وأنواع الثمار، وفي { اختلاف الليل والنهار } بالطول القصر، أو تعاقبها بالذهاب والمجيء، { و } في { الفلك التي تجري في البحر } بقدرته مع إمكان رسوبها إلى الأسفل، متلبسة { بما ينفع الناس } من التجارة وغيرها. وقال البيضاوي: القصد بالاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه؛ ولذلك قدّمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما منه في الغالب. هـ.

{ و } في { ما أنزل الله من السماء من ماء } من غير ظهور مادة سابقة، بل تُبرزه القدرة من عالم الغيب قريب عهد بالله، ولذلك (كان عليه الصلاة والسلام يَمَطِّر) أي: يَنْصُبُ وجهه للمطر إذا نزل تبركاً به، { فأحيا } الحقُّ تعالى بذلك المطر { الأرض بعد موتها } ويُنسبها، بالنبات والأزهار وأصناف الثوار والثمار، وفيما نشر { فيها من كل دابة } من النملة إلى الفيلة، { و } في { تصريف الرياح } وهبوبها من جهات مختلفة، وهي الجهات الأربع وما بينها بصفات مختلفة، مُلقحة للشجر وعقيم وصر، وللنصر والهلاك { و } في { السحاب المسخر } أي: المذلل { بين السماء والأرض } لا يسقط ولا يرتفع، مع أن الطبع يقتضي أحدهما، أو مسخر للرياح تُقلبه في جو السماء بمشيئة الله { لآيات لقوم يعقلون } . أي: تلك المخلوقات آيات دالة على وحدانيته تعالى وباهر قدرته، و { لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الأنبياء: 22].

وفي الآية حَصَّ عَلَى التَّفَكْر، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: " وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَمَجَّ بِهَا " ، أي: لم يتفكر فيها دلالة على شرف علم التوحيد العام والخاص. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الجنيد: (التوحيد معنى تَصْمَجِل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم، ويكونُ الله كما لم يزل).

@قلت: وهذا هو التوحيد الخاص، أعني توحيد أهل الشهود والعيان: ثم قال: (وأصوله خمسة أشياء: رفعُ الحدَث، وإثباتُ القدم، وهُجْرانُ الإخْوان، ومفارقةُ الأوطان، ونسيان ما عِلِمَ وَجَهَل). هـ. قلت: قوله: (وهجران الإخوان)، يعني: غير مَنْ يستعين بهم على السير، وأما من يستعين بهم فلا يستغني عنهم.

واعلم أن توحيد خلق الله تعالى على ثلاثة درجات:

الأولى: توحيد العامة: وهو الذي يعصمُ النفسَ والمال، وينجو به من الخلود في النار، وهو تَقْيُّ الشركاء والأنداد، والصاحبةِ والأولاد، والأشباه والأضداد.

الثانية: توحيد الخاصة، وهو أَنْ يَرَى الأفعال كلها صادرة من الله وحده، ويشاهد ذلك بطريق الكشف لا بطريق الاستدلال، فَإِنَّ ذلك حاصل لكل مؤمن، وإنما مَقَامُ الخاصة يقينٌ في القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل، وثمره هذا العلم الانقطاعُ إلى الله، والتوكل عليه وحده، فلا يرجوا الله، ولا يخاف أحداً سواه، إذ ليس يَرَى فاعلاً إلا الله، فَيَطْرَحُ الأسباب، وينبذ الأرباب.

الدرجة الثالثة: ألا يرى في الوجود إلا الله، ولا يشهد معه سواه، فيغيبَ عن النظر إلى الأكوان في شهود المَكُون، وهذا مقام الفناء، فَإِنَّ رُذَّ إلى شهود الأثر بالله سُمي مقام البقاء. هـ. قال بعضه ابنُ جُرَيِّ باختصار.

قلت: وفي التحقيق أنهما أنهما مقامان؛ مقام أهل الدليل والبرهان، وهو المذكور في الآية، لأنه هو الذي يطيقه جميع العباد، ومقام أهل الشهود والعيان، وهو خاص بالأفراد الذين بذلوا مهجهم في طلب الله، باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، فعوّضهم الله في الدنيا جنة المعارف، وزادهم في الآخرة جنة الزخارف.

(أهل الدليل والبرهان عمومٌ عند أهل الشهود والعيان)؛ لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحقَّ تعالى عن أن يحتاج إلى دليل، فكيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ كيف يستدل عليه بما هو في وجوده مفتقر إليه؟ أيكون لغيره من الظهور ما ليس له؟ - متى غاب حتى يحتاج إلى دليل عليه؟ ومتى بَعُدَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه؟ - ولله در القائل:

لقد ظهرت فما يَجْفَى على أحدٍ إلا على أكمه لا يُبصِرُ القمرًا
لكن بَطُنَّتْ بما أظْهَرَتْ مُحْتَجِبًا وكيف يُبصِرُ مَنْ بالعزّة استترًا؟
وقال آخر:

ما لِلحِجَابِ مَكَانٌ فِي وَجُودِكُمْ إلا يسرُّ حُرُوفٍ (انظُرْ إلى الجَبَلِ)
أَنْتُمْ دَلَلْتُمْ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ وَلَكُمْ دَيْمُومَةً عَبَّرَتْ عَنْ غَامِضِ الأَزَلِ
عَرَفْتُمْ بِكُمْ هَذَا الخَيْرِ بِكُمْ أَنْتُمْ هُمْ يَا حَيَاةَ القَلْبِ يَا أَمَلِي

ولما كانت المحبة تزيد وتنقص باعتبار شهود الوجدانية، فكلما قوي التوحيد في القلب قويت المحبة؛ لانحصارها في واحد، ذكرها بأثر التوحيد.
@ { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ } * { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } * { وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا كُرَّةً قَتَبْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } {

{ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ... } {

قلت: ويُحتمل في وجه المناسبة، أن يكون الحق تعالى لما ذكر دلائل التوحيد ذكر من أعرض بعد وضوحها فأشرك معه، ليرتب بعد ذلك ما أعد له من العذاب، والأنداد: جمع نِدْ وهو المثل، والمراد هنا الأصنام أو الرؤساء، والإضافة في { كحُب الله } من إضافة المصدر إلى مفعوله، والحُب: ميل القلب إلى المحبوب، وسأتي في الإشارة إن شاء الله.

يقول الحق جلّ جلاله: { ومن الناس من يتخذ من دون الله { أشباهاً وأمثالاً من الأصنام والرؤساء { يحبونهم } ، وينقادون إليهم، كما يحبون الله تعالى، فيستوون في المحبة بين الله تعالى العليّ الكبير، وبين المصنوع الذليل الحقير، { والذين آمنوا { بالله ووحّدوه { أشد حُباً لله {؛ لأن المؤمنين لا يلتفتون عن حبوبهم في الشدة ولا في الرخاء، بخلاف الكفار فإنهم يعبدونهم في وقت الرخاء، فإذا نزل البلاء التجؤوا إلى الله. قال تعالى: { ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ قَالَئِهِ تَجَتَّوْنَ } [التحل: 53] الآية، وأيضاً: المؤمنون يعبدون الله بلا واسطة، والكفار يعبدونه بواسطة أصنامهم { مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى } [الزمر: 3] وأيضاً المؤمنون يعبدون رباً واحداً فاتحدت مبحثهم.

قال سعيد بن جبیر: (إن الله تعالى يأمر يوم القيامة مَنْ عبد الأصنام أن يدخلوا النار مع أصنامهم، فيمتنعون لعلمهم بالخلود فيها، ثم يقول للمؤمنين بين يدي الكفار: إن كنتم أحيائي فادخلوا، فيقتحم المؤمنون النار، وينادي مُتَّادٍ مِنْ تحت العرش: { والذين آمنوا أشد حُباً لله {، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

أَجْبَائِي أَنْتُمْ، أَحْسَنَ الدَّهْرِ أَمَّ أَسَا فكونوا كَمَا سِتُّنُمْ، أَنَا ذَلِكَ الْخِلُّ
وقال أيضاً:

لَوْ قَالَ تَيْهًا: فِيفَ عَلَى جَمْرِ الْعَصَا لوقفْتُ مُمْتَلًا، وَلَمْ أَتَوَقَّفِ
وقال آخر:

وَلَوْ عَدَّبْتَنِي فِي النَّارِ حُمًا دَخَلْتُ مُطَاوِعًا وَسَطَ الْجَحِيمِ
إِذَا كَانَ الْجَحِيمُ رِصَاكَ عَنِّي قَمَا ذَاكَ الْجَحِيمُ سِوَى نَعِيمِ

الإشارة: المحبة: مَيْلٌ دائم بقلب هائم، أو مراقبة الحبيب في المشهد والمغيب، أو مواطأة القلب لمراد الرب، أو خوف ترك الخدمة مع إقامة الحُرمة، أو اسْتِفْلالُ الكثير من نفسك واستكنازُ القليل مِنْ حبيك، أو معانقة الطاعة ومباينة المخالفة، وقال السُّبُلِيُّ: (أَنْ تَعَارَ عَلَى الْمَحْبُوبِ أَنْ يَحِبَّهُ مِثْلَكَ) والمحِبُّ على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته، وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: (المحبة أَخَذَهُ مِنَ اللَّهِ لِقَلْبِ عِبْدِهِ الْمُؤْمِنِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاهُ، فَتَرَى النَّفْسَ مَائِلَةً لَطَاعَتِهِ، وَالْعَقْلَ مُتَحَصِّنًا بِمَعْرُوفِهِ، وَالرُّوحَ مَأْخُودَةً فِي حَضْرَتِهِ، وَالسَّرَّ مَغْمُورًا فِي مَشَاهِدَتِهِ، وَالْعَبْدَ يَسْتَزِيدُ مِنْ مَحَبَّتِهِ فَيَزْدَادُ، وَيَفَاتِحُ بِمَا هُوَ أَعْدَبُ مِنْ لَذِيذِ مَنَاجَاتِهِ، فَيَكْسِبِي حُلَّ التَّقَرُّبِ عَلَى بَسَاطَةِ الْقَرْبَةِ، وَيَمَسُّ أَبْكَارَ الْحَقَائِقِ وَثِيَابَ الْعُلُومِ، فَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ قَالُوا: أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عِرَائِسُ، وَلَا يَرَى الْعِرَائِسَ الْمَجْرُمُونَ.

@.. الخ كلامه.

واعلم أن محبة العبد لمولاه سببها شيان:

أحدهما: نظر العبد لإحسان الله إليه وضروب امتنانه عليه، وَجِيَلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَهَذَا هُوَ الْمَسْمُومِي بِحُبِّ الْهَوَى، هُوَ مَكْتَسِبٌ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَغْمُورٌ بِإِحْسَانَاتِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَمَتَمَكَّنٌ مِنَ النَّظَرِ فِيهَا، فَكَلِمَا طَالَعَ مِنْهُ مِنْ مِثْنِ اللَّهِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْحَصْرَ وَلَا الْعَدَّةَ، كَانَ ذَلِكَ كَحَبَّةٍ زُرِعَتْ فِي أَرْضِ قَلْبِهِ الطَّيِّبِ الزَّكِيِّ، فَلَا يَزَالُ يَطَالَعُ مِنْهُ بَعْدَ مِثَّةٍ، وَكُلُّ مِثَّةٍ أَعْظَمُ مِنَ الَّتِي قَبْلَهَا، لِأَنَّهُ كَلِمَا طَالَعَ الْمُنَّ تَنَوَّرَ قَلْبُهُ وَزَادَ إِيمَانًا، وَكَشَفَ مِنْ دَقَائِقِ الْمُنَّ مَا لَمْ يَكُنْ يُكْشَفُ لَهُ قَبْلُ، وَظَهَرَ لَهُ خَفَايَا الْمُنَّ، وَعَظُمَتْ مَحَبَّتُهُ.

الثاني: كَشَفُ الْحَجَبِ، وَإِزَالَةُ الْمَوَانِعِ عَنِ نَاطِرِ الْقَلْبِ، حَتَّى يَرَى جَمَالَ الْحَقِّ وَكَمَالِهِ، وَالْجَمَالَ مَحْبُوبٍ بِالطَّبِيعِ، وَهَذَانِ هُمَا اللَّذَانِ قَصَدَتْ رَابِعَةَ الْعُدُوبَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -:

أَحِبُّكَ حُبِّينَ: حُبِّ الْهَوَى وَحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَلِكَ
فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُبُّ الْهَوَى فَشَغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ
وَأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ فَكَشْفُكَ لِلْحَجَبِ حَتَّى أَرَكَ
فَلَا الْحَمْدُ فِي دَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِي دَا وَذَاكَ
وَأِنَّمَا حَصَّصْتُ الْحُبَّ النَّاشِئَ عَنِ شَهُودِ الْجَمَالِ بِالْأَهْلِيَّةِ دُونَ الْأُولَى، وَإِنْ كَانَ أَهْلًا لِلْجَمِيعِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْهُ إِلَيْهِ، لَا كَسْبَ لِلْعَبْدِ فِيهِ، وَالْآخِرُ فِيهِ كَسْبٌ، وَعَمَلُ الْعَبْدِ مَعْلُولٌ، وَقَوْلُهَا: (فَشَغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ) مِنْ بَابِ التَّعْبِيرِ بِالسَّبَبِ عَنِ السَّبَبِ، وَالْأَصْلُ: فَتَمَرَّتْ شَغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ، فَهُوَ مَسْبَبٌ عَنِ الْمَحَبَّةِ لِأَنْفُسِنَا، وَقَوْلُهَا أَيْضًا (كَشَفُكَ لِلْحَجَبِ حَتَّى أَرَكَ)، مِنْ بَابِ التَّعْبِيرِ بِالسَّبَبِ عَنِ الْمَسْبَبِ، وَالْأَصْلُ، فَبَسْبَبِهِ كَشَفُكَ لِلْحَجَبِ حَتَّى رَأَيْتُكَ بَعِيَّتِي قَلْبِي. وَقَوْلُهَا: (فَلَا الْحَمْدُ... الخ، إِخْبَارٌ مِنْهَا أَنَّ الْحُبِّينَ مَعًا مِنْهُ وَإِلَيْهِ وَبِهِ فِي الْحَقِيقَةِ، لَا كَسْبَ لَهَا فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِاعْتِبَارِ الْحَقِيقَةِ، بَلْ هُوَ الْحَامِدُ وَالْمَحْمُودُ، وَإِدْرَاكُ التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ، - أَعْنِي بَيْنَ الْمَحَبَّةِ النَّاشِئَةِ عَنِ شَهُودِ الْإِحْسَانِ، وَالنَّاشِئَةِ عَنِ شَهُودِ الْجَمَالِ - ضَرُورِي عِنْدَ كُلِّ ذَائِقٍ، وَأَنَّ الثَّانِيَةَ أَقْوَى. قَالَ فِي شَرْحِ الشَّرِيشِيَّةِ.

قال ابن جُرَيِّبٍ: اعلم أن محبة العبد لربه على درجتين؛ أحدهما: المحبة العامة، التي لا يخلو منها كل مؤمن، وهي واجبة، والأخرى: المحبة الخاصة التي ينفرد فيها العلماء الربّانيون، والأولياء والأصفياء، وهي أعلى المقامات، وغاية المطلوبات، فإن سائر مقامات الصالحين: كالخوف والرجاء والتوكل، وغير ذلك، مَبْنِيَّةٌ على حظوظ النفس، ألا ترى أن الخائف إنما يخاف على نفسه، والراجي إنما يرجو منفعة نفسه، بخلاف المحبة، فإنها من أجل المحبوب فليست من المعاوضة.

واعلم أن سبب محبة الله: معرفته، فتقوى المحبة على قدر المعرفة، وتضعف على قدر ضعف المعرفة، فإن الموجب للمحبة أحد أمرين أو كلاهما إذا اجتمعا، ولا شك أنهما اجتمعا في حق الله تعالى على غاية الكمال؛ فالموجب الأول: الحسن والجمال، والآخر الإحسان والإجمال، فأما الجمال فهو محبوب بالطبع، فإن الإنسان بالضرورة يجب كل ما يُستحسن، ولا جمالَ مثل جمال الله تعالى، في حكمته البالغة وصنائه البديعة، وصفاته الجميلة الساطعة الأنوار، التي تَرُوق العقول وتبهج القلوب، وإنما يُدْرِكُ جماله تعالى بالبصائر لا بالأبصار. @وأما الإحسان فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وإحسان الله إلى عباده متواتر، وإنعامه عليهم باطن وظاهر، { وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا } [إبراهيم: 34]، وكيفيك أنه يُحسن إلى المطيع والعاصي، وإلا المؤمن والكافر، وكل إحسان ينسب إلى غيره فهو في الحقيقة منه وحده، فهو المستحق للمحبة وحده.

واعلم أن محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح، من الجد في طاعته، والتَّسَبُّطِ لخدمته، والحِرْصِ على مرضاته والتلذذ بمناجاته، والرضا بقضائه، والشوق إلى لقائه، والأُنْسِ بذكره، والاستيخاش من غيره، والفرار من الناس، والانفراد في الخلوات، وخروج الدنيا من القلب، ومحبة كل ما يحب الله، وكل من يحب الله، وإيثار الله على كل ما سواه.

قال الحارث المحاسبي: (المحبة ميلك إلى المحبوب بِكُلِّيَّتِكَ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك، ثم موافقته سرّاً وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبه).

قلت: ظاهره أن المحبة أعلى من المعرفة، والتحقيق أن المعرفة أعلى من جميع المقامات؛ لأنها لا تبقى معها بقية من الحجاب أصلاً، بخلاف المحبة، فإنها تكون بقية الحجاب، ألا ترى أن المحب يستوحش من الخلق، والعارف لا يستوحش من شيء لمعرفته في كل شيء.

قال في الحكَم: " إنما استوحش العُباد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء، ولو عرفوا الله في كل شيء ما استوحشوا من شيء ". وأيضاً. العارف أكمل أدباً من المحب؛ لأن المعرفة إنما تحصل بعد كمال التهذيب والتدريب، وقد تحصل المحبة قبل كمال التهذيب، مع أن المعرفة هي غاية المحبة ونهايتها، والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحقَّ وعيدَ مَنْ أشرك مع الله في عبادته أو محبته، بعد وضوح برهان وحدانيته، فقال:

{...وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}.

قلت: { لو } شرطية، و { ترى } شرطها، قرأ نافع وابن عامر وبعقوب بالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل سامع، والباقون بالغيب وإسناده إلى الظالم، لأنه المقصود بالوعيد والتهديد، و { إذ } ظرف للرؤية، وموضع { يرون } خفض بالإضافة، قرأ ابن عامر بضم الياء، على البناء للمفعول، والفاعل الحقيقي هو الله تعالى، بدليل { يريهم الله }، والباقون بالفتح على البناء للفاعل، على حد:

@وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ {

[التحل: 85]. و { أن القوة } معمول للجواب المحذوف، تعظيماً لشأنه، والتقدير: لو ترى يا محمد، أو يا مَنْ يسمع، الذين ظلموا حين يرون العذاب، أو يريهم الله العذاب، لرأيت أمراً فظيماً وخطباً جسيماً، ولعلمت أن القوة لله جميعاً.

و { جميعاً } حال، أي: أن القوة ثابتة في حال اجتماعها، وقرأ أبو جعفر وبعقوب { إن } بالكسر في الموضعين على الاستئناف، و { إذ تبرأ } بدل من { إذ يرون }، والأسباب: العهود والوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا يتوَادون عليها، وأصل السبب: كل شيء يتوصل به إلى شيء، ومنه قيل للحبل الذي يُصعد به: سبب، وللطريق: سبب، قال الشاعر:

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَيِّتَةِ يَلْقَهَا
وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ
و { حَسَرَات } : حال، إن كانت بصرية، على مذهب أهل السنة، أو مفعول ثالث إن كانت علمية على مذهب المعتزلة القائلين بعدم تشخص الأعمال.

يقول الحق جلّ جلاله: { ولو ترى } يا محمد، أو كل من يتأتى منه الرؤية، حال { الذين ظلموا } باتخاذهم الأنداد والأوثان، بعد وضوح الأدلة وسطوع البرهان، حيث { يرون العذاب } محيطاً بهم، والزبانية تُعْلِيهم، والنار تلتقطهم، لرأيت أمراً فظيماً، وخطباً جسيماً، ولعلمت { أن القوة لله جميعاً }، أو لو يرى الذين ظلموا العذاب الذي أعد لهم سبب شركهم، لرأوا أمراً عظيماً، وليتقنوا { أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب }.

وذلك حين يتبرأ المتبعون - وهم الرؤساء - من الأتباع - وهم القلة الضعفاء - والحالة أنهم { رأوا العذاب } الفطيع، { وتقطعت بهم الأسباب } أي: أسباب المودة والوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا، وصارت مودتهم عداوة، { وقال } حينئذ الضعفاء { الذين اتبعوا } شياطينهم في الكفر والصلال: { لو أن لنا كَرَّةً } أي: رجعة للدنيا { فنتبرأ منهم } أي: من كبرائهم { كما تبرءوا منا } اليوم. { كذلك } أي: مثل ذلك الإبراء الفطيع { يريهم الله أعمالهم حسرات } وندمات { عليهم } فيدخلون النار على سبيل الخلود، { وما هم بخارجين من النار }.

الإشارة: يا من أقبل على مولاه، وجعل محبة سيده بُغَيْته ومُناه، فلم يُشرك في محبة حبيبه سواه، لو رأيت من ظلم نفسه باتباع هواه، وأشرك مع الله في محبته سواه، باتباع حظوظ دنياه، وذلك حين يرون ما هم فيه من الانحطاط والبعاد، وما أعد الله لأهل المحبة والوداد من الفوز بالقرب من الحبيب، ومشاهدة جمال القريب، لرأيت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً، ولعلمت أن القوة كلها لله، قَرَّبَ مَنْ شَاءَ بِفَضْلِهِ الْأَصَاغِرَ، ويقع التفريق بين الأصحاب والعشائر، إلا من اجتمعوا على محبة الحبيب، وتعاونوا على طاعة القريب المجيب،

{ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ }
[الرَّحْف: 67]. لا تصحب من لا يُنْهَضُكُ حاله، ولا يدلك على الله مقاله - فكل من صحب أهل الغفلة أو رَكَنَ إلى أهل الدنيا فلا بد أن يرى ذلك حسرات يوم القيامة، يوم لا ينفع الندم وقد زلَّ القدم. ولله دَرُّ صاحب العَيْنِيَّة رضي الله عنه حيث يقول:

وَقَاطِعُ مِمَّنْ وَاصَلْتَ أَيَّامَ عَقْلِهِ قَمَا وَاصِلُ الْعُدَّالِ إِلَّا مِنْ مُقَاطِعُ
وَجَانِبُ جَنَابِ الْأَجْنَبِيِّ لَوْ أَنَّهُ لُقُرْبِ انْتِسَابِ فِي الْمَنَامِ مُصَاحِعُ
فَالنَّفْسِ مِنْ جُلَاسِهَا كُلِّ نَسَبَةٍ وَمِنْ حُلَّةِ لَلْقَلْبِ تِلْكَ الطَّبَائِعُ
ولما حذر الحقُّ تعالى من الشرك الجلي والخفي، حذر من متابعة المشركين في التحريم والتحليل بلا حكم شرعي.
@ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } * { إِنَّمَا بِأَمْرِكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ }

قلت: { حلالاً } حال، أو مفعول به، و { طيباً } نعت له، و { الخُطُواتِ } جمع خطوة، وهي بالفتح - مصدرٌ خطأ يَخْطُوا، وبالضم - اسم لمسافة ما بين القدمين، وَيَكْشُرُ عَلَى خَطَا، وَيُصَحِّحُ عَلَى خُطُواتِ، مثلث الطاء، أعني: الضم على الإبتاع، كغرفات وقربات، قال ابن مالك:

وَالسَّالِمَ الْعَيْنِ الثَّلَاثِي اسْمًا أَنْزِلُ إِبْتِاعَ عَيْنٍ فَأَاءَهُ بِمَا سُكِّلُ
والسكون على الأصل في المفرد، والفتح تخفيفاً، قال في الألفية:

وَسَكَّنَ التَّالِيَّ غَيْرَ الْفَتْحِ أَوْ حَقَّقَهُ بِالْفَتْحِ فَكُلًّا قَدْ رَوَّأُ
وقرئ في المواثر بالضم والإسكان، وفي الشاذِّ بالفتح.

قال الخليل: (خطوات الشيطان، آثاره وطرقه، يقول: لا تقتدوا به). هـ. وأصل السوء: كل ما يَسُوءُ صاحبه ويُحزنه. والفحشاء: ما قبُح من القول والفعل، مصدر فحش كالبأساء والضراء والأواء.

قال ابن عباس: (الفحشاء: ما فيه حد، والسوء: ما لا حَدَّ فيه)، وقال مقاتل: (كل ما في القرآن من ذكره الفحشاء فإنه الزنا، إلا قوله: { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ } فإنه البخل)[البقرة: 268]. قال البيضاوي: السوء والفحشاء: ما أنكره العقل واستقبجه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين، فإنه سوءٌ لاغتمام العاقل، به،

وفحشاء باستقباحه إياه، وقيل: السوء يعُمُّ القبائح، والفحشاء ما تجاوز الحدَّ في القبح. هـ.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { يا أيها الناس كلوا } من جميع ما خلقنا لكم في الأرض من نباتها مما يُسْتطاب أكله، وحيواناتها إلا ما حرّمناه عليكم، حالة كون ذلك { حلالاً } قد انحلت عنه التبعات، وزالت عنه الشبهات، { طيباً } مُستلذاً يستلذه الطبع، ويستحسنه الشرع، { ولا تتبعوا } طرق { الشيطان } فَنَحَرِّمُوا بِرَأْيِكُمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ، كَالْبَجِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، وبعض الحرث الذي جعلتموه للأصنام، فإن ذلك من تزيين الشيطان، وهو { لكم عدو مبين } . ومن شأن العدو الخداع والغرور، فإنما يأمركم بما يَسُوء وجوهكم من الذنوب، وما يُرديكم من قبائح المعاصي والعيوب، { وأن تقولوا على الله } ما لا علم لكم به من تحليل الحرام، أو تحريم الحلال، أو ادعاء الولد أو الصاحبة في جانب الكبير المتعال.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى جعل للبشرية قُوتاً ونعيمًا تنتعم به، وجعل للروح قُوتاً ونعيمًا تتلذذ به، فقُوت البشرية الطعام والشراب، ونعيمها: الملابس والمناجح والمراكب. وقُوت الروح: اليقين والعلوم والأنوار، ونعيمها: الشهود والاستبصار والترقي في المعارف والأسرار، فكما أن النفس تأكل مما في الأرض حلالاً طيباً، كذلك الروح تأكل مما في الأرض حلالاً طيباً، إلا أن أكل النفس جسدي، وأكل الروح معنوي، وهو التفكير والاعتبار، أو الشهود والاستبصار، وفي ذلك يقول المجذوب رضي الله عنه:

الْحَلْقُ تَوَّارٌ وَأَنَا رَعَيْتُ فِيهِمْ
هُمُ الْحَجَابُ الْأَكْبَرُ وَالْمَدْحَلُ فِيهِمْ
وقال الششتري رضي الله عنه:

عَيْنُ الرَّحَامِ هُوَ الْمَسِيرُ لِحَبِينَا
وكان شيخُ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه يقول: (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَذُوقَ فليذهب إلى السوق).

@ وذلك لأنه مطنة الزحام، وفيه عند الأقوياء الريح التام، فيقال لهم: يا أيها الناس الكاملون في الإنسانية؛ كلوا مما في الأرض بأرواحكم وأسراركم، شهوداً واعتباراً، حلالاً طيباً، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، فتقفوا مع ظواهر الأكوان، فُتُحْجَبُوا عن الشهود والعيان، فإنه لكم في صورة العدو المبين، لكنه في الحقيقة يحشوكم إلى الرسوخ والتمكين، لأنه كلما حرككم بنزعه فزعتكم إلى ربكم في دفعه، حتى يمكنكم من حضرته، فإنما يأمركم بما يسوء وجوهكم ويُعْمِ قلوبكم، من مفارقة شهود الأحباب، والوقوف من وراء الباب، وأن تقولوا على الله ما ليس بحق ولا صواب، كثبوت السوي، أو الالتفات إلى الهوى. والله تعالى أعلم.

@ { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ } .

قلت: الضمير في { لهم } يعود على { من يتخذ من دونه الله أنداداً } ، أو على { الناس } ، من قوله: { يا أيها الناس } ، أو على { اليهود } المتقدمين

قبل، وألقى: بمعنى وجد، يتعدى إلى مفعولين، وهما هنا: { آباءنا } والجار والمجرور، أي: نتبع في الدين ما وجدنا آباءنا كائنين عليه.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وإذا قيل { لهؤلاء المشركين من كفار العرب: { اتبعوا ما أنزل الله { على سوله من التوحيد، وترك الأنداد له والأمثال، وتحريم الحرام وتحليل الحلال، { قالوا بل نتبع { ما وجدنا { عليه آباءنا { من عبادة الأصنام، وارتكاب المعاصي والآثام، قال الحقّ جلّ جلاله: أيتبعونهم تقليداً وعمى، ولو كان أبائهم جهلة { لا يعقلون شيئاً { من الدين، ولا يتفكرون في سبيل المهتدين؟! وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم اليهودَ إلى الإسلام، ورغبتهم فيه، فقال له رافع بن خزيمة ومالك بن عوف: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فهم كانوا خيراً وأعلم منا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. هـ.

الإشارة: وإذا قيل لمن أكبَّ على دنياه، واتخذ إلهه هواه، فأشرك في محبة الله سواه: ألقُ عن حظوظك وهواك، وأفرد الوجهه إلى مولاك، واتبع ما أنزل الله من وجوب مخالفة الهوى ومحبة المولى، قال: بل أتبع ما وجدت عليه الآباء والأجداد، وأكبَّ عليه جلّ العباد، فيقال له: أتتبعهم في متابعة الهوى، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً من طرق الهدى؟ وقد قال - عليه الصلاة والسلام -: " لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ " هـ..

@ { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ }

قلت: { ومثل { الخ، يحتمل أن يكون على حذف مضاف، أي: مثلٌ واعظُ الذين كفروا، أو لا يحتاج إلى تقدير. وسأتي بيانه، وتَعَقَّ، كضرب، ينعق نعقاً ونعيقاً، إذا صاح وزجر.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ومثل { واعظ { الذين كفروا { وداعيتهم إلى الله { كمثل { الراعي الذي يرعى البهائم، وينعق عليها؛ ليزجرها، أو يدعوها فإذا سمعت النداء رفعت رؤوسها ولم تعقله، ثم عادت إلى مراعيها، فلا تسمع من الراعي يزرعها { إلا دعاء ونداء { ، ولا تفقه ما يقول لها، كذلك الكفار المنهمكون في الكفر، إذا دعاهم أحد إلى التوحيد لا يلتفتون إليه، ولا يفقهون ما يقول لهم، كالبهائم أو أضل.

أو { مثل الذين كفروا { في انهماكهم في التقليد والجهل، مع مَنْ يدعوهم إلى الله { كمثل { بهائم الذي ينعق ويصيح عليها صاحبها فلا تسمع { إلا دعاء ونداء { ولا تفقه ما يقول لها، أو { مثل الذين كفروا { في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تعقل، كمثل الناعق بغنمه، فلا ينتفع من نعيقه بشيء، غير أنه في عناء وتعب من دعائه وندائه، ثم وصفهم بالصمم والبكم والعمى مجازاً، أي: هم { صُم { عن سماع الحق فلا يعقلونه، { بُكُم { عن النطق به، { عُمِّي { عن النظر إلى أسبابه، أو عن الهدى فلا يبصرونه، { فهم لا يعقلون { شيئاً ولا يتدبرون.

الإشارة: إذا تمكن الهوى من القلوب عَزَّ دواؤه وشقَّ علاجه، وعظم على الأطباء عناؤه، فالمنهمكون في الغفلة لا ينفع فيهم التذكير، ولا ينجح فيهم التخويف والتحذير، فالواعظ لهم كالناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، قد أعماهم الهوى، وأصمهم عن سماع أسباب الهدى:

إِنَّ الْهَوَىٰ مَا تَوَلَّىٰ يُضْمِرُ أَوْ يَصِمُ
فَلَا يُقَلِّعُ الْهَوَىٰ مِنْ قُلُوبِهِمْ إِلَّا بِسَبَاقِ الْعِنَايَةِ، أَوْ هَيُوبِ رِيحِ الْهَدَايَةِ، فَتَثِيرُ فِي قُلُوبِهِمْ خَوْفًا مُّزْعِجًا، أَوْ شَوْقًا مُّغْلِقًا، أَوْ نُورًا خَارِقًا
{ وَمَا ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ }

[إبراهيم: 20].
@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ } * { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِيُغَيِّرَ اللَّهُ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ }

قلت: أصل اضْطُرَّ: اضْطَرَّرَ، على ومن افعل، من الضرر، أبدلت التاء طاءً لقرب مخرج التاء من الطاء، قال في الألفية:

طا تا افْتَعَالٌ رُذٌّ إِتْرٌ مُطْبِقٌ
ثم أدغمت الراء في الراء بعد ذهاب حركتها، وقرأ أبو جعفر: بكسر الطاء حيث وقع: ووجهه: نقل حركة الراء إلى الطاء، وأصل البغي: قصد الفساد، يقال: بغي الجرح بغياً، إذا ترامى إلى الفساد، ومنه قيل للزنا: بغاء، وللزانية: بغي، وأصل العدوان: الظلم ومجاوزة الحد، يقال: عَدَا يَعْدُوا عُدواناً وَعَدَوْا.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا كلوا من لذيذ { طيبات ما رزقناكم } وَقِفُوا عِندَ مَا حَلَّلَ لَكُمْ وَلَا تَحْرِمُوا بِرَأْيِكُمْ مَا أَحَلَّلْنَا لَكُمْ، كما فعل مَنْ سَلَفَ قَبْلَكُمْ، { واشكروا } نعمة الله عليكم الظاهرة والباطنة { إن كنتم { تخصُّونه بعبادتكم، فقد أحللنا لكم جميع ما خلقنا لكم على وجه الأرض التي نُقَلِّبُكُمْ.

{ إنما { حرمانا { عليكم } ما فيه ضرركم كالميتة لِحُبِّهَا، { والدم } لأنه يقسي قلوبكم، { ولحم الخنزير } لأنه يُورث عدم الغيرة، وما ذكر عليه غير اسم الله، وهو الذي { أهله به لغير الله } أي: رُفِعَ الصوت عند ذبحه لغير الله، وهو الصنم { فمن اضطر } وألجىء إلى شيء من هذه المحرمات، { غير باغ } أي: ظالم بأكلها اختياراً، { ولا عاد } متعدِّ بتعدى الحلال إلى الحرام، فيأكلها وهو غني عنها { فلا إثم عليه }، { أو غير باغ } غير قاطع للطريق، { ولا عاد } مفارقة للأمة خارج عن الجماعة، فمن خرج يقطع الرحم، أو يُخيف ابن السبيل، أو يُفسد في الأرض، أو أبق من سيده، أو فرَّ من غريمه أو عاصياً بسفره، واضطر إلى شيء من هذه، فلا تحل له حتى يتوب ويأكل، { فإن الله غفور رحيم } . وقال سهل بن عبد الله: { غير باغ } : غير مفارق للجماعة { ولا عاد } : مبتدع مخالف للسنة، فلم يرخص للمبتدع تناول المحرمات عند الضرورات.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمانَ أهل العرفان، كلوا من طيبات ما رزقناكم من حلاوة الشهود والعيان، واشكروا الله الكريم المَنَّان، إن كنتم تخصونه

بالعبادة والإحسان أو: يا أيها الذين آمنوا إيمان أهل الصفاء، ووقفوا مع الحدود ووقوف أهل الوفاء، كلوا من طيبات ما رزقناكم من ثمرات بساتين العلوم، واشكروا لله يزدكم من المواهب والفهوم، إن كنتم تعبدون الحي القيوم، إنما حرم عليكم ما يعوقكم عن هذه المواهب، أو ينزلكم عن منابر تلك المراتب، كالميل إلى جيفة الدنيا، أو الركون إلى متابعة الهوى، أو تأخذون منها ما قصد به غير الله، أو تقبضونها من يد غير الله، فمن اضطر إلى أخذ شيء من نجاستها، فأخذَ القدر الذي احتاج إليه منها، دون التشؤف إلى ما زاد عليه، غير قاصد بذلك شهوة ولا متعة، ثم إثم عليه، إن الله غفور رحيم.

قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه لما تكلم على العنبي بالله، قال: (علامته هو الذي ترك الدنيا للخلق، حتى لا يكون له فيها حق معهم، إلا ما فصل عنهم من بعد اضطراره واحتياجه، ويترك الآخرة لمولاه، حتى لا يكون له فيها حق إلا النظر في وجه الله، ويترك أيضاً نفسه لله حتى لا يكون فيها حق إلا حق مولاه، ولا إرادة له إلا ما أراد مولاه، ويكون كالغصن الرطب أينما مالت به الريح يلين ويميل معها، ولا ينكر على الخلق حالاً من أحوالهم). هـ.

@ {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} * {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَاةَ بِالْهُدَا وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} * {ذَلِكَ يَأْتِي اللَّهُ تَزَلَّ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}

قلت: { ما } تعجبية، مبتدأ، وهي نكرة، وسوّع الابتداء - معنى التعجب، وجملة { أصبرهم } خبر، أي: أي شيء عظيم صبرهم صابرين، أو استفهامية، أي: أي شيء حملهم على الصبر على النار؟

يقول الحق جلّ جلاله: في رؤساء اليهود وعلمائهم، كانوا يُصيبون من سفلتهم الهدايا والحجاج، ويدعون أن النبي المبعوث منهم، فلما بُعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خافوا ذهاب ما كلتهم ورئاستهم، فأنزل الله: { إن الذين يكتُمون ما أنزل الله } في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وبحرفونها في المعنى وبشروعونها { من الكتاب } أي: التوراة، { ويشترون } بذلك التحريف { ثمنًا قليلًا } أي: عوضًا حقيرًا يذهب ويفنى في زمان قليل { أولئك } الذين يكتُمون ويأكلون ذلك العوض الحقيقير - { ما يأكلون في بطونهم } إلا نار جهنم؛ لأنهم مآلهم وعقوبة أكلهم، { ولا يكلمهم الله } إهانة وغضباً عليهم حين يكلم أوليائه ويُسلم عليهم، { ولا يزكّيهم } أي: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم حتى يتأهلون للحضرة، { ولهم عذاب أليم } مَوْجِع. { أولئك الذين } استبدلوا { الضلالة بالهدى } أي: باعوا الهدى واشتروا به الضلالة، واستبدلوا { العذاب بالمغفرة } التي كانت لهم لو آمنوا وبيّنوا، فما أجرأهم على اقتحام النار باقتحام أسبابها، أو فما أبقاها في النار، أو ما الذي أصبرهم على النار حتى تركوا الحق ومالوا إلى الباطل؟! استفهام توبيخي.

{ ذلك } العذاب الذي استحقوه وتجرءوا عليه بسبب أن { الله } تعالى { نزل الكتاب } القرآن ملتبساً { بالحق }، فاختلّفوا فيه؛ فأمنوا ببعض وكفروا ببعض، { وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد } أي: لفي خلاف وضلال بعيد.

الإشارة: كل من كتم علمه، ولم ينشره إلا في مقابلة حظ دنيوي، صدق عليه قوله تعالى: { ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار } .
رُوي أن بعض الصحابة كان يُقرئ أهل الصُّفَّة، فأهدى له أجدهم قوساً، فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: كنت أعلم أهل الصفة فأهدى لي فلان قوساً، وقال: هو لله، فقال له - عليه الصلاة والسلام -: " لقد تقلدت قوساً من تار جهنم " أو كما قال صلى الله عليه وسلم، وأمره برده. ولعل هذا من باب الورع، فأراد عليه السلام أن يرفع همة ذلك الصحابي، وإلا فقد ورد في الحديث: " أحقُّ ما أخذتم عليه الأجر كتابُ الله " .

فمن ملكته نفسه، وأسره الهوى، فقد اشترى الضلالة بالهدى، اشترى الضلالة عن طريق أولياء الله، بالهدى الذي كان له ملك نفسه وهواه، وعذاب القطيعة والحجاب، بالمغفرة والدخول مع الأحباب، فما أصبرهم على غم الحجاب وسوء الحساب، سبب ذلك اختلاف قلبه، وتفريق همه ولَّبه، وقد قال - عليه الصلاة والسلام -:

@ " افرعوا القرآن ما اتلفت عليه قلبكم، فإذا اختلفتم فقوموا " أو كما قال: وسببت تفرق القلب وعدم حضوره، حب الدنيا فقد قال عليه الصلاة والسلام: " من كانت الدنيا همته فرق الله عليه أمره، وجعل فقره، وجعل فقره بين عيبي، ولم يأت من الدنيا إلا من قسم له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله عليه أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة " .

والقلب الذي اختلف في فهم الكتاب وتشئت عنه في شقاق بعيد عن الحضرة؛ لأن عنوان صحة القلب: جمعه على كلام الله وتدبر خطابه والتلذذ بسماعه، وقد تقدم في أول المسورة درجات القراءة: فانظره إن شئت. وبالله التوفيق.
@ { ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولا كن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين وأتى المال علنا حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون }

قلت: لما ذكر الحق تعالى التوحيد وبراهينه الذي هو رأس الدين، وحدد من الشرك وفروعه، ذكر هنا بقية أركان الدين، وهي الإيمان والإسلام، ذكر في هذه الآية قواعد الإيمان وبعض قواعد الإسلام؛ وهي الصلاة والزكاة، ثم ذكر بعد ذلك الصيام وأحكامه، ثم ذكر الحج وأركانه، ثم ذكر الجهاد والنكاح والطلاق والعدَّة، ثم ذكر البيوع، وما يتعلق بها من الربا، ثم الشهادات والرهنان، وبها ختم السورة.

لكن الحديث ذو شجون، والكلام يجزُّ بعضه بعضاً، فقوله: { ليس البر أن تولوا } : اسم ليس وخبرها، وكلاهما مُعَرَّفَتَان، الأول بـأل والثاني بالإضافة، إذا التقدير: تولية وجوهكم، فمن رجح تعريف الألف واللام. جعل { البر } اسمها، و { أن } تولوا { خبرها، وبه قرأ الأكثر، ومن رجح بالإضافة جعل { البر } خبرها مقدماً، والمصدر اسمها مؤخراً، وبه قرأ حمزة وحفص.

وقوله: { ولكن البر } من حَقَّفَ جعلها عاطفة الجملة، و { البر } مبتدأ، و { من آمن } خبر على حذف مضاف، أي: ير من آمن؛ إذ لا يُخْبَرُ بالذات عن

المعنى، أو قصد المبالغة، ومن شدّد نصب بها، لوقوعها بين جملتين، وهي استدراكية، و { على حبه } حال من المال، و { الصابرين } نصب على المدح، ولم يعطفه بالرفع لفضل الصبر وشرفه.

يقول الحقّ جلّ جلاله: في الرد على أهل الكتاب: { ليس البر } محصوراً في شأن القبلة، { ولكن البر } الذي ينبغي أن يُعنى بشأنه هو الإيمان بالله، وما يجب له من الكمالات، وباليوم الآخرة وما بعده، وبالملائكة وما يجب أن يعتقد في شأنهم، والكتاب المنزل من السماء كالقرآن وغيره، { والنبين } وما يجب لهم وما يستحيل في حقهم.

فالبر هو بر من اعتقد في قلبه هذه الأشياء، وأظهر على جوارحه ما يصدق صحة اعتقادها، وذلك كالإتصاف بالسخاء والكرم، فأعطى المال على محبته له، أي: مع حبه، فقد سئل - عليه الصلاة والسلام -: " أن تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ سَخِيحٍ، تَأْمُلُ الْغَنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ " و { آتى المال } على حب الله، لا جزاء ولا شكوراً، فأعطى ذلك المال ذوي قرابته المخاويج، وقدمهم لقوله - عليه الصلاة والسلام -: " صَدَّقْتُكَ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةً، وَعَلَى ذَوِي الْقُرْبَى اثْنَتَانِ؛ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ " وأعطى { اليتامى } لإهمالهم، وأعطى { المساكين } الذين أسكنهم الفقر في بيوتهم، { وابن السبيل } وهو المسافر الغريب، كأن الطريق ولذته، أو الضيف { والسائلين } ألجأتهم الحاجة إلى السؤال. وفي الحديث: " أَعْطِ السَّائِلَ وَلَوْ عَلَى قَرْسِيهِ " وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: " هَدِيَّةُ اللَّهِ إِلَى الْمُؤْمِنِ السَّائِلُ عَلَى بَابِهِ " وأعطى في فك { الرقاب } من الرق أو الأسر.

{ وأقام الصلاة } المفروضة، { وآتى الزكاة } المعلومة. ومن أهل البر أيضاً: { الْمُؤَفُّونَ بَعْدَهُمْ } فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين الناس { إذا عاهدوا } الله أو عبادة، فإذا وعدوا أنجزوا، وإذا حلفوا أو نذروا أوفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا ائتمنوا أدّوا، وأخصّ من أهل البر { الصابرين في البأساء } كالفقر والذل وإذابة الخلق، و { الضراء } كالمرض والزمانة، أو { البأساء } الأهوال، و { الضراء } في الأنفس، والصابرين { حين البأس } أي: الحرب والجهاد، { أولئك الذين صدقوا } في طلب الحق، { وأولئك هم المتقون } لكل ما يقطع عن الحق، أو يشغل عنه.
@ فقد اشتملت هذه الآية على كمالات الإنسان بأسرها؛ لاشتمالها على ما يزين البواطن من الاعتقادات وما يزين الظواهر من المعاملات، وما يركي النفوس من الرذائل ويحلّيها بالمحاسن والكمالات. ولذلك وُصف المتصف بها بالصدق والتقوى، اللذين هما أساس الطريقة ومبني أسرار التحقيق، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

الإشارة: ليس المطلوب من العبد أن يتوجّه إلى الحقّ بجهةٍ مخصوصة، كما إذا توجه إليه بالظاهر وأهمل الباطن، أو توجه بالباطن وأهمل الظاهر، ولكن المطلوب منه أن يزين باطنه بأنوار الإيمان واليقين، ويزين ظاهره بسائر وظائف الدين، ويذكر نفسه من الرذائل؛ كالشح والبخل والغش والخيانة والكذب والخوف والجزع، ويحلّيها بأنواع الفضائل؛ كالسخاء والكرم والوفاء بالعهود والأمانة، والصبر والشجاعة، والعفة والقناعة، وسائر أنواع الفضائل، فإذا تخلص عن الرذائل وتخلّى بأضدادها من الفضائل استحق الدخول مع الأبرار،

وكان من العارفين الكبار، أولئك الذين طفروا بصدق الطلب فنالوا الغاية من كل مطلب، وأولئك هم المتقون حق التقاة، فنالوه أعلى الدرجات، منحنا الله من ذلك الحظ الوافر بمنه وكرمه.
@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَا بِعَدَاةٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * }
{ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }

قلت: { عفا } لازمٌ يتعدى بالحرف: بعن إلى الجناية، وباللام إلى الجاني، فيقال: عفوت لفلان عن جنايته و { ابتاع } خبر عن مضمر، أي: فالأمر اتباع، و { حياة } مبتدأ و { في القصاص } خبره، و { لكم } خبر ثان، أو صلة له، أو حال من الضمير المستكن فيه. وفيه من البلاغة والفصاحة ما لا يخفى، جعل الشيء مجيءً ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة ليدل على التعظيم والتعميم، أي: ولكم نوع من الحياة عظيم، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتص من القاتل سلّم الباقون، وبصير ذلك سبباً لحياتهم. قاله البيضاوي.

يقول الحق جلّ جلاله: يا أيها المؤمنون { كتب عليكم القصاص في } شأن { القتلى } في العمد، فاستسلموا للقصاص، فالحرُّ يُقتل { بالحر } ، ولا يقتل بالعبد. بل يغرم قيمته لسببه، ودليله قوله - عليه الصلاة والسلام -: " لا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ ولا حرٌّ بعبدٍ " والعبد يقتل بالعبد، إن أراد سيد المقتول قتله، فإن استحياه خيرٌ سيده بين إسلامه وفدائه بقيمة العبد. وكذلك إن قُتل الحرُّ خيرٌ أولياؤه بين قتله أو استرقاقه، فإن استحيوه خيرٌ سيده بين إسلامه وفدائه بديّة الحرِّ العمد، والأنثى تُقتل بالأنثى والذكر، والذكر يقتل بالأنثى.

وتخصيص الآية بالمساوي، قال مالك: (أحسن ما سمعت في هذه الآية: أنه يُراد بها الجنس - أي: جنس الحر - والذكر والأنثى فيه سواء. وأعيد ذكر الأنثى تأكيداً وتهماً بإذهاب أمر الجاهلية). هـ. يعني أن (أل) في الحر: للجنس، تشمل الذكر والأنثى. وأعاد ذكر الأنثى اهتماماً برّد ما كان يفعله الجاهلية من عدم القود فيها.

ثم قال الحق جلّ جلاله: { فمن عُفِيَ لَهُ مِنْ دَمِ أَخِيهِ } شيء { ولو قَلَّ }، فقد سقط القتل، فالواجب اتباعٌ للقاتل بالدية { بالمعروف } من غير تعنيف ولا تعنيت، و { أداء } من القاتل { بإحسان } من غير مظل ولا بخس.

{ ذلك } - الذي شرعتم لكم من أمر العفو والدية - { تخفيف من ربكم ورحمة } بكم، وقد كتب على اليهود القصاص وحده، وعلى النصارى مطلقاً. وخيركم أيها الأمة المحمدية بين أخذ الدية والقصاص. { فمن اعتدى } بعد أخذ الدية { وقتل } فله عذاب أليم { في الدنيا والآخرة، في الدنيا: بأن يُقتل لا محالة؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام -: " لا أعافي أحداً قتلَ بعد أخذ الدية " .

{ ولكم } يا معشر المسلمين { في } تشريع { القصاص حياة } عظيمة في الدنيا، لانزجار القاتل إذا علم أنه يُقتص منه، وقد كانوا يقتلون الجماعة في

الواحد، فسلّموا من القتل بشروع القصاص، أو في الآخرة، فإن القاتل إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يؤخذ به في الآخرة، فاعْتَبِرُوا { يا أولي الألباب } أي: العقول الكاملة، ما في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس، { لعلكم تتقون } الله في المحافظة على القصاص، والحكم به والإذعان له، أو تَكْفُونَ عن القتل خوفاً من الله.

@الإشارة: كما جعل الله القصاص في الجناية الحسينية، جعل القصاص في الجناية المعنوية، وهي الجناية على النفس بسوء الأدب مع الله، فكل من صدر منه هفوة أو زلة، اقتُصَّ الحقُّ تعالى منه في دار الدنيا، إن كانت له من الله عناية، الكبيرة بالكبيرة والصغيرة بالصغيرة: وتأمَّلْ قضية الرجل الذي كان يطوف بالكعبة، فنظر إلى امرأة، فلطمته كَفَّ من الهوى، وذهبت عينه، فقال: أه، فقيل له: لطمة بنظرة، وإن زدت زدنا. هـ. وقضية أبي تراب النخشي: قال رضي الله عنه: ما تمت نفسي شهوةً من الشهوات إلا مرة واحدة، تمت خبزاً وبيضاً وأنا في سفر، فعدلت إلى قرية، فقام واحد، وتعلق بي، وقال: هذا رأيته مع اللصوص، فضربوني سبعين درة، ثم عرفني رجلٌ منهم، وحملني إلى منزله، وقدم لي خبزاً وبيضاً، فقلت في نفسي: كل بعد سبعين درة.

@ { كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ } * { فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } * { فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ }

قلت: { إذا حضر } ظرف، العامل فيه: { كتب } ، أي: توجّه إيجاب الوصية عليكم إذا حضر الموت. أو مصدر محذوف يفهم من الوصية، أي: كتب عليكم الإيصاء إذا حضر الموت، و { الوصية } نائب فاعل { كتب } ، ولا يصح أن تعمل في { إذا }؛ لتقدمه عليها؛ لأن المصدر لا يعمل في ما قبله، إلا على مذهب الأخفش. اللهم إلا أن يتوسّع في الظروف، وجواب الشرطين محذوف، أي: إذا حضر الموت، إن ترك خيراً، فقد كتبت عليه الوصية. والجَنَف: الميل عن الصواب، فإن كان خطأ فهو جَنَفٌ بلا إثم، وإن كان عمداً فهو جَنَفٌ إثم.

يقول الحقُّ جلّ جلاله: كتب الله { عليكم } أن تُوصوا للوالدين والأقربين { إذا حضر أحدكم الموت إن ترك } المستحضر { خيراً } أي: مالا: قال سيّدنا عليٌّ - كرم الله وجهه -: (ألف درهم فصاعداً، فلا وصية في أقل). وقال النخعي: (خمسمائة درهم لا أقل). وقال الزُّهري: (تجب فيما قلّ وكثُر)، وعن عائشة - رضي الله عنها -: (أن رجلاً أراد أن يوصي، فسألته: كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف. فقالت: كم عيالك؟ فقال: أربعة، فقالت: لا، إنما قال الله تعالى { إن ترك خيراً } وإن هذا لشيء يسير، فاتركه لعيالك).

وتكون تلك الوصية { بالمعروف } ، أي: بالعدل، فلا يُفضل الذكور، ولا يتجاوز الثلث. فقد حَقَّ الله ذلك { حقاً } وإيجاباً { على المتقين } ، فَمَنْ غَيَّرَهُ مِنَ الْأَوْصِيَاءِ أَوْ الشُّهُودِ { بعدما سمعه } وعلمه، { فإنما إثم على الذين يبدلونه } من الأوصياء أو الشهود، لأنه هو الذي خالف الشرع وغيّر دون الميت، { إن الله سميعٌ عليمٌ } فلا يخفى عليه مَنْ بَدَّلَ أو غيّر، فهو حسيبه ومُعاقبه، { فَمَنْ خَافَ } أي: عِلِمٌ { من مُوصٍ جَنَفًا } أي: ميلاً بالخطأ في الوصية، { أو إِثْمًا } تعمداً للجَنَفِ، { فأصلح } بين المُوصَى لهم وبين الورثة، بأن أجراهم

على منهاج الشرع، أو نقص للموصى لهم، أو زاد لمصلحة رآها { فلا إثم عليه
{ لأنه تبديل لمصلحة. والتبديل الذي فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى، { إن الله
غفور رحيم { فيغفر للمبذّل لمصلحةٍ وبرحمه.

وهذه الآية منسوخة في وصية الوالدين: مُحَكِّمَةٌ فِي الْأَقْرَبِينَ غَيْرِ الْوَارِثِينَ،
يقوله - عليه الصلاة والسلام - في الحديث المشهور: " إِنَّ اللَّهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي
حَقٍّ حَقَّهُ. فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ " فإذا كان الوالدان غير وارثين كالكافرَيْن أو العبدَيْن
فهي مُحَكِّمَةٌ، والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن المرید إذا منع نفسه من الشهوات، وحفظ قلبه من
الخطرات، وصان سرّه من العقّلات - وأعظم الشهوات حبُّ الرئاسة والجاه،
فإذا قتل نفسه ونزل بها إلى السُّفُلِيَّاتِ حتى حَضَرها الموت، وانقطع عنها
الخواطر والخيالات - فإنها تفيض بالعلوم والواردات، فالواجب من طريق الجزم
أن يُفِيد تلك العلوم، أو يوصي مَنْ يقيدها لينتفع بها الوالدن وهما الأشياخ،
والأقربن وهم الإخوان.

@فإن الحكمة تَرُدُّ في حال التجلّي كالجبَل، فإن لم يقيدها وأهمَلها، رجعت
كالجمل، فإن أهمَلها رجعت كالكبش، فإن أهمَلها رجعت كالطير، ثم ترجع
كالبيضة ثم تذهب. هكذا كان يقول شيخ شيوخنا سيدي على الجمل رضي الله
عنه، وكان شيخه سيدي العربي بن عبد الله يقول له: (إِنْ وَرَدَ عَلَيْكُمْ وَارِدٌ
فَقَيِّدْهُ وَأَعْطِنِي مِنْهُ نَسْخَةً). وهكذا كان أشياخنا يأمرونا بتقييد الواردات، فَمَنْ
قَبِدَ وَارِدًا أَوْ سَمِعَهُ مِنْ غَيْرِهِ، فَلَا يُغَيِّرُهُ بِمَجْرَدِ رَأْيِهِ وَهَوَاهُ. فَإِنْ تَحَقَّقَ مِنْهُ
نَقْصًا أَوْ مِيلًا عَنِ مَنَهاجِ الطَّرِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ، فَاصْلَحْهُ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، { إن الله
غفور رحيم {

ولما ذكر في الآية المتقدمة قاعدتين من قواعد الإسلام في قوله: { وأقام
الصلاة وأتى الزكاة } ، بعد أن ذكر قواعد الإيمان، ذكر القاعدة الثالثة، وهي
الصيام

@{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } * { أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلِيًّا سَفَرًا فَعِدَّةٌ
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ
خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } * { شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ
فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلِيًّا سَفَرًا فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ
الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَيَّا مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ }

قلت: { أياماً } منصوب على الظرفية، واختلّف في العامل فيه، والأحسن أنه
الصيام، ولا يضره الفصل؛ لأن الظرف يُتوسّع فيه ما لا يتوسّع في غيره، و
{ معدودات } نعت له، و { عدة } مبتدأ؛ أي: فَعَلَيْهِ عِدَّةٌ. و { آخر } ممنوع من
الصرف للعدل عن الألف واللام والوصف. و { شهر رمضان } إما خبر عن
مضمّر، أو مبتدأ، والخبر: الألف واللام والوصف: و { شهر رمضان } إما خبر عن
مضمّر، أو مبتدأ، والخبر: { فمن شهد } ، أو بدل من { الصيام } ، على حذف
مضاف، أي: صيام شهر رمضان.

و { رمضان } مصدر رَمَضَ إذا احترق، وأضيف إليه الشهر، وجُعِلَ عَلَماً، ومُنِعَ من الصرف للعلمية والألف والنون. وَسَمَّوْهُ بذلك إما لارتماض القلب فيه من حَرِّ الجوع والعطش، أو لارتماض الذنوب فيه، أو وافق الحَرَّ حين نقلوا الشهور عن اللغة القديمة. و { الشهر } ظرف، لقوله: { شهد } أي: حضر، وقوله: { وتكلموا... } الآية، هذه ثلاثٌ عِلَلٌ لثلاثة أحكام على سبيل الفِّ والتَّنْشِيرِ المعكوس، أي: وتكلموا العدة أمرتكم بقضاء عدة أيام آخر، ولتكبروا الله عند تمام الشهر أمرتكم بصيام الشهر كله، ولعلكم تشكرون أردتُ بكم اليسر دون العسر.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا } فُرض عليكم { الصيام } كما فرض { على الذين من قبلكم } من الأنبياء وأممهم من لدن آدم، فلکم فيهم أسوة، فلا يشق عليكم { لعلكم تتقون } المعاصي، فإن الصوم يكسر الشهوة. ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام -: " مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ ".

وذلك الصيام إنما هو في أيام قلائل { معدودات } فلا يهولكم أمره، { فمن كان منكم مريضاً } يشق عليه الصيام، { أو على سفر } فأفطر فعليه صيام عدة ما أفطر { من أيام آخر } بعد تمام الشهر، { وعلى الذين يطيقونه } بلا مشقة، إن أرادوا أن يفطروا { فديةً } وهي: { طعام مساكين } : مُدٌّ لكل يوم. وفي قراءة { فديةً طعام مسكين } أي: وهي طعام مسكين لكل يوم. وقيل: نصف صاع. { فمن تطوع } بزيادة المُدِّ، أو أطعم مسكينين عن يوم، { فهو خير له } وأعظم أجراً، { وإن تصوموا } أيها المطيقون للصيام، { خير لكم إن كنتم تعلمون } ما في الصيام من الأسرار، والخير المدرار، ثم نسخ بقوله: { فمن شهد منكم الشهر فليصمه }.

وذلك الصيام الذي أمرتم به هو { شهر رمضان } المبارك { الذي أنزل فيه القرآن } أي: ابتداء نزوله فيه. أو إلى سماء الدنيا، حالة كونه { هدى للناس } أي: هادياً لهم إلى طريق الوصول، وآيات واضحة { من الهدى والفرقان } الذي يفرق بين الحق والباطل. وإن شئت قلت: فيه هدى للناس إلى مقام الإسلام، { وبيانات } ، أي: حججاً واضحة تهدي إلى تحقق الإيمان، وإلى تحقق الفرق بين الحق والباطل، وهو ما سوى الله، فيتحقق مقام الإحسان. @ { فمن حضر منكم في { الشهر } ولم يكن مسافراً } فليصمه { وجوباً، وكان في أول الإسلام على سبيل التخيير؛ لأنه شق عليهم حيث لم يألوه، فلما أُلْفُوهُ واستمروا معه، حثهم عليهم في الحضور والصحة. } { ومن كان مريضاً } يشق عليه الصيام، { أو على } جَنَاح { سفر } بحيث شرع فيه قبل الفجر فأفطر فيه، فعليه { عدة من أيام آخر } { يريد الله بكم اليسر } والتخفيف، حيث خفف عنكم، وأباح الفطر في المرض والسفر، { ولا يريد بكم العسر } إذ لم يجعل عليكم في الدين من حرج، وإنما أمركم بالقضاء { لتكلموا العدة } التي أمركم بها، وهي تمام الشهر، { وتكبروا الله على ما هداكم } ، أمركم بصيامه فتكبروا عند تمامه.

ووقت التكبير عند مالك: من حين يخرج إلى المصَلَّى، بعد الطلوع، إلى مجيء الإمام إلى الصلاة، ولفظه المختار: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله

أكبر ولله الحمد على ما هدانا، اللهم اجعلنا من الشاكرين)؛ لجمعه بين التهليل والتكبير والشكر امتثالاً لقوله: { ولعلكم تشكرون } على ما أوليناكم من سايع الإنعام، وسهّلنا عليكم في شأن الصيام.

الإشارة: كُتِبَ عليكم الصيام عن الحظوظ والشهوات، كما كتب على من سلك الطريق قبلكم من العارفين الثقات، في أيام المجاهدة والرياضات، حتى تنزلوا بساحة حضرة المشاهدات، لعلكم تتقون شهود الكائنات، ويكشف لكم عن أسرار الذات، فمن كان فيما سلف من أيام عمره مريضاً يحب الهوى، أو على سفر في طلب الدنيا، فليبادِرْ إلى تلافِي ما ضاع في أيام آخر، وعلى الأقوياء الذين يُطيقون هذا الصيام، إطعام الضعفاء من قُوت اليقين ومعرفة رب العالمين. فَمَنْ تطوع خيراً بإرشاد العباد إلى ما يُقوّي يقينهم، ويرفع فهو خير له. وَأَنْ تَدُومُوا أيها الأقوياء على صومكم عن شهود السَّوَى، وعن مخالطة الحس بعد التمكين، فهو خير لكم وأسلم، إن كنتم تعلمون ما في مخالطة الحس من تفريق القلب وتوهين الهمم، إذ في وقت هذا الصيام يتحقق وحي الفهم والإلهام، وتترادف الأنوار وسواطع العرفان. فمن شهد هذا فَلْيَدْمُ على صيامه، ومن لم يَقْدِرْ عليه فَلْيَبْتَئِكْ على نفسه في تضييع أيامه.

واعلم أن الصيام على ثلاث درجات: صوم العوام، وصوم الخواص، وصوم خواص الخواص.

أما صوم العوام: فهو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج، وما يقوم مقامهما من الفجر إلى الغروب، مع إرسال الجوارح في الزلات، وإهمال القلب في الغفلات. وصاحبُ هذا الصوم ليس له من صومه إلا الجوع، لقوله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشِرَابَهُ " وأما صوم الخواص: فهو إمساك الجوارح كلها عن القصول، وهو كل ما يشغل العبد عن الوصول، وحاصله: حفظ الجوارح الظاهرة والباطنة عن الاشتغال بما لا يَغْنِي. وأما صوم خواص الخواص: فهو حفظ القلب عن الالتفات لغير الرب، وحفظ السر عن الوقوف مع الغير، وحاصله: الإمساك عن شهود السَّوَى، وعكوف القلب في حضرة المولى، وصاحب هذا صائم أبداً سرمداً. فأهل الحضرة على الدوام صائمون، وفي صلاتهم دائمون، نفعنا الله بهم وحشرنا معهم. آمين.

@ { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: في جواب رجل سأل: هل قريب ربنا فنناجيه، أو بعيد فنناديه؟ فنزل: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي } . فقل لهم: { إِنِّي قَرِيبٌ } إليهم من أرواحهم لأشباحهم، ومن وَسْوَاسِ قُلُوبِهِمْ لِقُلُوبِهِمْ، علماً وقدرة وإحاطة، أُجِيبُ دعوة الداعي إذا دَعَانِ، سرّاً أو جهراً، ليلاً أو نهاراً، على ما يليق بحاله في الوقت الذي نريد، لا في الوقت الذي يريد، { فليستجيبوا لي } إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، أسئلك بهم طريق المعرفة، { وليؤمنوا بي } إنني قريب منهم قَبَسْتَجِيبُوا مِنِّي، حياة مَنْ يرى أني معه حيث كان، { لعلهم يرشدون } إلى سلوك طريقي ودوام محبتي.

قال البيضاوي: اعلم أنه، تعالى، لما أمرهم بصوم الشهر، ومراعاة العدة على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقبه بهذه الآية الدالة على أنه خير بأحوالهم، سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم، تأكيداً وحثاً عليه. هـ.

الإشارة: قُرب الحقّ تعالى من عباده هو قرب المعاني من المحسوسات، أو قرب الصفات من الذات، أو الذات من الصفات، فإذا تحقق المحو والاضمحلال، وزال البين، وثبت الوصال، لم يبقَ قرب ولا بعد ولا بينٌ ولا انفصال. قال الشيخ القطبُ العارف الكبير سيدي عبد السلام بن مَشِيْش رضي الله عنه لأبي الحسن رضي الله عنه: حدِّدْ بَصَرَ الإِيْمَانِ تَجِدُ اللهَ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَعِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرِيباً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَحِيطاً بِكُلِّ شَيْءٍ، بِقَرْبِ هُوَ وَصَفُهُ، وَبِحَيْطَةِ هِيَ نَعْتُهُ، وَعَدَدٌ عَنِ الظَّرْفِيَّةِ وَالْحُدُودِ، وَعَنِ الْأَمَاكِنِ وَالْجِهَاتِ، وَعَنِ الصَّحْبَةِ، وَالقَرْبِ فِي الْمَسَافَاتِ، وَعَنِ الدَّوْرِ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَامْتَحَقَّ الْكُلُّ بِوَصْفِهِ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، " كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ كَانَ ".

وقال بعض العارفين: الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة. ومع ذلك لا يخلو منه أبٌ ولا مكان، ولا كم ولا كيف، ولا جسم، ولا جوهر ولا عرض، لأنه للطفه سار في كل شيء، ولثورته ظاهر في كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف، غير متقيّد بذلك، فمن لم يعرف هذا ولم يذقه ولم يشهده فهو أعمى البصيرة، محرومٌ من مشاهدة الحق تعالى. هـ.

وهذه الإشارات لا يفهمها إلا أهل الذوق من أهل المعاني، فاصحب الرجال أهل المعاني تدق أسرارهم، وتفهم إشاراتهم. وإلا فحسبك أن تعتقد كمال التنزيه، وبطلان التشبيه، وتمسك بقوله تعالى: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: 11]، وسلم للرجال في كل حال.

إِنْ لَمْ تَرَ الْهَلَالَ فَسَلِّمْ لِأَنَّا رَأَوْهُ بِالْأَبْصَارِ
وإذا تحققت أن الحق قريب منك فكفاك لسان الحال عن طلب المقال، وبالله التوفيق: @ { أَحَلِّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّقْتُ الْبَا نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ }

قلت: الرقت: مُحَرَّكُ الجماع، والفُحْشُ كالرفوث، وكلام النساء في الجماع، قاله في القاموس، وقال الأزهري اللغوي: الرقت: كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته، وضمَّنه هنا الإفضاء، فعدها بالي.

يقول الحق جل جلاله: في نسخ ما كان في أول الإسلام من تحريم الجماع في رمضان بعد العشاء أو النوم، ثم إن عمر رضي الله عنه باشر امرأته بعد العشاء، فندم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذر إليه، فقام رجال

فاعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزل قوله: { أحل لكم ليلة الصيام { قبل
الفجر، الإفشاء { إلى نسائككم { بالجماع. وعبر بالرفث تقيحاً لما ارتكبه.

ثم علل التحليل بقوله: { هن لباس لكم وأنتم لباس لهن { ، أي: وإنما أبحث
لكم الجماع لقلة صبركم عليهن، حتى تعانقوهن ويعانقنكم، فيشتمل بعضكم
على بعض، كاشتمال اللباس على صاحبه، كما قال الشاعر:

إِذَا مَا الصَّجِيعَ تَنَى عَطَفَهَا تَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا
وهذه الحالة يقل فيها الصبر عن الوقاع، { علم الله أنكم كنتم تختانون
أنفسكم { أي تحوونها فتعرضونها للعقاب، وتخرمونها من الثواب، { فتأب
عليكم { لما تُبتم واعترفتم بما أفترفتم، وعفا عنكم فمحا ذنوبكم، { فالآن
باشروهن {، والمباشرة: إصاق البشرة بالبشرة، كناية عن الجماع، { وابتغوا ما
كتب الله لكم { من النسل، فلا تباشروهن لمجرد قضاء الشهوة، بل اطلبوا ما
قدّر الله لكم، وأنبئه في اللوح المحفوظ من الولد، لأنه هو المقصود من
تشرع النكاح، وخلق الشهوة، لا مجرد قضاء الوطر. وفي الحديث: " إِذَا مَاتَ
الْبَعْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ بَنَى فِي صُدُورِ الرِّجَالِ،
وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُوا لَهُ "

وفي حديث طويل عن عائشة - رضي الله عنهما - في قصة الحؤلاء - امرأة
من الأنصار -، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما من امرأة
حملت من زوجها حين تحمّل، إلا لها من الأجر مثل القائم ليلة الصائم نهاره،
والغازي في سبيل الله، وما من امرأة يأتيها الطلق، إلا كان لها بكل طلق
عئق نسمة، وبكل رضة عتق رقبة، فإذا قطمت ولدها نادها مُنادٍ من السماء:
قد كفيت العمل، فيما مضى، فاستأنفي العمل فيما بقي " قالت عائشة - رضي
الله عنها -: " قد أعطى النساء خيراً كثيراً، فما لكم يا معشر الرجال؟ فضحك
النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: " ما من رجل مؤمن أخذ بيد امرأته
يُراودها، إلا كتب الله له حسنة، وإن عانقها فعشر حسنة، وإن ضاعها
فعشرون حسنة، وإن أتاها كان خيراً من الدنيا وما فيها، فإذا قام ليغتسل لم
يمر الماء على شعره من جسده إلا مُجِبٍ عنه سيئة، ويُعطى له درجة، وما
يعطى بعُسله خيراً من الدنيا وما فيها، وإن الله تعالى يباهي الملائكة فيقول:
انظروا إلى عبيدي؛ قام في ليلة قرة يغتسل من الجنابة، يتيقن بأني ربه،
اشهدوا أني غفرت له " @من التعلي.

ثم أباح الحق تعالى الأكل والشرب، ليلة الصيام إلى الفجر، فقال: { وكلوا
واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود { شبه أول ما يبدوا
من الفجر المعترض في الأفق، بالخيط الأبيض، وما يمتد معه من عبس الليل،
بالخيط الأسود

ولم ينزل قوله تعالى: { من الفجر { إلا بعد مدة، فحمله بعض الصحابة على
ظاهره، فعمد إلى خيط أبيض وخيط أسود فجعلهما تحت وسادته، فجعل يأكل
وينظر إليهما، فلم يتبين، ومنهم عدي بن حاتم، قال: فعدوث إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأخبرته فضحك، وقال: " إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا، إِنَّمَا ذَلِكَ
بَيَاضُ النَّهَارِ وَسَوَادُ اللَّيْلِ " ، والحديث ثابت في البخاري وغيره. واعترضه

الزمخشري بأن فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة، وذلك لا يجوز، لما فيه من التكليف بما لا يطاق.

وأجيب بأنه ليس فيه تأخير البيان عن وقت الحاجة، وإنما فيه تأخير البيان لوقت الحاجة، وهو جائز. وبيان ذلك أنه لما نزل قوله تعالى: { حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود } فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون مُرَادَ الله منهما، واستمر عملهم علي ذلك، فكانت الآية مُبَيِّنَةً في حقهم لا مُجَمَلَةً. وأما عَدِيّ بن حاتم فكان بَدَوِيًّا مُشْتَغَلًا بالصيد، ولم يكن فيه حُنْكَة أهل الحاضرة، فحمل الآية على ظاهرها؛ ولذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إنك لَعَرِيضُ القَفَا " فنزلت الآية تُبَيِّنُ لَعَدِيّ مُرَادَ الله عند الحاجة إلى البيان. مع أن السيوطي ذكر في التوشيح خلاف هذا؛ ونصه:

قال بعضهم: كأنَّ عَدِيًّا لم يسمع هذه اللفظة من الآية؛ لأنها نزلت قبل إسلامه بمدة، وذلك لِنِ إسلامه كان في السنة التاسعة أو العاشرة، بعد نزول الآية بمدة، قال: علمني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصلاة والصيام، فقال: " صلِّ كذا، وصم كذا، فإن غابت الشمس فَكَلِّ حتى يتبين لك الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فأخذ الخيطين... " الحديث. قال له - عليه الصلاة والسلام: " ألم أقل لك من الفجر؟ " فتبين أن قوله في الحديث: " فأنزل الله مِنْ الفجر " من تصوُّف الرواة. هـ. مختصراً، فهذا صريح في أن الآية نزلت بتمامها مبينة فلم يكن فيها تأخير، والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن تعالى غاية الصوم، فقال: { ثم أتموا الصيام إلى الليل } فمن أفطر مع الشك في الغروب، فعليه الكفارة، بخلاف الشك في الفجر للاستصحاب. ولما كان الاعتكاف من لوازم الصوم ذكر بعض أحكامه بآثره فقال: { ولا تباشروهن } أي: النساء { وأنتم عاكفون في المساجد } ، فالمباشرة للمعتكف حرام، وتُفسد الاعتكاف.

@كانت المباشرة في المسجد أو خارجه، وكان الرجل يكون معتكفاً فيخرج فيصيب زوجته ثم يرجع، فنزلت الآية - { تلك حدود الله } قد حدها لكم، { فلا تقربوها } فضلاً عن أن تعتدوها، { كذلك } أي: مثل هذا البيان التام، { بين الله آياته للناس لعلهم يتقون } محارمه.

الإشارة: قد تقدم أن صوم الخواص، وخواص الخواص، هو الإمساك عن الفضول، وعن كل ما يقطع عن الوصول. أو الإمساك عن شهود الأغيار، وعن كل ما يوجب الأكدار. فإن عرّمت النفس على هذا الصوم وعقدت النيّة عليه، حل لها أن تُباشِر أُبْكَارَ العلوم اللدنية الوهية، والحقائق العرفانية، وتفضي إلى تيّبات العلوم الرّسُمية الكسبية. العلوم اللدنية والوهية بثِعارها، والعلوم الرّسُمية دثارها. العلوم اللدنية لباس باطنها، والعلوم الرّسُمية لباس ظاهرها.

قال أبو سليمان الداراني: إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملوكوت، ثم عادت إلى صاحبها بطرائف العلوم، من غير أن يُؤدِّي إليها عالمٌ علماً. هـ.

قال الحقّ تعالى: { علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم } بدنس الهفوات، فمنعكم من مباشرة تلك العلوم الوهيات، فلما عقدتم التوبة، وعزمتم على

تركها، تاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروها، وابتغوا ما كتب الله لكم، من الوصول إلى معرفته، والعكوف في حضرة قُدسه، وكلوا من ثمرات تلك العلوم، واشربوا من خمرة الحي القيوم، حتى يَطَّلَع عليكم فجرُّ الكشف والبيان، وتشرق على قلوبكم شمسُ نهار العرفان، فحينئذٍ تَصْمَجِلُ تلك العلوم، وتمحي تلك المعالم والرسوم. ولم يبق إلا الاستغراق في مشاهدة الحي القيوم، فلا تباشروها وأنتم عاكفون في تلك المساجد. فمشاهدة وجه الحبيب تُغني عن مطالعة المعالم والمشاهد. تلك حدود الله فلا تقربوها، أي: لا تقفوا مع تلك العلوم وحلاوة تلك الرسوم؛ فإنها تمنعكم من مشاهدة الحي القيوم: كذلك بين الله آياته الموضحة لطريق وصوله للناس، لعلهم يتقون مشاهد ما سواه. والله تعالى أعلم.

ولما أراد الحق أن يتكلم على الحج قدّم الكلام على الأموال؛ لأنها سبب في وجوبه، والوصول إليه في الغالب.
@ { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ } {

قلت: أصل الإدلاء: إرسال الدلو في الماء ليتوصل به إلى أخذ الماء من البئر، ثم أطلق في كل ما يتوصل به إلى شيء، يقال: أدلى بماله إلى الحكام، أي: دفعه رشوة، ليتوصل بذلك إلى أخذ أكثر منه، وهو المراد هنا، وفي القاموس: أدلى برحمه: توسل، وبخجته: أحضرها، وإليه بماله: دفعه. ومنه: { وتدلوا بها إلى الحكام } . هـ. و { تدلوا } معطوف على { تأكلوا } ، منهي عنهما معاً.

يقوله الحق جلّ جلاله: { ولا تأكلوا } يا معشر المسلمين { أموالكم } أي: أموال بعضكم بعضاً، { بالباطل } أي: بغير حق شرعي؛ إما بغير حق أصلاً كالغصب والسرقة والخيانة والحدع والتطيف والغش وغير ذلك. أو بحق باطل كما يؤخذ في السحر والكهانة والفال والقمار والجاه، وهديّة المديان، وهديّة القرض، والضمان، والرشوة، والربا، وغير ذلك مما نهى الشارع عنه. ولا يدخل في ذلك التمايم والعزائم إذا كان بالقران أو السنة وغلب الشفاء، وكذلك لا يدخل أيضاً العبن، إذا كان البائع عالماً بالمبيع.

أو { ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل } بأن تُنفقوها في الملاهي والزنا والشرب واللواط، وغير ذلك من المحرمات، ولا { تدلوا } أي: تتوسلوا بها، أي: بدفعها { إلى الحكام } رشوة { لتأكلوا فريقتاً من أموال الناس } بأن يحكم لكم بها القاضي، تأخذونها متلبسين { بالإثم } أي: بالمعصية { وأنتم تعلمون } أنها لغيركم؛ فإن حُكَمَ الحاكم لا يُجَلُّ حراماً.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قال: " إثمنا أنا بشرٌ مثلكم، ولعلَّ بعضكم أن يكون الحنَّ بخجته من بعض فأقضي له، فمن قَصِيْتُ له بشيء من مال أخيه فإثمنا له قطعة من النار ".

الإشارة: الباطل كلُّ ما سوى الحق، فكل من كان يأخذ من يد الخلق ولا يشاهد فيهم الحق فإنما يأخذ أموال الناس بالباطل. قال في الحكم: " لا تَمُدَّن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلا أن ترى أن المعطي فيهم مولاك، فإذا كنت كذلك فخذ ما وافقك العلم ". ويحتاج العامل بهذا إلى عسة كبيرة، وشهود

قَوِي، حَتَّى يَفْتَى عَنْ نَظَرِهِ مَشَاهِدَةُ الْخَلْقِ فِي شَهُودِ الْمَلِكِ الْحَقِّ. وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَطْلُبُ مَنْ هَذَا وَصَفُهُ فَيُعْطِي لِلْفَقِيرِ الْعَطَاءَ، وَيَقُولُ: خَذْ، لَا لَكَ، فَلَا يَسْمَعُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا، حَتَّى أُعْطِيَ لِبَعْضِ الْفُقَرَاءِ، وَقَالَ: خَذْ، لَا لَكَ، فَقَالَ: أَقْبِضْ لَا مِنْكَ. هـ. قُلْتُ: الْوَصُولُ إِلَى الْحُكَّامِ عَلَى شَأْنِ الدُّنْيَا أَوْ لِلانْتِصَارِ لِلنَّفْسِ حَرَامٌ فِي طَرِيقِ الْخُصُوصِ، بَلْ يَصْبِرُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَصْمِهِ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، فَإِنْ اضْطُرَّ إِلَى شَيْءٍ وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْهُ فَلْيُوكَلْ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

@ { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَآيِسَ الْبِرِّ بَانَ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَا كِنَّ الْبِرِّ مَنِ اتَّقَا وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... }

قُلْتُ: الَّذِي سَأَلَهُ مَعَادُ بْنُ جَبَلٍ وَثَعْلَبَةُ بْنُ غَنَمَةَ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا بِالْهَلَالِ يَبْدُو رَقِيقًا كَالْخَيْطِ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَزِيدُ حَتَّى يَسْتَوِيَ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَنْقُصُ حَتَّى يَرْجِعَ كَالْخَيْطِ؟ فَقَالَ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ: { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ } أَي: عَنِ حِكْمَةِ اخْتِلَافِ الْأَهْلِ بِالزِّيَاةِ وَالنَّقْصِ { قُلْ } لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: { هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ } يُوقَّتُونَ بِهَا دُيُونَهُمْ، وَيَعْرِفُونَ بِهَا أَوْقَاتَ زَرْعِهِمْ، وَعِدَدَ نَسَائِهِمْ وَصِيَامِهِمْ، وَهِيَ أَيْضًا مَوَاقِيتُ لِلْحَجِّ، يَعْرِفُونَ بِذَلِكَ وَقْتَ دُخُولِهِ وَخُرُوجِهِ، فَيَعْرِفُونَ الْإِدَاءَ مِنَ الْقَضَاءِ، فَلَوْ كَانَتْ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ لَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ. أَجَابَهُمُ الْحَقُّ تَعَالَى بِغَيْرِ مَا يَنْتَظَرُونَ؛ أَشَارَةَ إِلَى أَنَّ السُّؤَالَ عَنِ سِرِّ الْاِخْتِلَافِ، لَيْسَ فِيهِ مَنَفْعَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي الْإِهْتِمَامُ بِمَا فِيهِ مَنَفْعَةٌ دِينِيَّةٌ.

قَالَ أَهْلُ الْهَيْئَةِ: إِنْ نُورَةٌ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ، وَجِزْمَةٌ أَطْلَسَ، فَكَلِمَا بَعْدَ مِنْ مُسَامَتَةِ الشَّمْسِ قَابِلَةٌ نُورُهَا، فَإِذَا قَرَّبَ مِنْهَا لَمِيقَابِلَهُ مِنْ نُورِهَا إِلَّا بَعْضَ جِزْمَةٍ، فَإِذَا دَخَلَ تَحْتَهَا فِي الْفَلَكِ كَانَ ظَهْرُهُ كُلَّهُ إِلَيْهَا، فَلَمْ يَقَابِلْهُ شَيْءٌ مِنْ نُورِهَا، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ تَحْتِهَا قَابِلَهُ بِقَدْرِ ذَلِكَ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الإشارة: إِذَا ظَهَرَ هَلَالُ السَّعَادَةِ فِي أَفْقِ الْإِرَادَةِ، وَهَبَّتْ رِيحُ الْهَدَايَةِ مِنْ نَاحِيَةِ سَابِقِ الْعَنَايَةِ، دَخَلَ وَقْتُ حِجِّ الْقُلُوبِ إِلَى حَضْرَةِ عَلَامِ الْغُيُوبِ، فَهَلَالُ الْهَدَايَةِ لِلْسَّائِرِينَ، وَهَمُّ أَرْبَابِ الْأَحْوَالِ أَهْلِ التَّلْوِينِ، يَزِيدُ نُورَهُ بِزِيَادَةِ الْيَقِينِ، وَيَنْقُصُ بِنَقْصَانِهِ، عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ حَالِهِ وَقْتِهِ، حَتَّى يَنْتَحِقَ الْوَصَالُ، وَيُرْزَقَ صَفَ الْكَمَالِ. وَأَنْشَدُوا:

كُلَّ يَوْمٍ تَتَلَوَّنُ غَيْرُ هَذَا بِكَ أَجْمَلُ
فصاحب التلوين بين الزيادة والنقصان، إلى أن تطلع عليه شمس العرفان، فإذا طلعت شمس العرفان فليس بعدها زيادة ولا نقصان، وأنشدوا:

طَلَعَتْ شَمْسٌ مِنْ أَجْبُ بَلِيلٍ وَاسْتِضَاءَتْ فَمَا تَلَاهَا غُرُوبٌ
إِنَّ شَمْسَ النَّهَارِ تَغْرُبُ بِاللَّيْلِ لَوْ وَشَمْسَ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيْبُ
بخلاف صاحب التمكين؛ فإنه أبدا في ضياء معرفته، متكئ في بُرْجِ سَعَادَتِهِ، لَا يَلْحَقُ شَمْسَتَهُ كَسُوفٌ وَلَا حِجَابٌ، وَلَا يَسْتُرُ نُورَهَا ظِلْمَةٌ وَلَا سَحَابٌ، فَلَوْ طَلَبَ الْحِجَابَ لَمْ يُجَبَّ. قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: (لَوْ كَلْتُ أَنْ أَرَى غَيْرَهُ لَمْ أُسْتَطِعْ، فَإِنَّهُ لَا غَيْرَ مَعَهُ حَتَّى أَشْهَدَهُ).

ثم حذر الحق تعالى مما اتبعه المشركون في الحج، فقال:

{... وَلَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189) }

قلت: كانت الأنصار إذا حَجُّوا أو اعتمروا، يقولون: لا يَحُولُ بيننا وبين السماء سَفْفٌ، حتى يدخلوا بيوتهم، فإذا رجعوا تَسَوَّرُوا الجُدْرانَ، أو تَقَبَّوا في ظهور بيوتهم، فجاء رجالٌ منهم فدخل من الباب، فَعَبَّرَ بذلك، فأنزل الحقُّ جَلَّ جلاله: { وليس البرُّ { أي: الطاعة، { بأن تأتوا البيوت من ظهورها { فتتسوروها، أو تنقبوا من أعلاها، { ولكن البر من اتقى { المحارم وخالف الشهوات. @أو: ليس البرُّ بأن تعكسوا مسائلكم بأن تسألوا عما لا نفع لكم فيه، وتتركوا مسائل العلم التي تنفعكم في العاجل والآجل. { ولكن البر من اتقى { ذلك، { وأتوا { بيوت العلم من أبوابها، فُتُحَسِّنُونَ السُّؤالَ وتتأدبون في المقال، وتقدمون الأهم فالأهم، والأنفع فالأنفع. { واتقوا الله { فلا تُغيروا أحكامه، ولا تعترضوا على أفعاله { لعلكم تفلحون { بتوفيقه وهدايته.

الإشارة: اعلم أن البيوت التي يدخلها المرید ثلاثة: بيت الشريعة وبيت الطريقة وبيت الحقيقة، ولكل واحد أبواب فمن أتى البيت من بابه دخل. ومن أتاه من غيره طُرد.

فبيت الشريعة له ثلاثة أبواب: الباب الأول: التوبة، فإذا دخل هذا الباب، وحقَّق التوبة بأركانها وبشروطها، استقبله باب الاستقامة، وهي: متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله، فإذا دخله، وحقَّق الاستقامة، استقبله باب التقوى بأقسامها. فإذا حقق التقوى ظاهراً وباطناً، دخل بيت الشريعة المطهرة، وتنزه في محاسنه ومعانيه، ثم يروم دخول بيت الطريقة، وله ثلاثة أبواب:

الباب الأول: الإخلاص وهو: إفراد العمل لله نم غير حرف ولا حظ، فإذا حقق الإخلاص استقبله باب التخلية وهي التطهير من العيوب الباطنة، وهي لا تنحصر، لكن من ظفر بالشيخ أطلعه عليها، وعلمه أوديتها، فإذا حقق التخلية استقبله باب التحلية، وهي: الاتصاف بأنواع الفضائل كالصبر والحلم والصدق والطمأنينة والسخاء والإيثار، وغير ذلك من أنواع الكمالات. فإذا حقق الإخلاص والتخلية والتحلية فقد حقق بيت الطريقة، ثم يستقبله بيت الحقيقة.

فأول ما يقرع باب المراقبة، وهي: حفظ القلب والسر من الخواطر الرديئة، فإذا تطهر القلب من الخواطر الساكنة، استشرَّف على باب المشاهدة، وهي: محو الرسول في مشاهدة أنوار الحيِّ القيوم، أو تلطيف الأواني عند ظهور المعاني، فإذا دخل باب المشاهدة، وسكن فيها، استقبله باب المعرفة، وهي محلُّ الرسوخ والتمكين، وهي الغاية والمنتهى، فبيت الحقيقة وهو مسجد الحضرة الربانية. وما بقي بعدها إلا الترقى في المقامات، وزيادة المعارف والكشوفات أبداً سرمداً، منحنا الله من ذلك حظاً وافراً بمَنه وكرمه.

@ { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } * { وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ قَاتِلًا }

قَاتِلُوهُمْ قَاتِلُوهُمْ كَذَلِكَ حَزَاءُ الْكَافِرِينَ { * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
{ * } وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا
عَلَى الظَّالِمِينَ } * { الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فَمَن
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ قَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَعَ الْمُتَّقِينَ } * { وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ
وَاحْسِبُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

قلت: { التهلكة } : مصدر هلك - بتشديد اللام - قاله ابن عطية. وضمن { تُلقوا
{ معنى تفضوا، أو تنتهوا، فعذاه بالى، أي: ولا تفضوا بأنفسكم إلى التهلكة. ولا
يحتاج إلى زيادة الباء.

وسبب نزول الآية: أن المشركين صدُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام
الحديبية، وصالحوه على أن يرجع في قابل، فيخلوا له البيت ثلاثة أيام، فرجع
لعمره القضاء، وخاف المسلمون ألا يفوا لهم، فيقاتلوا في الحرم والشهر
الحرام، وكرهوا ذلك، فنزلت الآية.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وقاتلوا في سبيل الله } وإعلاء كلمته { الذين
يقاتلونكم } أي: يبدعونكم بالقتال، { ولا تعتدوا } فتقاتلوهم قبل أن يبدؤكم،
{ إن الله لا يحب المعتدين } لا ينصرهم ولا يؤيدهم. ثم نسخ هذا بقوله:
{ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ... }

[التوبة: 36] الآية. { وقاتلوهم حيث ثقفتموهم } أي: وجدتموهم، ولا تخرجوا من
قتالهم في الحرم، فإنهم هم الذين صدوكم وبدؤكم بالإذابة، { وأخرجوهم } من
مكة { حيث أخرجوكم } منها، { والفتنة } أي: الكفر الذي هم فيه، { أشد من
القتل } لهم في الحرم، { ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام } ابتداءً { حتى
يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم } فيه { فقاتلوهم } فيه، وفي غيره، { كذلك جزاء
الكاافرين } يفعل بهم ما فعلوا بغيرهم، { فإن انتهوا } عن الشرك وأسلموا
{ فإن الله غفور } لهم { رحيم } بهم. { وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة } أي:
شرك { ويكون الدين } خالصاً { لله } بحيث لا يبقى في جزيرة العرب إلا
دين واحد، { فإن انتهوا } عن قتالكم، فلا تعتدوا؛ فإن { لا عدوان إلا على
الظالمين } إذ لا يحسن أن يظلم إلا من ظلم.

القتال الصدر منكم لهم في { الشهر الحرام } في مقابلة الصد الذي صدر
منهم لكم في الشهر الحرام، { والحرمات قصاص } يقتص بعضها من بعض،
فكما انتهكوا حرمة الشهر الحرام، بمنعكم من البيت، فانتهكوا حرمتهم بالقتل
فيه. { فمن اعتدى عليكم } بالقتال في الأشهر الحُرْم، أو في الحَرَم { فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله } فلا تنتصروا لنفوسكم، { واعلموا أن
الله مع المتقين } بالحفظ والتأييد.

{ وأنفقوا في سبيل الله } في جهاد عدوكم، ولا تمسكوا عن الإنفاق فيه
فتلقوا { بأيديكم } أي: بأنفسكم { إلى التهلكة } أي: الهلكة فيستولي عليكم
عدوكم.

رُوِيَ عن أبي أيوب الأنصاري (أنه كان على القسطنطينية، فحمل رجل على
عسكر العدو، فقال قوم: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: لا، إن هذه

الآية نزلت في الأنصار، قالوا - لما أعز الله الإسلام وكثرت أهله -: لو رجعنا إلى أهلينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها، فأُنزل الله فينا { ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة } ، وأما هذا فهو الذي قال فيه الله تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْشُرُ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْصَاتِ اللَّهِ } [البقرة: 207]

أو: ولا تنفقوا كل أموالكم فتعرضوا للهلكة، أو الطمع في الخلق، ولكن القصد، وهو الوسط.

@وأحسنوا { بالفضل على المحاوِج والمجاهدين: { إن الله يحب المحسنين } فيحفظهم، ويحفظ عقبهم إلى يوم القيامة.

الإشارة: أعلم أن أعداء الإنسان التي تقطعه عن حضرة ربه أربعة: النفس والشيطان والدنيا والناس. فمجاهدة النفس: بمخالفة هواها، وتحميلها ما يتقل عليها حتى ترتاض، ومجاهدة الشيطان: بعصيانه، والاشتغال بالله عنه، فإنه يذوب بذكر الله، ومجاهدة الدنيا: بالزهد فيها، والقناعة بما تيسر منها، ومجاهدة الناس: بالغبية عنهم والإعراض عنهم في الإقبال والإدبار. فيقول الحق جل جلاله للمتوجهين إليه: { وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم } وصدونكم عن حضرته، ولا تعتدوا فتشتغلوا بهم عن ذكرى، والإقبال عليّ، { إن الله لا يحب المعتدين } . بل اقتلوهم حيث تعرضوا لكم فقط، فإذا ظهرت صورة النفس أدبها، ثم غاب في الله عنها، وكذلك بقية القواطع.

وكان شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه يقول: (عداوة العدو حقاً هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو فانتك محبة الحبيب، ونال العدو مراده منك). هـ. وأخرجوهم من قلوبكم من حيث أخرجوكم من حضرة ربكم، يعني: كما أخرجوكم من الحضرة في أيام الغفلة، أخرجوهم من قلوبكم في أيام اليقظة. والفتنة بالاشتغال بهم أشد من القتل لهم، ولا تقاتلوهم عند مسجد الحضرة وحال الغيبة في الله، فإن ذلك التفات إلى غير الله، كمن كان مقبلاً عليه حبيبه فجعل يلتفت إلى من يكلمه ويشغله عنه. وذلك في غاية الجفاء، حتى يقاتلوكم فيه، ويريدون أن يخرجوكم منه بوسوستهم، فإن قاتلوكم، وخطر على بالكم شيء من وسوستهم، فاقتلوهم بذكر الله، والتعوذ منهم، فإن الله يكفيكم أمرهم، وينهزمون عنكم، كذلك جزاء الكافرين. فإن انتهوا عنكم، وانقطع عنكم خواطرهم، فغيبوا عنهم فإن الله يستركم عنهم، وقاتلوهم على الدوام حتى لا تكون في قلوبكم فتنة منهم، ويكون التوجه كله لله، لا ينازعه شيء مما سواه، فإن انتهوا عنكم فلا تتعرضوا لهم؛ فإن ذلك عدوان وظلم، { فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ } [البقرة: 193].

فإن جتحت نفسك إلى حرمة الطاعة الظاهرة؛ كتدريس علم أو جهاد أو غيرها، وأرادت أن تخرجك من حرمة الحضرة القدسية؛ وهي الفكرة والشهود والمعانية، فقاتلها وأخرجها من حرمة تلك الطاعة، فالحرمة قصاص. فكما أخرجتك من حضرة ربك القدسية أخرجها من حضرة الطاعة الحسية إلى الطاعة القلبية. فإن الدرّة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح.

فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ، فِي زَمَنِ الْبَطَالَةِ، فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ فِي زَمَنِ الْيَقِظَةِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ. وَكَانَ شَيْخُنَا الْبُوزِيدِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: جُورُوا عَلَى نَفُوسِكُمْ بِقَدْرِ مَا جَارَتْ عَلَيْكُمْ هـ. أَي: اقْتُلُوهَا بِقَدْرِ مَا قَتَلْتُمْ بِالْبَعْدِ عَنْ رَبِّكُمْ. وَكَانَ أَيْضًا يَقُولُ: (جُورُوا عَلَى الْوَهْمِ قُلْ أَنْ يَجُورَ عَلَيْكُمْ). هـ. وَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْينُكُمْ عَلَيْهَا، { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }. وَأَنْفَقُوا أَنْفُسَكُمْ وَمَهْجَتَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَانَ تَطَرُّحُوهَا فِي يَدِ اللَّهِ يَفْعَلُ بِهَا مَا يَشَاءُ. { وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ } فَتَدْبِرُوا لَهَا، وَتَخْتَارُوا لَهَا، وَتَعْتَنُوا بِشُؤْنِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ غَفْلَةٌ عَنْ رَبِّكُمْ. { وَأَحْسِنُوا } أَي: ادْخُلُوا فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ؛ بَانَ تَعْبُدُوا لِلَّهِ كَأَنَّكُمْ تَرُونَهُ { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } أَي: يَقْرِبُهُمْ إِلَى حَضْرَتِهِ، وَيُصْطَفِيهِمْ إِلَى مَحَبَّتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، خَرِطْنَا اللَّهُ فِي سَبِيلِكُمْ بِهِمْ وَكَرَمَهُ.

@ { وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِيتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

{ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ... }

قلت: المشهور في اللغة أن أحصر الرباعي: بالمرض، وحصر الثلاثي: بالعدو، وقيل: بالعكس، وقيل: هما سواء. و { ما استيسر } : خبر أو مبتدأ، أي: فالواجب ما استيسر، أو: فعليه ما استيسر.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وأتموا الحجّ } الذي دخلتم فيه، { والعمرة } وجوباً كالصلاة والصوم، ويكون ذلك { لله } لا رياء ولا سمعة، وإنما خصّ الحجّ والعمرة بالحض على الإخلاص، لما يسرع إليهما من الخلل أكثر من غيرهما، فمن أفسدهما وجب عليه قضاؤهما، { فإن أحصرتم } ومنعتم من إتمامهما فتحلوا منهما، وعليكم { ما استيسر من الهدى }، وذلك شاة { ولا تحلقوا رؤوسكم } أي: لا تحلّلوا { حتى يبلغ الهدى محله }، أي: حيث يحل ذبحه، وهو محل الإحصار عند الشافعي، فيذبح فيه بنية التحلل ويُفرق، وميى أو مكة عند مالك، فيُرسله فإذا تحقق أنه وصل ودُبح حل وحلق.

ويحرم على المُحْرِمِ إزالة الشعث، وليس المخيط بالعضو، فمن كان { مريضاً } أو به أذى { صداع أو نحوه، فحلق رأسه، أو لبس ثيابه، فعليه فديه } من صيام { ثلاثة أيام، } أو صدقة { على ستة مساكين، مُدَّان لكل مسكين، } أو نسك { بشاة فأعلى، فهو مخير بين الثلاثة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا عقد المرید مع ربه عُقْدَةً، فالواجب عليه إتمامها حتى يجني ثمرتها، فإذا عقد عقدة المجاهدة فليجاهد نفسه حتى يجني ثمرتها، وهي المشاهدة، وإذا عقد مع الشيخ عقدة الصحبة، فليلزم خدمته حتى يدخله إلى بيت الحضرة،

ويشهد له بالترشيد. وهكذا كل من عقد مع الله عقدة يجب عليه إتمامها، فإن أحصر ومُنِعَ مِنْ إتمامها فليُفْعَل. ما استيسر من ذبح نفسه وحط رأسه، و { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا } [الطلاق: 7]، ولا ينبغي أن يستعجل الفتح قبل إِبَانِهِ، فلعلَّه يُعَاقَبُ بحرمانه، فكم من مريد طلب شيخه أن يُطلعه على سر الربوبية قبل بلوغ محله، فكان ذلك سبب عطبه، فيقال له: ولا تحلق رأسك من شهود السوى حتى يبلغ هدي نفسك محلة فيذبح، فإذا دُحِتَ النفس وأجهز عليها حلق رأسه حينئذٍ من شهود السوى، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه.

إِنْ تُرِدْ وَضَلْنَا فَمَوْتُكَ شَرْطٌ لَا يَتَّالُ الْوِصَالُ مَنْ فِيهِ فَضْلَةٌ
فمن كان مريضاً بضعف عزمه، أو به أدى بعدم نهوض حاله، بحيث لم تُسَعِفْهُ المقادير في مجاهدة نفسه، فليشتغل بالنسك الظاهر من صيام أو صدقة أو قراءة أو غير ذلك، حتى يَمَنَّ عليه العليم الحكيم. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.
@ولما ذكر الحق تعالى هدى الإحصار وفديّة الأذى، ذكر هدى التمتع، فقال:

{ ... فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَحِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

يقول الحق جلّ جلاله: فإذا حصل لكم الأمن من المرض أو العدو، أو اردتم الحج { فمن تمتع } منكم { بالعمرة إلى الحج } بأن قدّم العمرة في أشهر الحج، ثم حج من عامه، فالواجب عليه { ما استيسر من الهدى }؛ شاة فأعلى؛ لكونه تمتع بإسقاط أحد السّفَرَيْنِ ولم يُفرد لكل عبادة سفراً مخصوصاً. { فمن لم يجد } الهدى، ولم يقدر على شرائه، فعليه { صيام ثلاثة أيام } في زمن { الحج }، وهو زمن إحصار إلى وقوفه بعرفة، فإن لم يصم في ذلك الزمان صام أيام التشويق. ثم يصوم سبعة أيام إذا رجع إلى مكة أو إلى بلده. فتلك { عشرة } أيام { كاملة }، ولا تتوهموا أن السبعة بدل من الثلاثة، فلذلك صرح الحق تعالى بقُدْلُكَةِ الحساب.

وهذا الهدى أو الصيام إنما يجب على المتمتع؛ إذا لم يكن ساكناً بأهله في مكة أو ذي طوى، وأما مَنْ كان { أهله حاضري المسجد الحرام } فلا هدى عليه؛ لأنه يُحرم بالحج من مكة فلم يسقط أحد السفرين، { واتقوا الله } في امتثال أوامره، وخصوصاً مناسك الحج؛ لكثرتها وتشعب فروعها، ولذلك أفردت بالتأليف، { واعلموا أن الله شديد العقاب } لمن ترك أوامره وارتكب نواهيها، وبالله التوفيق.

الإشارة: يقول الحق جلّ جلاله على طريق الإشارة للمتوجهين إليه: فإذا أمنتم من أعدائكم الذين يقطعونكم عن الوصول إلى حضرتنا، أو أمنتم من الرجوع بعد الوصال، أو من السلب بعد العطاء، وذلك بعد التمكين من شهود أسرار الذات، وأنوار الصفات، إذ الكريم إذا أعطى لا يرجع، فإذا حصل لكم الأمن، فمن تمتع بأنوار الشريعة إلى أسرار الحقيقة فعليه ما استطاع من الهدى والسمت الحسن والخلق الحسن؛ لأنه إذ ذاك قد اتصف بصفة الكمال وتصدّر

لتربية الرجال، فمن لم يجد ذلك فلرجع إلى ما تيسر من المجاهدة حتى يتمكن من ذلك الهدي الحسن والخلق الحسن، هذا لمن لم يتمكن في الحضرة الأزلية، وأما من كان مقيماً بها، عاكفاً في شهود أنوارها، فلا كلام عليه، لأنه قد تولاه مولاه، وعيَّبه عن شهود نفسه وهواه، فأمره كله بالله وإلى الله. جعلنا الله فيهم يمتنه وكرمه، لكن لا يغفل عن التقوى؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام: " أنا أعرّفكم بالله، وأنا أتقاكم له " وقالوا: " من علامة النهايات الرجوع إلى البدايات ". والله تعالى أعلم.

@ {لَحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ }

قلت: { الحج } : مبتدأ، على حذف مضاف، أي: إحرام الحج أو فعل الحج، و { أشهر } : خبر، وإذا وقع الزمان خبراً عن اسم معنى؛ فإن كان ذلك المعنى واقعاً في كل ذلك الزمان أو جُله؛ تعيّن رفعه عند الكوفيين، وترجع عند البصريين إذا كان الزمان نكرة، نحو: السفر يوم. إن كان السفر واقعاً في جميع ذلك اليوم أو في جُله؛ لأنه باستغراقه إياه صار كأنه هو، ويصح: السفر يوماً، أو في يوم. وإن كان ذلك المعنى واقعاً في بعض ذلك الزمان تعيّن نصبه أو جرّه ف (في)، نحو: السفر يوم الجمعة، أو في يوم الجمعة وقد يرفع نادراً.

قال في التسهيل: ويُغني - أي: ظرف الزمان - عن خير اسم معنى مطلقاً، فإن وقع في جميعه، أو في أكثره، وكان نكرة، رُفع غالباً، ولا يمتنع نصبه ولا جره بغير خلافٍ للكوفيين. وربما رُفع خيرُ الزمان الموقَّع في بعضه. هـ. ومن ذلك: { الحج أشهر معلومات } فإن جُلّضها تصلح للإحرام.

يقول الحقّ جلّ جلاله: وقتُ إحرام الحج { أشهر معلومات } : شوال وذو القعدة وذو الحجة، فمن أحرم قبلها كره عند مالك، وبطل عند الشافعي، { فمن فرض { على نفسه { فيهن الحج } فيلزم الأدب والوقار، ويجانب شهوة النساء، { فلا { يقع منه { رفث { أي: جماع أو كلام فحش، { ولا فسوق { أي: ذنوب، { ولا جدال في { زمان { الحج } ولو مع المكارى أو الخُدّام، ولا غيره من أنواع الخصام؛ فإنه في حضرة الملك العلام. { وما تفعلوا من خير { كجلم وصبر وحسن خلق { يعلمه الله { فاستبقوا الخيرات، وتزودوا قبل هجوم الممات، واتقوا الله حق تقاته { فإن خير الزاد التقوى }. أو تزودوا لسفر الحج، ولا تسافروا كلاً على الناس؛ { فإن خير الزاد التقوى { عن الطمع في الخلق، { واتقون يا أولي الألباب } ، وأفرِدوني في سرکم حتى أفتح لكم الباب، وأدخلکم مع الأحباب.

الإشارة: معاملة الأبدان مؤقتة بالأمكان والأزمان، ومعاملة القلوب أو الأرواح غير مؤقتة بزمان مخصوص، ولا مكان مخصوص، فحجّ القلوب، الأزمنة كلها له ميقات، والأماكن كلها عرفات، حج القلوب هو العلوب هو العكوف في حضرة علام الغيوب، وهي مُسَرَّمَدَةٌ على الداوم على مَرِّ الليالي والأيام، فكل وقت عندهم ليلة القدر، وكل مكان عندهم عرفة المشرفة القدر، وأنشدوا:

لولا شهودُ جمالكم في ذاتي ما كنتُ أرضى ساعةً بحياتي

ما ليلة القدر المِعْظَمُ شأنها
إن المحبَّ إذا تمكَّن في الهوى
وقال آخر:
إلا إذا عمَّرتُ بكم أوقاتي
والحبِّ لم يحْتَجْ إلى ميقاتِ

كُلُّ وقتٍ مِنْ حَبِيبِي
فَارَّ مَنْ خَلَى الشَّوَاعِلَ
قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّةٍ
وَلِمَوْلَاهُ تَوَجَّهَ
فَمَنْ قَرَضَ عَلَى قَلْبِهِ حَجَّ
الْحَضْرَةَ فَيَلْتَزِمُ الْأَدَبَ وَالنُّظْرَةَ، وَالسُّكُوتَ وَالْفِكْرَةَ،
قال تعالى:

{ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا }
[طه: 108] فلا رفث ولا فسوق ولا جدال ولا مراة، إذ مبنى طريقهم على
التسليم والرضى، وما تفعلوا من خير فليس على الله بخفي. وتزودوا بتقوى
شهود السَّوَى، { فإن خير الزاد التقوى }، وجماعُ التقوى هي مخالفة الهوى،
ومحبة المولى، فهذه تقوى أولي الألباب؛ الذين صَفَتْ مِرَاةَ قُلُوبِهِمْ، فأبصروا
الرشد والصواب، وبالله التوفيق.
@ { لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُم مِّنْ عَرَاقَاتِ
فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ
الصَّالِينَ } * { ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ } * { فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أُشَدِّ ذِكْرًا
فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ } *
{ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ
النَّارِ } * { أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ }
{ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ }

قلت: { أن تبتغوا } : على إسقاط حرف الجر، أي: في أن تبتغوا، وسبب نزول
الآية: أن عكاظاً ومَجَنَّةً وذا المجاز - أسماء مواضع - كانت أسواقاً في الجاهلية
يعمرونها في مواسم الحج، وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا
وتخرجوا أن يتجروا فيها، فقال لهم الحقُّ جلَّ جلاله: { ليس عليكم جناح } أي:
إثم أو ميل عن الصواب، في { أن تبتغوا فضلاً من ربكم } أي: عطاء ورزقاً
تستفيدونه من التجارة في مواسم حركم، إذا خلصت نيتكم، وغلب قصد الحج
على التجارة.

وها هنا قاعدة ذكرها الغزالي في الإحياء وحاصلها: أن العمل إذا تمحَّض لغير
الله فهو سبب المقت والعقاب، وإذا تمحَّض الله خالصاً فهو سبب القرب
 والثواب، وإذا امتزج بشوَب من الرياء أو حظوظ النفس فينظر إلى الغالب
 وقوة الباعث؛ فإن كان باعث الحظ أغلب، سقط، وكان إلى العقوبة أقرب،
 لكن عقوبته أخف ممن تجرد لغير الله، وإن كان باعث التقرب أغلب، حُط منه
 بقدر ما فيه من باعث الحظ، وإن تساوى تقاوماً وتساقطاً وصار العمل لا له
 ولا عليه.

ثم قال: ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن مَنْ خرج حاجاً ومعه تجارة صحَّ حجه
 وأثيب عليه. ثم قال: والصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرك الأصلي،
 وكان غرض التجارة كالتابع، فلا ينفك نفس السفر عن ثواب، ثم طرد هذا

الاعتبار في الجهاد باعتبار الغنيمة، يعني: يُنظر لغالب الباعث وُخْلُوصِ القصد، وكذلك الصوم للجُمِية والثواب، ينظر لغالب الباعث.

قلت: وتطرّد هذه القاعدة في المعاملات كلها، وجميع الحركات والسكنات والجِرَفِ وسائر الأسباب، فالخالص من الحظوظ مقبول، والمتمحص للحظوظ مردود، والمَشُوب يُنظر للغالب كما تقدم.

وقد ذكر شبه المشايخ سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه قاعدة أخرى أدقّ من هذه فقال: إذا أكرم الله عبداً في حركاته وسكناته، نصّب له العبودية لله وستر عنه حظوظ نفسه، وجعله يتقلب في عبوديته، والحظوظ عنه مستورة، مع جَزِيٍّ ما قُدِّرَ له، ولا يلتفت إليها؛ لأنها في معزل عنه، وإذا أهان الله عبداً في حركاته وسكناته، نصب له حظوظ نفسه، وستر عنه عبوديته، فهو يتقلب في شهواته، وعبودية الله عنه بمعزل، وإن كان يجري عليه شيء منها في الظاهر، قال: وهذا باب من الولاية والإهانة. وأما الصّدِّيقية العظمى، والولاية الكبرى، فالحظوظ والحقوق كلها سواء عند ذوي البصيرة؛ لأنه بالله فيما يأخذ ويترك. هـ.

الإشارة: العبد لا يستغني عن طلب الزيادة، ولو بلغ من الكمال غاية النهاية، فالقناعة من الله حرمان، واعتقاد بلوغ النهاية نقصان، فليس عليكم جناح أيها العارفون أن تبتغوا فضلاً من ربكم زيادة في إيقانكم، وترقياً في معانيكم، إذ كمالات الحق لا نهاية لها، وأسرار الذات لا إحاطة بها، قال تعالى:
@وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا {
[طه: 110]. والله وليّ التوفيق.

ثم ذكر الحقّ تعالى الوقوف بعرفة، والرجوع إلى المزدلفة والمشعر الحرام، فقال:

{...فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَإِذَا قَصَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا... {

قلت: { أفضتكم } : دفعتم، وأصل الإفاضة: الدفع بقوة، من فاض الماء إذا تبع بقوة، ثم استعمل في مطلق الاندفاع على سبيل المبالغة. و { عرفات } فيه الصرف وعدمه كأذرعات. وسمى عرفات لقول إبراهيم الخليل عليه السلام لجبريل حين علمه المناسك: قد عرفت: أو لمعرفة آدم حواء فيها. والكاف في { كما هداكم } تعليلية، و { ما } مصدرية، أي: واذكروه لأجل هدايته لكم. و { إن كنتم } مخففة، واللام فارقة، وقوله: { أو أشد } نعت لمصدر محذوف، أي: أو ذكراً أشد... الخ.

يقول الحقّ جلّ جلاله: فإذا وقفتم بعرفة، وأفضتم منها، فانزلوا المزدلفة وبيئوا بها، فإذا صليتم الصبح بغلس فقفوا عند { المشعر الحرام } ، وهو جبل في آخر المزدلفة، واذكروا الله عنده بالتهليل والتكبير والتلبية إلى الإسفار، هكذا فعل الرسول - عليه الصلاة والسلام -، { واذكروه } لأجل ما هداكم إليه من

معالم دينه ومناسك حجه، وغير ذلك من شعائر الدين، أو فاذكروه ذكراً حسناً هداكم هداية حسنة، وقد كنتم من قبل هذه الهداية { لمن الضالين }.

وكانت قريش لا تقف مع الناس ترفعاً عليهم، بل تقف بالمزدلفة، فأمرهم الحق جلّ جلاله بالوقوف مع الناس، فقال لهم: { ثم أفيضوا } يا معشر قريش { من حيث أفاض الناس } بأن تَقُضُوا معهم، وتفيضوا من حيث أفاضوا، { واستغفروا الله } في تغييركم مناسك إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - { إن الله غفور } لكم، { رحيم } بكم إن تبتنم ورجعتم واتبعتنم رسولكم. { فإذا قضيتن مناسككن } وفرغتم من حجتكن { فاذكروا الله } ذكراً كثيراً { كذاكركن آباءكن } أو ذكراً { أشد ذكراً } منهم، حيث كنتم تذكرونهم عند فراغ حجتكن بالمفاخرة، وكانوا إذا فرغوا من حجتهم وقفوا بمنى، بين المسجد والجبل، فيذكرون مفاخرة آبائهم، ومحاسن أيامهم، فأمرُوا أن يُبدلوا ذلك بذكر الله، وذكر إحسانه إليهم، وشكر ما أسداه إليهم من مفاخر الدنيا والآخرة، إن آمنوا واتبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم.

الإشارة: إذا وقفت القلوب على جبل عرفة المعارف، وتمكنت من شهود جمال معاني تلك الزخارف، حتى صارت تلك المعاني هي روحها وسرّها، وإليها مآلها ومسيّرّها، أمرت بالنزول إلى رض العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، شكراً لما هداها إليه من معالم التحقيق، وما أبان لها من منار الطريق، وإن كانت من قبله لمن الضالين عن الوصول إلى رب العالمين.

@ ثم يؤمرون بمخالطة الناس بأشباحهم، وانفرادهم عنهم بأرواحهم، أشباحهم مع الخلق تسعى، وأرواحهم في الملكوت ترعى، فإذا وقع منهم ميل أو سكون إلى جسّن؛ فليستغفروا الله { إن الله غفور رحيم }. ثم يقال لهم: فإذا قضيتن مناسككن، بأن جمعتن بين مشاهدة الربوبية في باطنكن، والقيام بوظائف العبودية في ظاهركن، فاذكروا الله على كل شيء، وعند كل شيء، وقيل كل شيء، وبعد كل شيء، حتى لا يبقى من الأثر شيء، كما كنتم تذكرون آباءكم وأبناءكم، في حال غفلتكن، بل أشد ذكراً وأعظم وأتم، والله ذو الفضل العظيم.

ثم بين الحق تعالى مقاصد الناس، وهمهم في طلبهم وسعيهم، فقال:

{ ... فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ }

يقول الحق جلّ جلاله: في بيان مقاصد الناس وهمهم في طلبهم في الحج وغيره: { فمن الناس } من قصرت نيته وانحطت همته، { يقول ربنا آتنا في الدنيا } ما تشتهي نفوسنا من حظوظها وشهواتها، وليس له { في الآخرة من خلاق } أي: نصيب، لأنه عجل نصيبه في الدنيا. " إن الله يرزق العبد على قدر نيته " { ومنهم } من أراد كرامة الدنيا وشرف الآخرة { يقول ربنا آتنا في الدنيا } حالة { حسنة }؛ كالمعرفة، والعافية، والمال الحلال، والزوجة الحسنة، وجميع أنواع الجمال، { وفي الآخرة حسنة }؛ كالنظرة، والحور العين، والقصور، جميع أنواع النعيم، { وقنا عذاب النار } بالعفو والمغفر، وقال سيدنا عليّ - كرم الله وجهه -: (الحسنة في الدنيا: المرأة الصالحة، وفي الآخرة: الحوراء).

وعذاب النار في الدنيا: المرأة السوء) وقال الحسن: (الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة: الجنة). { وقنا عذاب النار } : احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار، وهذه كلها أمثلة للحالة الحسنة.

{ أولئك } الذين طلبوا خير الدارين { لهم نصيب } وحظ من الجزاء الوافر من أجل ما كسبوا من الأعمال الصالحات، { والله سريع الحساب } يحاسب عباده على كثرتهم، وكثرة أعمالهم، في مقدار لمحة. قيل لعلِّي رضي الله عنه: كيف يحاسب الله عباده في ساعة واحدة؟ فقال: كما يرزقهم في ساعة واحدة. هـ. أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب عباده، فبادرُوا إلى إغتنام الطاعات، واكتساب الحسنات، قبل هجوم الممات.

الإشارة: الناس ثلاثة: صاحب همة دنيئة، وذو همة متوسطة، وصاحب همة عالية، أما صاحب الهمة الدنية فهو الذي أنزل همته على الدنيا الدنية، وأكب على جمع حطامها الفانية، فقلب هذا خال من حب الحبيب، فما له في الآخرة من نصيب. وأما صاحب الهمة المتوسطة فهو الذي طلب سلامة الدارين، وصلاح الحالين، قد اشتغل في هذه الدار بما ينفعه في دار القرار، ولم ينس نصيبه من الدنيا ليُقضي ما له فيها من الأوطار، فهذا له في الدنيا حسنة، وهي الكفاية والغنى، وفي الآخرة حسنة، وهي النعمة والسرور والهنا.

@ وأما صاحب الهمة العالية فهو الذي رفع همته عن الكونين، وأغمض طرفه عن الالتفات إلى الدارين، بل علق همته بمولاه، ولم يقنع بشيء سواه، قد ولى عن هذه الدار مُغضياً وأعرض عنها مُولياً، ولم يشغله عن الله شيء، يقول بلسان المقال إظهاراً لعبودية للكبير المتعال: { ربنا آتنا في الدنيا حسنة { وهي النظرة والشهود، ورضا الملك الودود، { وفي الآخرة حسنة } وهي اللقوق بأهل الرفيق الأعلى، من المقربين والأنبياء، في حضرة الشهود المؤبد { في مقعد صدق عند مليك مقتدر }. أتحنقنا الله من ذلك بحظ وافر، بمته وكرمه، نحن وإحبابنا أجمعين، آمين.

@ { وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُحْشَرُونَ } {

يقول الحق جل جلاله: { واذكروا الله في أيام معدودات } وهي ثاني النحر وثالثة ورابعة، وهي أيام التشريق وأيام منى، وأما الأيام المعلومات فهي يوم النحر وثانيه وثالثه. والمراد بالذكر: التكبير عند الرمي، وذبح القرابين، وخلف الصلوات الخمس، وغير ذلك، { فمن تعجل في يومين } بحيث رمى ثاني النحر وثالثه، ورجع، { فلا إثم عليه ومن تأخر } لرمى رابع النحر، وهو ثالث أيام منى، { فلا إثم عليه } ، والقصد بنفي الإثم: التخيير والرد على الجاهلية، فإن منهم من أثم المتعجل، ومنهم من أثم المتأخر. هذا كله { لمن اتقى } الله في حجه، لم يرفث، ولم يفسق، فإنه يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، كما قال الصادق المصدوق، { واتقوا الله } في جميع أموركم، فإنه ذكرٌ وشرفٌ لكم، { واعلموا أنكم إليه تحشرون } فتجارون على ما أسلفتم من خير أو شر.

الإشارة: الأيام المعدودات هي أيام الدنيا؛ فإنها قلائل معدودة، وهي كلها كيوم واحد، وأيام البرزخ يومٌ ثانٍ، وأيام البعث وما بعده يوم ثالث، فمن تعجل في يومين، بحيث طوى في نظره أيام الدنيا وأيام البرزخ، وسكن بقلبه في يوم القيامة فلا إثم عليه، وهذا هو صاحب الهمة المتوسطة، ومن تأخر حتى زهد

في الأيام الثالثة، وعلق همته بمولاه، ولم يلتفت إلى ما سواه، فلا إثم عليه في ذلك التأخر، وإن اتقى شهود السوى، وعلق عمته بمحبة المولى، ثم حصّ سبحانه على هذه التقوى فقال: { واتقوا الله } فلا تشهدوا معه سواه، { واعلموا أنكم إليه تحشرون } فترؤوا ما فاز به المتقون.

@ { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهَ عَلَمًا مَّا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ } * { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَا فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسَادَ } * { وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ } * { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْشِرُ نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ }

قلت: نزلت الآية في الأختس في شريق الثقفي وصهيب بن سنان الرومي، أما الأختس فكان رجلاً حسن المنظر، حلو المنطق، كان يوالي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعي الإسلام، ثم ارتد، ومز على زرع وحمر للمسلمين فقتلها وأفسد الزرع، قال ابن عطية: ولم يثبت أنه أسلم. قلت: بل ذكره في القاموس من الصحابة، فانظره، ولعله تاب بعد نزول الآية. وأما صهيب الرومي فأخذه المشركون وعذبه ليرتد، فقال لهم: إني شيخ كبير؛ لا أنفعكم إن كنت معكم، ولا أضركم إن كنت عليكم، فخلوني وما أنا عليه، وخذوا مالي، فقبلوه منه، وأتى المدينة فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال له: " رِيحَتْ يَا أَبَا يَحْيَى "

وقيل: نزلت في المنافقين ومن نحا نحوهم، وفيمن باع نفسه لله في الجهاد وتغيير المنكر من المسلمين. و { في الحياة الدنيا } يتعلق بالقول، و { ألد الخصام } شديده، وفي الحديث: " أَبْغَضُ الرَّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ الْخَصِيمُ " والخصام: مصدر، أو جمع خصيم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ومن الناس } قوم حُلّ اللسان خراب الجّان، إذا تكلم في شأن الدنيا { يعجبك قوله } فيها لرونقه وفصاحته، { ويشهد الله } أي: يحلف على أنه موافق لقلبه، وأن ظاهره موافق لباطنه، وهو شديد الخصومة والعدواة للمسلمين، أو أشد الخصوم، { وإذا تولى } أي: أدبر وانصرف عنك، { سعى في الأرض } أي: مشى فيها بنية الإفساد { ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل } كما فعل الأختس، أو كما فعله أهل الظلم، فيحسب الله القطر، فيهلك الحرث والنسل بشؤم معاصيهم، { والله لا يحب الفساد } أي: لا يرتضيه، فاحذروا غضبه. { وإذا قيل له اتق الله } وارجع عما أنت عليه من الفساد { أخذته العزة } أي: حملته الحمية والأنفة بسبب الإثم الذي ارتكبه، فلا ينزجر عن عيّه. أو حملته الحمية على الإثم الذي يؤمر باتقائه. { فحسبه جهنم } أي: كفته عذاباً وعقاباً، وهي عَلمٌ لدار العقاب، كالنار، { ولبيس المهاد } هي: أي: بسّ الفراش الذي مهّده لنفسه.

ونزل في مقابله، وهو صهيب، أو كل من بذل نفسه لله: { ونم الناس من يبشري نفسه } أي: يبيعها ويبدلها لله في الجهاد وغيره، { ابتغاء مرضات الله } والوصول إلى حضرته { والله رؤوف بالعباد } الذين يفعلون مثل هذا، فيدرا عنهم المصائر، ويجلب لهم المصائر أينما حلوا من الدارين.

الإشارة: الناس على قسمين: قسم رَبَّيْتُوا ظَوَاهِرَهُمْ وَخَرَّبُوا بُوَابَتَهُمْ، وظاهرهم جميل وباطنهم قبيح، إذا تكلموا في الدنيا أو في الحس، أعجبك قولهم، وراقك منظرهم، وإذا تكلموا في الآخرة، أو في المعنى، أخذتهم الحسنة والدهشة. وفي بعض الكتب المنزلة: " إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَوْمًا أَلَسْتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقَلْبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الصَّانِ مِنَ اللَّيْلِ يَجْتَرُّونَ الدُّبْيَا بِالدِّينِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَيُّ يَعْتَرُونَ، وَعَلَيَّ يَجْتَرُونَ؟ خَلَفْتُ لِأَسْلُطَنَ عَلَيْهِمْ فَنُتِيَ تَدْعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانَ ".

@وقوله: { يلبسون... } الخ. كناية عن إظهار اللين والسهول ليخدع ويغر الناس ليتوصل إلى حظ نفسه من الدنيا، ومع ذلك يدعي موافقة ظاهره لباطنه، وهو شديد الخصومة لأهل الله، وإذا تولى عنك اشتغل بالمعاصي والذنوب، ليُفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل بشؤم معاصيه، وإذا دُكر: أَيْفَ واستكبر، وأخذته حمية الجاهلية، فحسبه البُعد في نار القطيعة.

والقسم الثاني: قوم رَبَّيْتُوا بُوَابَتَهُمْ وَخَرَّبُوا ظَوَاهِرَهُمْ، عمَّروا قلوبهم بمحبة الله، وبدلوا أنفسهم في مرضات الله، قلوبهم في أعلى عليين، وأشباحهم في أسفل سافلين، فأولئك المقربون مع النبيين والمرسلين. قال بعض العارفين: كلما وضعت نفسك أرضاً أرضاً، سما قلبك سماء سماء، وكل ما نقص من حسك زاد في معنك. وفي الحديث: " مَنْ تَوَاضَعَ دُونَ قَدْرِهِ رَفَعَهُ اللَّهُ فَوْقَ قَدْرِهِ " وبالله التوفيق.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } * { فَإِنْ زَلْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

قلت: { السلم } ، بالفتح والكسر: هو الاستسلام والانقياد، ويعد هنا تفسيره بالصُّلح، و { كافة } : حال من الواو والسلم معاً، كقوله تعالى: { فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ } [مریم: 27].

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا } بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب { ادخلوا في } شرائع الإسلام { كافة } بحيث لا تهملوا شيئاً منها، ولا تلتفتوا إلى غيرها، نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه، حيث دخلوا في اسلام، وأرادوا أن يُعظِّموا السبت، وتخرجوا من لحوم الإبل. أو في المنافقين حيث أسلموا في الظاهر، ونافقوا في الباطن، فقال لهم الحقُّ جلَّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا } في الظاهر، ادخلوا في الإسلام { كافة } ظاهراً وباطناً. أو في المسلمين يأمرهم بالتمسك بشرائع الإلام كلها، والبحث عن أحكامها وأسرارها، { ولا تتبعوا خطوات الشيطان } أي: طرِّقه الدالة على التفريق والتفرق؛ { إنه لكم عدو مبين } أي: بين العداوة.

{ فإن زلتم } عن طريق الجادة؛ ففرقتم بين أجزاء الشريعة، أو التفتم إلى غير شريعتكم، { من بعد ما جاءكم } الآيات { البيِّنات } الدالة على صحة الدين ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، { فاعلموا أن الله عزيز } أي: غالب لا يُعجزه عقابكم، { حكيم } في إمهاله إلى وقت معلوم.

الإشارة: أمر الحقّ جلّ جلاله جميعاً بالصلح معه والاستسلام لأحكامه، بحيث لا يصدّر منهم نزاعاً لأحكامه، ولا اعتراض على أفعاله، بل ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة، فيتلقونه بالرضى والتسليم، أو الصبر والتصبر، سواءً ظهرت هذه الأفعال على أيدي الوسائط أو بلا وسائط، إذ لا فاعل سواه، وكلٌّ من عند الله، فإن زلتم واعترضتم، أو سخطتم، من بعد ما جاءكم الآيات البيّنات الدالة على وحدانية الحق في ذاته وصفاته وأفعاله، فاعلموا أن الله عزيز حكيم، لا يعجزه عقوبتكم وإبعادكم، لكنه من حكمته يُمهّل ولا يهمل، والله غالب على أمره، ومن تاب تاب الله عليه.

@ { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ }

قلت: { الظُّلَّلُ } : جمع ظُلَّة، وهي ما أظلَّك من فوق، و { العَمَامِ } : السحاب الرفيق الأبيض.

يقول الحقّ جلّ جلاله: ما ينتظر هؤلاء الممتنعون من الدخول في شرائع الإسلام - إلا أن تقوم الساعة، ويأتيهم الله للفصل بين عباده { في ظلل من الغمام } ، بأن يتجلى لعباده على ما يليق بجلاله؛ إذ تجليات الحق لا تنحصر. وتأتيهم { الملائكة } تحيط بهم { وقضي الأمر } بعذابهم، { وإلى الله ترجع الأمور } كلها، فهو المنتصرف وحده. وقد ذكر المنذري حديث هذا التجلي بطوله، وذكر فيه النزول والفصل بين عباده، والمرور على الصراط، والناس في أثار إيمانهم. وذكره الفاسي في الحاشية بتمامه. ومن كحل عين بصيرته بأئمة التوحيد الخاص، لم يُسْتَضَعَبْ عليه قَهْمٌ هذا الحديث وأمثاله؛ لسعة دائرة معرفته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية تهديد لأهل الحجاب الذين لم يتحققوا بالصلح مع الله، بل هم يخاصمون الله في مظاهر خلقه، ويعترضون على الله في قضائه وحكمه، فقال لهم الحقّ جلّ جلاله: هل ينتظر هؤلاء المنكرون عليّ في أفعالي، المعترضون عليّ في حكمي وإبرامي - إلا أن أتعرف لهم في ظلل من الغمام، وهو سحب الآثار، فإذا أنكروني أخذتهم الملائكة، وقضي الأمر بهلاكهم، وإلى الله ترجع الأمور كلها، فليلتزم العبد الأدب مع مولاه، وليسلم الأمور كلها إلى الله، إذ لا موجود سواه، فما برز من العباد: كله من الله، فمن اشتغل بعتابهم فاته الأدب مع الله، إلا ما أمرت به الشريعة، فليكن في ذلك كالعبد يُؤدب ابن سيده؛ يده تؤدب وقلبه يعظم، والله تعالى أعلم وأرحم.

@ { سَلُّ نَبِيًّا إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

قلت: { كم } { خبرية، أو استفهامية، محلها نصب بفعل محذوف يُقدر مؤخرًا للصدرية، أي: كم آياتنا آتيناهم، أو رفع بالابتداء، والعائد محذوف، أي: آتيناهموه.

يقول الحقّ جلّ جلاله لرسوله - عليه الصلاة والسلام - أو لكل سامع: { سل بني إسرائيل } سؤال تقرير، وقل لهم: { كم آتيناهم من آية بيّنة } أي: كثيراً

ما آتيناهم من آية واضحة في شأنك، تدل على صدق رسالتك وعلو شأنك وفخامة أمرك، اعتناء بأمرهم، ونعمة على مَنْ أدرك زمانك منهم. ثم إنهم بدلوا نعمة الله كفوفاً، ووجدوا فكنتموا تلك النعمة وكفروها، { ومن يبدل نعمة الله من بعد مجيئها إياه، { فإن الله شديد العقاب } لمن كفر نعمه ووجد رسله، نعوذ بالله من السلب بعد العطاء، ومن كفران النعم، وحرمان الرضا.

الإشارة: ما قيل لبني إسرائيل، يقال لمن تحقق بولاية ولي من أولياء الله، ثم جردها وكتمها، وحرم نفسه بركة ذلك الولي، فمات على مرضه، فيقال له: { ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب }. وعقوبته: أن يلقى الله بقلب سقيم، فيبعث مع عوام أهل اليمين، ويحرم درجة المقرين، التي تلي درجة النبيين والمرسلين. عائداً بالله من الحرمان، وشؤم عاقبة الخذلان.

ثم ذكر الحقّ جلّ جلاله سبب هذا الحرمان، وهو حب الدنيا.

@ { زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }

قلت: { زين } مبني للمفعول، والفاعل هو الله، إذ لا فاعل سواه.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { زين للذين كفروا } من اهل الكتاب وغيرهم، { الحياة الدنيا } أي: حُسِنَتْ في أعينهم، وأشربت محبتها في قلوبهم، حتى تهالكو عليها، واعرضوا عن غيرها، فلم تتفرغ قلوبهم للتفكير والاعتبار، ولم تستمع آذانهم للوعظ والتذكار، بل أعمتهم، وأصمّتهم، وقصروا عليها همتهم، حتى جعلوا يسخرون ممن أعرض عنها، كفراء المسلمين وأهل الصفة، فكانوا يستهزئون بهم، حيث رفضوا الدنيا وأقبلوا على الله، فرفعهم الله في أعلى عليين، وخفض الكفار في أسفل سافلين. فهم يسخرون منهم في دار الدنيا { والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة } لأنهم في عليين، والآخرين في أسفل سافلين. أو لأنهم في كرامة، والآخرون في مذلة. أو لأنهم يسخرون منهم يوم القيامة كما سخروا منهم في الدنيا.

وعبر بالتقوى لأنها سبب رفعهم واستعلائهم. وأما استهزاؤهم بهم لأجل فقرهم، فإن الفقر شرف للعبد، والبسط في الدنيا على شرفه؛ فقد يكون استدراجاً، وقد يكون عوناً، فالله { يرزق من يشاء بغير حساب } ، أي: بغير تقدير، فيوسع في الدنيا استدراجاً وابتلاءً، ويقتر على مَي يشاء اختباراً وتمحيصاً، { لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ }

[الأنبياء: 23].

الإشارة: اعلم أن عمل أهل الباطن كله باطني قلبي، بين تفكير واعتبار، وشهور واستبصار، أو نقول: بين فكرة ونظرة وعكوف في الحضرة، فلا يظهرون من أعمالهم إلا المهم من الواجبات، ولذلك قال بعضهم: إذا وصل العمل إلى القلوب استراحت الجوارح، (ومعلوم أن الذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح)؛ لأن أعمال القلوب خفية، لا يطلع عليها ملك فيكتبها، ولا شيطان فيفسدها، الإخلاص فيها محقق. وأيضاً: " تفكر ساعة أفضل

من عبادة ستين سنة ". وسئل - عليه الصلاة والسلام - : " أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قال: " الْعِلْمُ بِاللَّهِ " قيل: يا رَسُولَ اللَّهِ سَأَلْتَاكَ عَنِ الْعَمَلِ؟ فقال: " الْعِلْمُ بِاللَّهِ " ، ثم قال صلى الله عليه وسلم: " إِذَا حَصَلَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ كَفَى قَلِيلَ الْعَمَلِ " أو كما قال عليه الصلاة والسلام، " فلما خفيت أعمال أهل الباطن سخر منهم أهل الظاهر، واستصغروا شأنهم؛ حيث لم يروا عليهم من الأعمال ما رأوا على العباد والزهاد. والذين اتقوا شهود ما سوى الله، أو كل ما يشغل عن الله، فوقهم يوم القيامة؛ لأنهم من المقربين وغيرهم من عوام المسلمين، والله يرزق من يشاء في الدارين بغير حساب، أي: بغير تقدير ولا حصر، فيرزق العلوم، ويفتح مخازن الفهوم على مَنْ توجه إلى مولاه، وفرغ قلبه مما سواه " وبالله التوفيق.

@ { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمِمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

قلت: { فبعث } معطوف على محذوف، أي: فاختلفوا فبعث، و { بغياً } مفعول له، و { من الحق } بيان { لما } .

يقول الحق جلّ جلاله: { كان الناس } في زمن آدم عليه السلام وما قُرب منه { أمة واحدة } أي: جماعة واحدة، متفقة على التوحيد، والطاعة، فاختلفوا بعد ذلك في أمر التوحيد، { فبعث الله النبيين مبشرين } لأهل التوحيد والطاعة بالنعيم المقيم، { ومنذرين } مخوفين لأهل الكفر والعصيان بالعذاب الأليم.

{ وأنزل معهم الكتاب } أي: جنب الكتب، فيشمل الكتب السماوية كلها، متلبساً ذلك الكتاب { بالحق } ، ودالاً عليه { ليحكم } الحق تعالى على لسان الرسل { بين الناس } في الأمر الذي { اختلفوا فيه } من أمر التوحيد وغيره. ثم اختلفوا أيضاً في الكتب المنزلة؛ فبعضهم آمن، وبعضهم كفر بها أو ببعضها، { وما اختلف فيه } أي: في الكتاب المنزل: { إلا الذين أوتوه } حسداً أو كبراً؛ فاليهود آمنوا بالتوراة وكفروا بالإنجيل، والنصارى آمنوا بالإنجيل وكفروا بالتوراة، { من بعد ما جاءتهم } : الآيات الواضحات في صحة ذلك الكتاب الذي كفروا به، والأمر بالإيمان به.

وإنما وقع ذلك الكفر منهم { بغياً } وحسداً { بينهم } ، فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته، فأمرهم أن يتألفوا بالعلم، فتحاسدوا، واختلفوا طلباً للرئاسة والجاه، { فهدى الله الذين آمنوا } بمحمد - عليه الصلاة والسلام - للأمر الذي اختلف فيه أهل الكتاب، وهو الحق الذي جاءت به الرسل، فأمنوا بالجميع، وتألفوا على طاعة الله { بإذنه } وإرادته، { والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم } ، ويضل من يشاء عن طريقه القويم، { لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ } [الأنبياء: 23].

الإشارة: الإصل في الأرواح كلها، الاتفاق والإقرار، وإنما حصل لها الخلاف والإنكار بعد دخولها في عالم الأشباح، وهبوطها من عالم الأرواح، فبعث الله النبيين يُذكرون الناس العهد القديم، فمن سبقت له السعادة حصل له الإقرار، ومن سبق له الشقاء حصل له الإنكار، ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام -: " كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَصَابِغًا يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا أَوْ يَمَجَّسَانِيًّا " ثم بعث الله الحكماء، وهم العارفون بالله، يعالجون ما حصل للروح من الجهل والإنكار، فمن سبقت له العناية آمن بهم، وصدقهم، واستسلم بكليته إليهم، فحصل له الوصول، ويبلغ كل المأمول، ومن سبق له الحرمان لم يحصل له بهم إيمان، وبقي دائماً في قلبه حيران.

وما وقع هذا الإنكار في الغالب إلا من أهل الرئاسة والجاه، أو من كان عبداً لديناه وهواه بغياً وحسداً منهم، فهدى الله الذين آمنوا - وهم أهل الفطرة والنبيّة - لما اختلفوا فيهم من الحق بإذنه، فحصل لهم التصديق، ووصلوا إلى عين التحقيق، { والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم } وهو طريق الوصول إلى الحضرة القدسية التي كانت مقراً للأرواح الزكية، منها جاءت وإليها عادت. وفي ذلك يقول ابن البنا رضي الله عنه:

وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ النَّفْسِيَّةُ مَوْضُوعُهُ بِالْحَضْرَةِ الْقُدْسِيَّةِ
وَإِنَّمَا يَعْقُوبُهَا الْمَوْضُوعُ وَمِنْ هُنَا يُبْتَدَأُ الطَّلُوعُ

ولما كانت المحبة والهداية إلى أسبابها مقرنتين بالبلاء ذكره الحق تعالى بإثر الهداية.

@ { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَسًّا يَقُولَ الرُّسُولُ وَالَّذِينَ أَمْنُوا مَعَهُ مَتَا نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ }

قلت: { أم } منقطعة بمعنى بل، وتتضمن استفهاماً إنكارياً، و " حسب " تتعدى إلى مفعولين، أي: أظننتم دخول الجنة حاصلًا من غير أن يأتيكم؟. و { لما } أصلها { لم } زيدت عليها " ما " وهي تدل على توقع منفيها بخلاف لم. و { حتى يقول } يصح فيه النصب { أن }؛ لأن الزلزلة متقدمة على قول الرسول، والرفع على حكاية الحال، أي: وزلزلوا حتى حالتهم حينئذ أن الرسول ومن معه يقولون كذا وكذا. وفائدة الحكاية: فرض ما كان واقعاً في الزمان الماضي واقعاً في هذا الزمان، تصوّراً لتلك الحال العجيبة، واستحضاراً لصورتها في مشاهدة السامع، وإنما وجب رفعه عند إرادة الحال؛ لأنه نصبه يؤدي إلى تقدير { أن }، وهي للاستقبال، والحال يُنافيه، ويصح في موضع " حتى " الداخلة على الحال الفاء السببية.

يقول الحقّ جل جلاله للرسول - عليه الصلاة والسلام - والمؤمنين، تسليّة لهم وتشجيعاً لقلوبهم: أظننتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يُصَبِّكُم مِثْلُ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَمَمِهِمْ، فقد { مسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ } في أموالهم بالغصب والنهب والموت { والضراء } وفي أبدانهم بالثقل في الحرب والمرض وأنواع البلاء، { وزلزلوا } أي: ضُربوا بالمحن والشدائد، وطال عليهم البلاء، وتأخر عنهم النصر، حتى أفضى بهم الحال إلى أن قالوا: { متى } يأتينا { نصر الله }؟ استبطاءً لمجيئه مع شدة البلاء.

قال الحقّ جلّ جلاله بشارَةً لهم: { أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } فلا تستعجلوا،
{ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }
[الأنفال: 46]،
{ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }
[الأعراف: 128].

الإشارة: الجنة حفت بالمكاره، ولا فرق بين جنة الزخارف وجنة المعارف، فمن رام دخول جنة المعارف قبل أن يمسه شيء من المكاره، فقد رام المحال. قال أبو المواهب: من ادعى شهود الجمال، قبل تأديه بالجلال، فرفضه فإنه دجال. وقال بعض العارفين: [صيحة العدو سوط الله يزر به قلوب أوليائه لئلا تسكن إلى غيره]. وفي الحكم: "إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا تكون ساكناً إلى شيء". وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: "اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا". فتسليط الخلق على أولياء الله في بدايتهم سنة ماضية، وحكمة إلهية،
{ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا }
[الأحراب: 62].

حتى إذا تخلصوا من البقايا، وكملت فيهم المزايا، نشر فضيلهم لعباده، فأقروهم ليعرفوهم الطريق إلى الله، ويدلوا العباد على الله، بعد أن كساهم حينئذ كسوة الجمال وكسوة الجلال، فبكسوة الجمال يقع الائتلاف عليهم والعطف لهم، وبكسوة الجلال يقع الامتثال لأمرهم والاستماع لقولهم. والله تعالى أعلم.

ولما أمر الحق تعالى بالنفقة في الجهاد وغيره، سألوا ما الذي ينفقون؟، فبيّن الله تعالى لهم المنفق والمحل الذي تُدفع فيه.

@ { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَا وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }
{ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَا وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }

قلت: { ماذا } إما مفعول { ينفقون }، أو مبتدأ وخبر بحذف العائد، أي: ما الذي ينفقونه، والسائل هو عمرو بن الجموح، كان ذا مال فقال: يا رسول الله، ماذا تنفق من أموالنا، وأين نضعها؟ فنزلت الآية.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يسألونك } يا محمد { ماذا ينفقون } من أموالهم؟ { قل } لهم: { ما أنفقتم من خير } أيّ خير كان، ذهباً أو فضة أو طعاماً أو ثياباً أو حيواناً أو غير ذلك، فادفعوه للأهمّ فالأهمّ؛ كالوالدين والأقربين؛ لأنّ فيهم الصلة والصدقة، { واليتامى } الذين مات أبائهم؛ لهضم حالهم، { والمساكين }؛ لضعفهم، { وابن السبيل }؛ لغربته واحتياجه إلى ما يبلغه إلى وطنه، { وما تفعلوا من خير } يجازيكم به الله، فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم، وهذه النفقة غير الزكاة، فلا نسخ في الآية. الله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنفاق على قسمين: حسبي ومعنوي، والإنفاق الحسبي هو بذل الأموال والفلوس، والإنفاق المعنوي هو بذل الأرواح والنفوس، فمن بذل أمواله لله عوضه الله جنة الزخارف، ومن بذل نفسه لله عوضه الله جنة المعارف، ومن

دخل جنة المعارف لا يشتاقي إلى جنة الزخارف، وكما أن لنفقة الأموال محلاً تُصرف به، كما ذكره الحقُّ تعالى هنا، كذلك لنفقة النفوس محل تصرف فيه؛ وهو خدمة الشيوخ العارفين بالله، والإخوان الذين يستعين بهم على الوصول إلى الله، وكذلك من احتاج إليه من اليتامى الذين لا شيخ لهم، فيرشدهم وينصحهم، والمساكين الضعفاء الذي لا قدرة لهم على مجاهدة نفوسهم، فيقوهم بحاله أو مقاله، والغريب الذي انفرد عن الإخوان، ولم يجد ما يستعين به على سيره فيرشده إلى الصحة والاجتماع بأهل المحبة، وإلى هذا المنزاع أشار الشيخ أبو مدين ري الله عنه:

وَبِالْتَعَنِّي عَلَى الْإِخْوَانِ جُدُّ أَبَدًا جَسًّا وَمَعْنَى، وَعُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَتَّرَا
ولمَّا ذَكَرَ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصُّومُ وَالْحَجُّ،
بعد أن أشار إلى كلمة التوحيد بقوله:
{ وَالْهَكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ }

[التَّفْرَةِ: 163]، ذَكَرَ الْجِهَادَ - الَّذِي هُوَ حِفْظُ نِظَامِهِ -
@ { كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

قلت: الكره - بالضم - : اسم لما يَشُقُّ على النفس، وبالفتح المَصْدَر.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْجِهَادُ، وَهُوَ شَاقٌّ عَلَيْكُمُ، تَكْرَهُهُ نَفُوسُكُمْ،
وفيه خير كبير لكم، { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ }، ففي الجهاد
نصر دينكم، وإعلاء كلمة إسلامكم، والغنيمة والظفرُ يعدوكم، والأجر الكبير عند
ربكم، من مات كان شهيداً، ومن عاش عاش سعيداً، وكذلك بقية التكليف،
فإن النفس تكره الإقدام عليها، وهي مَنَاطُ صلاحها، وسبب فلاحها، { وَعَسَى
أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ } فقد تحبون الراحة وترك الجهاد وفي ذلك
دُكْمٌ، وظهورُ العدو عليكم، وفوات الأجر من ربكم، وحرمان درجة الشهادة عند
ربكم. وكذلك جميع المنهيات؛ فإن النفس تحبها بالطبع، وتَشْرَهُ إليها، وهي
تُفْضِي بها إلى ذلها وهوانها، وعَبَّرَ الحقُّ سبحانه بعسى؛ لأن النفس إذا ارتاضت
انعكس الأمر عليها، فيخف عليها أمر الطاعة، ويصعب عليها أمر المخالفة،
{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ } ما فيه مصلحتكم، { وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }؛ لجهلكم بعواقب
أموالكم.

الإشارة: الجهاد على قسمين: جهاد أصغر وهو جهاد السيف، وجهاد أكبر وهو
جهاد النفس، فيجاهدها أولاً في القيام بجميع المأمورات، وترك جميع المنهيات،
ثم يجاهدها ثانياً في ترك العوائد والشهوات، ومجانبة الرخص والتأويلات، ثم
يجاهدها ثالثاً في ترك التدبير والاختيار، والسكون تحت مجاري الأقدار، حتى لا
تختار إلا ما اختار الحق تعالى لها، ولا تشتهي إلا ما يقضي الله عليها، فإن
النفس جاهلة بالعواقب، فعسى أن تكره شيئاً وهو خير لها، وعسى أن تحب
شيئاً وهو شر لها.

فعسى أن تأتيها المسار من حيث تعتقد المضار، وعسى أن تأتيها المضار من
حيث ترجو المسار، وعسى أن تنفع على أيدي الأعداء، وعسى أن تضر على
أيدي الأحياء، وعسى أن تكره الموت وهو خير لها، وعسى أن تحب الحياة
وهي شر لها، فالواجب تسليم الأمور إلى خالقها، الذي هو عالم بمصالحها،

{ والله يعلم وأنتم لا تعلمون } ، وهذا كله قبل تصفيتها وكمالها، وأما إذا تهذبت وكملت رياضتها، فالواجب اتباع ما يتجلى فيها، إذ لا يتجلى فيها إلا الحق، وهذا هو ثمرة الجهاد الأكبر، وأما الجهاد الأصغر فلا يحصل شيء من هذا، فلذلك كان مفضولاً عند الجهاد الأكبر، وبالله التوفيق.

ولما كان القتال محرماً في الأشهر الحرم في أول الإسلام، ووقع من بعض الصحابة، فندموا وتخرجوا، أزال الله ذلك الحرج عنهم.

@ { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ تَبْرُدُوهُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } * { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ }

قلت: { قتال } بدل اشتمال من { الشهر الحرام } ، وقد وقع خبط في عطف { المسجد الحرام } ، والصواب: ما قاله الزمخشري وابن عطية أنه عطف على { السبيل }؛ إذ هو المتبادر من جهة المعنى أي: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام أكبر جرماً من قتل السرية في الشهر الحرام، والقواعد النحوية إنما هي أغلبية.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يسألونك } يا محمد { عن الشهر الحرام } أي: عن القتال في الأشهر الحرم، { قل } لهم: القتال في الشهر الحرام أمره { كبير } ، لكن ما وقع من الكفار من صد الناس { عن سبيل الله } أي: منعهم من الإسلام والطاعة، وكذلك كفرهم بالله وصدهم المسلمين عن { المسجد الحرام } عام الحديبية، وإخراج المسلمين من مكة التي هي بلدهم - { والفتنة } التي هم فيها من الكفر، وافتتان الناس عن دينهم - { أكبر } جرماً من القتال الذي وقع في الشهر الحرام تأويلاً وظناً أنه لم يدخل الشهر الحرام.

وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث سريةً وأمّر عليها عبد الله بن جحش في آخر جمادى الآخرة، قَلُّوا عمرو بن الحضرمي، مع أناس من قريش، بعد غروب الشمس من جمادى الآخرة، فرموا عمراً فقتلوه، وأخذوا الغنيمة، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: " لم أمركم أن تقتلوا في الشهر الحرام " فندموا، وبعث قريش بالعتاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم: كيف تستحل القتال في الشهر الحرام؟ فنزلت هذه الآية. ثم نسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم بقوله تعالى:

{ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً }
[التوبة: 36].

ثم قال الحقّ جلّ جلاله في التحذير من الكفار: { ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا } ، لكن لا يطبقون ذلك، { ومن يرتدد منكم عن دينه } ويستمر عليه حتى يموت { وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في

الدنيا { فلا حرمة له، ولا نصيب له في الفياء والغنيمه، وفي { الآخرة } فلا يرى لها ثواباً، { وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون }.

ومفهوم الآية: أنه إن رجع قبل الموت لا يحبط عمله، وهو قول الشافعي. وقال مالك: يحبط أجر كل ما عمل، ويعيد الحج، إن تقدم على الردة، ويقبل منه الإسلام إن رجع، فإن لم يرجع أمهل ثلاثة أيام، ثم يقتل.

ولما نزلت الآية في إسقاط الحرج، ظنوا أنه لا أجر لهم في ذلك الجهاد، فأنزل الحق جل جلاله: { إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله { أي ثوابه، { والله غفور { لهم { رحيم { بهم، فلا يضيع جهادهم في هذه السريته، وأعاد الموصول لتعظيم شأن الهجرة والجهاد، وعبر بالرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب للثواب، وإنما هو عبودية، والأمر بيد الله؛ إن شاء أثناب وإن شاء عاقب،
@ لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ {
[الأنبياء: 23].

الإشارة: تعظيم الزمان والمكان يكون بقدر ما يقع فيه من طاعة الملك الديان، فالزمان الذي تهب فيه نفحات القبول والإقبال، لا ينبغي أن يقع فيه ملاحظة ولا قتال، وهو وقت حضرة الذكر، أو التذكير، أو الجلوس مع العارفين أهل الإكسير، فسوء الأدب فيه أمره كبير، ومنع القاصدين من وصوله جرمه كبير، وصد القلوب عن نفحات تلك الحضرة أكبر من كل كبير، ولا يزال قطاع هذه الطريق يردون من أراد سلوكها على التحقيق، لكن من سبق له التأيد لا يرد عن الحق جبار ولا عنيد، ومن سبق له الحرمان، وحكم عليه القضاء بالخذلان، رجع ولو بعد العيان، وأنشدوا:

والله ما تَشْكُرُ خَلِيْعٌ وَإِنْ تَمَلُّ وَإِنْ صَحَا
وَإِنْ تَبَتْ سَيْرٌ سَرِيْعٌ وَإِنْ شَرِبَ حَتَّى امْتَحَا
حَتَّى يُقَطِّعَ فِي الْقَطِيْعِ وَيَدُوْرُ دَوْرَ الرَّحَا
إن الذين آمنوا وصدقوا بطريق الله، وهاجروا أهواءهم في مرضاة الله، وجاهدوا نفوسهم في محبة الله، أولئك يرجون رحمة الله، فلا يُخيِّبهم الكريم؛ لأنه غفور رحيم.

ولما كان الخمر حلالاً في أول الإسلام، وكانوا يشربونه، ويتجرؤون فيه، فيتصدقون بثمنه وبثمن القما، بين الحق تعالى ذلك، بعد الأمر بالإنفاق؛ لئلا يقع التساهل في المعاملة بعله الصدقة.

@ { يَسْأَلُوْكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيْرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُوْكَ مَاذَا يُنْفِقُوْنَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُوْنَ } * { فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُوْكَ عَنِ الْيَتَامَا قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ
خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَآخِذُوْكُمْ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ
لَأَعْتَبَكُمْ إِنَّ اللّٰهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ {

{ يَسْأَلُوْكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيْرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ
مِنْ نَّفْعِهِمَا... }

قلت: الخمر في اللغة: ما يستر الشيء ويغطيه، ومنه: خمار المرأة، وسُمِّي الخمر خمرًا لستره العقل. وفي الاصطلاح: ما عَيَّبَ العقل دون الحواس مع التَّيُّوَةِ والطَّرَبِ. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " كُلُّ مُسْكِرٍ حَمْرٌ وَكُلُّ حَمْرٍ حَرَامٌ ".

والميسر: قال ابن عباس والحسن: كل قمار ميسر، من شطرنج ونرد ونحوه، حتى لَعِبَ الصبيان بِالْحَوْزِ وَالْكَعَابِ، إِذَا كَانَ بِالْقُلُوسِ، وَاسْمِي مَيْسِرًا لِئُسْرِ صاحبه بالمال الذي يأخذه، وأما إِذَا كَانَ بِغَيْرِ عَوْضٍ، إِنَّمَا هُوَ لَعِبٌ فَقَطْ، فَلَا بِأَس. قاله ابن عرفة.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { يسألونك عن { الخمر والميسر قل { لهم: { فيهما إثم كبير { أي: عظيم لما في المسير من أكل أموال الناس بالباطل، وما ينشأ عنه من العداوة والشحناء، وما في الخمر من إذهاب العقل والسيب والافتراء والإذابة، والتعدّي الذي يكون من شاربها. وقرأ حمزة والكسائي: { كثير { بالمثلثة، أي: أثم كثيرة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: " لَعَنَ اللَّهُ الْحَمْرَ، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَالْمُشْتَرَاةَ لَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَالْمَعْصُورَةَ لَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ لَهَا، وَأَكَلَ تَمِينَهَا " فهذه أثم، وفيها { منافع للناس { أي: منافع دنيوية؛ ككسب المال بلا تعب، وإطعام الفقراء من كسبه، كما كانت تصنع العرب في الميسر، وفي الخمر اللذة والنشوة، كما قال حسان رضي الله عنه:

وَتَشْرِبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا وَأَسَدًا لَا يُنْهِنُنَا لِلْقَاءِ
{ وإثمها أكثر من نفعها {؛ لأن منفعتهما دنيوية، وعقوبة إثمها أخروية، وهذه الآية نزلت قبل التجريم. رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ بِمَكَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى:
{ وَمِنْ تَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا {
[التحل: 67]، أخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمر ومعاذًا في نفر من الصحابة، قالوا: أفئنا يا رسول الله في الخمر؛ فإنها مذهبة للعقل، فنزلت هذه الآية، فشربها قوم وتركها آخرون، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسًا إلى داره، فيشربوا وسكروا، ثم قام يصلي بهم فقرأ:

{ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ {
[الكافرون: 1، 2]؛ من غير نفي، فنزلت:
{ ... لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ... {
[النساء: 43] فاجتنبوها في أوقات الصلاة. ثم دعا عتياب بن مالك سعد بن أبي وقاص في جماعة، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعد شعرًا فيه هجاء الأنصار، فضربه أنصاري بلحى يعير فشجّه، فشكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت
{ إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ... {

إلى قوله:
{ ... فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ {
[المائدة: 90، 91] فقال عمر: انتهينا يا رب هـ.

ولما شربها بعض الناس بعد التحريم، كان - عليه الصلاة والسلام - يضرب فيها بالنعال والجريد، ضرباً غير محدود، وضرب أبو بكر وعمر أربعين، وأول من حد فيها ثمانين سيدنا عثمان، لما تهافت الناس فيها.
@والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى جعل للعقل نوراً يُميز بين الحق والباطل، بين الضار والنافع، وبين الصانع والمصنوع، ثم إن هذا النور قد يتغطى بالظلمة الطينية؛ وهي نشوة الخمر الحسية. وقد يتغطى أيضاً بالأنوار الباهرة من الحضرة الأزلية إذا فاجأته، فيغيب عن الإحساس في مشاهدة الأنوار المعنوية، وهي أسرار الذات الأزلية، فلا يرى إلا أسرار المعاني القديمة، وينكر الحوادث الحسية، فسمي الصوفية هذه الغيبة خمرة؛ لمشاركتها للخمر في غيوبة العقل، وتغنوا بها في أشعارهم ومواجيدهم، قال الفارض رضي الله عنه:

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكَرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ
ثم قال:

على نفسه قَلْبِيكَ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ وليسَ لَهُ مِنْهَا تَصِيبٌ وَلَا سَهْمٌ
وقلت في عيني:

وَلِي لَوْعَةٌ بِالرَّاحِ إِذْ فِيهِ رَاجَتِي وَرَوْحِي وَرَبِّحَانِي، وَخَيْرٌ وَاسِعٌ
سَكَرْنَا فَهَمَّتَا فِي بَهَاءِ جَمَالِهِ فَغَبْنَا عَنِ الْإِحْسَاسِ، وَالتُّورُ سَاطِعٌ
والميسر في طريق الإشارة: هو الغني الذي يحصل بهذه الخمرة، وهو الغني بالله عن كل ما سواه (قل فيهما إثم كبير) أي: في تعاطيهما حرج كبير، ومنافع للناس بعد تعاطيهما، فيهما إثم كبير عند طالب الأجور، ومنافع للناس لمن طلب الحضور ورفع الستور. وأنشدوا:

لَوْ كَانَ لِي مُسْعِدٌ يُسْعِدُنِي لَمَا انتظرتُ لشربِ الرَّاحِ إِفْطَارَا
فَالرَّاحُ شَيْءٌ شَرِيفٌ أَنْتَ شَارِبُهُ، فَاشْرَبْ، وَلَوْ حَمَلْتِكَ الرَّاحُ أَوْزَارَا
يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى صَهْبَاءٍ صَافِيَةٍ خُذِ الْجِتَانَ، وَدَعْنِي أَسْكُنُ التَّارَا
وقال ابن الفارض:

وقالوا: شَرِبْتَ الْإِثْمَ! كَلَّا، وَإِنَّمَا شَرِبْتُ الَّتِي فِي تَرْكِهَا عِنْدِي الْإِثْمُ
وقال آخر:

طَابَ شُرْبُ الْمُدَامِ فِي الْخَلَوَاتِ اسْقِنِي يَا نَدِيمَ الْآيَاتِ
خُمْرَهُ تَرْكُهَا عَلَيْنَا حَرَامٌ، لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا سُبُهَاتٌ
عُتِّقْتُ فِي الدَّانِ مِنْ قَبْلِ آدَمَ أَصْلَهَا طَيِّبٌ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
أَفْتِ لِي أَيُّهَا الْفَقِيهُ وَقُلْ لِي: هَلْ يَجُوزُ شُرْبُهَا عَلَى عَرَافَاتٍ؟
فيهما إثم كبير عند أهل الحجاب، ونفع كبير عند ذوي الألباب، يعني: في الخمرة الأزلية والغنى بالله، وقوله تعالى: { وإثمهما أكبر من نفعهما }؛ خطاب على قدر ما يفهم الناس، لأن إثمهما ظاهر للعوام، وهو ما يظهر على النشوان من خراب الظاهر، وصدور الأحوال الغريبة، ونفعهما خاص عند خواص الخواص، لا يفهمه إلا الخواص، بل يجب كتمه عن غير أهله، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم وقع سؤال ثالث عن قدر المنفق، فأشار إليه الحقّ جلّ جلاله بقوله:

{..وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ... }

قلت: { العفو } ضد الجهد، وهو السهل، ويقال للأرض السهلة: عفو، والمراد: أن يُنفق ما تيسر بذله، ولا يبلغ به الجهد، وهو خبر، أو مفعول، أي: هو العفو، أو ينفقون العفو.
@ يقول الحقّ جلّ جلاله: { ويسألونك } ما القدر الذي ينفقونه؟ { قل } لهم: هو { العفو } أي: السهل الذي لا مشقة في إعطائه، ولا ضرر على المعطي في فقده، رُوي أن رجلاً أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقدر بيضة من الذهب، فقال: خُذها عني صدقة، فأعرض عنه، حتى كثر مراراً، فقال: هاتها، مُعَصَبًا، فحذفها حذفاً لو أصابه لشجّه، فقال: " يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به، ويجلس يتكفّف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى " قاله البيضاوي مختصراً.

قلت: وهذا يختلف باختلاف اليقين؛ فقد تصدّق الصديق رضي الله عنه بماله كله، وعمر رضي الله عنه بنصف ماله، فأقرهما وردّ فعل غيرهما، فدل ذلك على أن العفو يختلف باختلاف الأشخاص، على حسب اليقين.

{ كذلك بين الله لكم الآيات } أي: مثل هذا التبيين الذي ذكرنا، { يُبين } لكم الآيات، حتى لا يترك إشكالاً ولا وهماً، { لعلكم تتفكرون } بعقولكم، وتأخذون بما يعود نفعه عليكم، فتتفكرون { في الدنيا } وسرعة ذهابها وتقلبها بأهلها، إذا أقبلت كانت فتنة، وإذا أدبرت كانت حسرة، لا يفي طالبها بمقصوده منها ولو ملكها بحذافيرها، ضيقة الزمان والمكان، عمارتها إلى الخراب، وشأنها إلى انقلاب، سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، فتزهدون فيها وترفعون همتكم عنها.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " مَالِي وَلِلدُنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَجُلٍ سَاقَرَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَطَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا " وفي صحف إبراهيم عليه السلام: " عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب - أي: يتعب - عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ". وأنشدوا:

ألا إنّما الدنيا كأخلام تائم وكُلُّ نعيم ليسَ فيها يدائم
تذكّر إذا ما نلت بالأمس لذة فأفئتها هل أنت إلا كخالم
وتتفكرون في { الآخرة } ودوام نعيمها، وسعة فضائها، وبهجة منظرها؛ فترغبون في الوصول إليه، وتناهبون للقائها، فتؤثرونها على هذه الدار الفانية. قال بعض الحكماء: لو كانت الدنيا من ذهب يفتنى، والآخرة من طين يبقى، لكان ينبغي للعاقل أن يختار ما يبقى على ما يفتنى، لا سيما والأمر بالعكس، الدنيا من طين يفتنى، والآخرة من ذهب يبقى، فلا يختار هذه الدار إلا أحقّ خسيس الهمة، وبالله التوفيق.

الإشارة: كما نهى الحقّ جلّ جلاله عن السرف في الأموال، نهى عن السرف في الأحوال، فالسرف، من حيث هو، يؤدي إلى الملل والانقطاع، " أحبّ العمل

إلى الله ما دَامَ عليه صاحِبُه، وَإِنْ قَلَّ " كما في الحديث، " والله ما رأينا أحداً أسرف في الأحوال إلا مَلَّ، وضعف حاله " ، وفي الحديث: " لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ كَالْمُتَبَتِّ " @- أي: المنقطع - " لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى " وقال في المباحث:

فاحتل على النفس قَرَبَ جِيلِه أَنْفَعُ فِي التُّصْرَةِ مِنْ قَبِيلِه فلا يزال يُسايِسُ نفسه شيئاً فشيئاً حتى يملكها، ويظفر بها، فإذا ظفر بها كانت له شبكة يصطاد بها العلوم والمعارف، فتتفكر في الدنيا فتراها فانية فترجل عنها، ثم تتفكر في الآخرة فتراها باقية، فإذا رامت السُّكْتَى فيها رأتهَا كَوْنًا مخلوقاً فرحلت إلى خالقها، فكشف الحقُّ عنها الحجاب، وأدخلها مع الأحباب، وأدخلها مع الأحباب، فغابت عن الكونين في شهود المكون، فلم يبق لها دنيا ولا آخرة، بل هي الآن في بهجة ونصرة { إلى ربها ناظرة } ، حققنا الله بهذا المقام العلي. أمين.

ثم سألوا أيضاً عن مخالطة اليتامى، فأجابهم الحقُّ تعالى بقوله:

{ ... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

قلت: العنت: التعب والمشقة، أعتنكم: أتعبكم.

يقول الحقُّ جلّ جلاله: { ويسألونك عن { مخالطة { اليتامى } أي: خلط مال اليتامى بمال الوصي، أو القائم به، فيأكلون جميعاً، { قل { لهم: يفعلون ما هو { إصلاح { لليتيم وأحفظ لماله، فإن كان خلط مال اليتيم مع مال الوصي أحفظ لماله، وأوفر، فهو خير، وإنما هم إخوانكم في الدين، وإن كان عزل ما لهم عن مالكم، وأكله وحده، أوفر لماله، فاعتزالهم خير، { والله يعلم { من قصده الإفساد، ممن قصده الإصلاح، فيعامل كل واحد بقصده، { ولو شاء الله { لأمركم بعزلهم وحفظ مالهم مطلقاً، فيخرجكم، ويشق عليكم، { إن الله عزيز { غالب، لا يعجزه شيء، { حكيم { لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ومصلحة.

ولما نزل قوله تعالى:

{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا... }

[النساء: 10] الآية، تحرَّج الصحابة من مخالطة اليتامى، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية.

الإشارة: كل من لا شيخ له في طريق القوم فهو يتيم، لا أب له، فإن ادعى شيئاً من الخصوصية سُمي عندهم لقيطاً أو دعياً، أي: منسوباً إلى غير أبيه، وما زالت الأشياخ تُحدَّر من مخالطة العوام، ومن مخالطة المتفكرة الجاهلة، أعني: الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية، حتى قالوا: مخالطتهم سُم قاتل. وقال بعضهم: يجتنب المرید مخالطة ثلاثة أصناف من الناس: المتفكرة الجاهلين، والقراء المداهنين، والجابرة المتكبرين.

قلت: وكذلك الفروعية المتجمدين على ظاهر الشريعة، فصحتهم أقبح من الجميع، ومن ابتلى بمخالطة العوام فلينصحه، ويرشدهم إلى مصالح دينهم،

إنما هم إخوان في الدين، والله يعلم المفسد من المصلح، فمن خالطهم طمعاً في مالهم أو جاههم، أفسده الله، ومن خالطهم نُصحاً وإرشاداً أصلحه الله، ولو شاء الله لأمر الفقراء باعتزالهم بالكلية، وفي ذلك حرج ومشقة، ومن حكمته تعالى أن جعلهم حجاباً لأهل الحجاب، ومدخلاً لذوي الألباب، حجاباً للضعفاء، ومدخلاً ومشهداً للأقوياء. والله تعالى أعلم.

ولمّا فرغ الحقّ جلّ جلاله من ذكر بعض أمر الجهاد وما يتعلق به، شرّع يتكلم على النكاح.

@ { وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةً مُّؤْمِنَةً حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أَعَجَبْتُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا أَعْجَبَكُمْ أَوْلَائِكُمْ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ }

قلت: بدأ الحقّ جلّ جلاله بذكر محل النكاح، وسيأتي في سورة النساء تمامه في قوله:

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ... }
[النساء: 23] الآية.

يقول الحقّ جلّ جلاله: ولا تتزوجوا النساء { المشركات حتى يؤمن } ، ونكاحهن حرام، بخلاف الكتابيات، كما في سورة المائدة. ونكاح أمة سوداء { مؤمنة خير من { نكاح { مشركة ولو أعجبتكم } حسناً وحسباً ومالاً، أو: ولا امرأة مؤمنة أمة كانت أو حرة خير من مشركة؛ إذ النساء كلهم إماء الله.

رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام - بعث مَرْتِدًا الْعَتَوِي إِلَى مَكَّة لِيُخْرِجَ مِنْهَا نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقُ، وَكَانَ يَهْوَاهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فقالت: ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام حال بيننا، فقالت: هل لك أن تتزوج بي؟ فقال: نعم، ولكن أستشير رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشاره، فنزلت الآية. البيضاوي.

ولا تُزوجوا { المشركين } وليتكم، وهو حرام مطلقاً؛ إذ الرجال قوامون على النساء، ولا تسلط للكافر على المسلمة، فلا تُنكحوهم { حتى يؤمنوا } ، { ولعبد } أسود مملوك { مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم } حسباً ومالاً؛ إذ لا حسب مع الكفر، وإنما حرّم نكاح أهل الكفر؛ لأنهم { يدعو إلى { الكفر، وهو سبب { النار } ، والصحة توجب عقد المحبة، والطباع تُسرق، فلا يؤمن جانب الكفر أن يغلب على الإيمان، { والله { تعالى إنما { يدعو إلى { سبب { المغفرة } والتطهير من لوث الكفر والمعاصي { بإذنه { وقدرته، فلا يأمر إلا بما يقوى عقد الإيمان واليقين، ويُنهض إلى الطاعات، وهو صحة أهل الإيمان واليقين، { ويبين آياته { الدالة على جمع عباده إليه { لعلهم يتذكرون } فيها، ويتعظون بتذكيرها ووعظها.

الإشارة: لا ينبغي للفقير أن يعقد مع نفسه عقد الصحة والمودة، أو ينظر إليها بعين الشفقة والرحمة، ما دامت مشركة بشهود السوى، أو مائلة بطبعها إلى الهوى، ولأن تكون عندك نفس مؤمنة بعلم التوید، خير من نفس مشركة برؤية الغير، ولو أعجبتك في الطاعة، وظهور الاستقامة، فقد تُظهر الطاعة والخدمة،

وُبطن مالها فيها من الحظوظ والتمتع، فليتهمها ما دامت مشركة، فإذا آمنت ووحدت الله تعالى، فلم تر معه سواه، فلا بأس بعقد النكاح معها، فإنها لا تأمره إلا بما يقوي شهودها وتوجيهها. وكذلك لا ينبغي أن يعقد نكاح نفسه، ويدفعها لمن يشهد السوى، شيخاً أو أختاً، ولو أعجبت طاعته واجتهاده، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه، خير من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، أولئك أهل النفوس - يدعون إلى نار الشهوات والحظوظ العاجلة أو الآجلة، والله يدعو إلى التطهير من شهود الأغيار، والدخول في حضرة الأسرار، وهذا لا يكون إلا للعارفين الأبرار؛ الذين تطهروا من الأكدار، وتخلصوا من شهود الأغيار، كذلك يبين الله آياته الناس - الدالة على وحدانيته - لعلمهم يتعظون فينزعون عن متابعة الهوى، أو رؤية وجود السوى. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما بين الحق تعالى ما يحرم في النكاح أصالةً، بين ما يحرم فيه عُروضاً.

@ { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ مَادَى قَاعَتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } * { نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَا شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ }

قلت: المحيض: مصدر، كالمقيل والمعيش والمجيء، وهو الحيض.

يقول الحق جل جلاله: { ويسألونك } يا محمد { عن } قرب النساء بالجماع في زمن { المحيض قل } لهم: { هو أذى }، أي: مُضِرٌّ، أو مُتِنٌ مستقذر، لا يرضى ذو همة أن يقربه، { فاعتزلوا } جماعة { النساء في } زمن { المحيض ولا تقربوهن } بالجماع في المحل { حتى يطهرن } من الدم، بانقطاعه، وبغتسلن بالماء، { فإذا تطهرن } بالماء { فأتوهن من حيث أمركم الله } وهو الفرج، الذي أمركم باجتنابه في الحيض؛ إذ هو محل زراعة النطفة. فمن غلبته نفسه حتى وطئ في الحيض، أو النفاس، فليبادر إلى التوبة، { إن الله يحب التوابين } كلما أذنبوا تابوا.

ولا تجب كفارة على الواطئ، على المشهور. وقال ابن عباس والأوزاعي: (من وطئ قبل الغسل تصدق بنصف دينار، ومن وطئ في حال سيلان الدم تصدق بدينار). رواه أبو داود حديثاً. ومن صبر وتتره عن ذلك فإن الله { يحب المتطهرين } من الذنوب والعيوب كلها، وإنما أعاد العامل؛ لأن محبته للمتزهين أكثر.

قال البيضاوي: روي أن أهل الجاهلية كانوا لا يُسَآكِنُونَ الحائض؛ ولا يُؤَاكِلُونَهَا، كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدخداح، في نفر من الصحابة، عن ذلك، فنزلت. ولعله سبحانه - إنما ذكر "إنما يسألونك" من غير واو، ثلاثاً، ثم بها ثلاثاً؛ لأن السؤالات الأولى كانت في أوقات متفرقة، والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد؛ فلذلك ذكرها بحرف الجمع. هـ.

ثم بين الحق تعالى كيفية إتيان النساء بعد الطهر، فقال: { نساؤكم حرث لكم }، أي: مواضع حرثكم، شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام

أرض لها، { فأتوا حرثكم { أي: محل حرثكم، وهو الفرج، { أنى شئتم { أي: من أي جهة شئتم.

رُوي أن اليهود كانوا يقولون: مَنْ جامع امرأته مِنْ خَلْفِهَا فِي قُبُلِهَا جَاءَ الْوَلَدَ أَحْوَلَ، فَذَكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ. وقيل: إِنَّ قُرَيْشًا كَانُوا يَأْتُونَ النِّسَاءَ مِنْ قُدَّامٍ، مُسْتَلْقِيَةً، وَالْأَنْصَارُ كَانُوا يَأْتَوْنَهَا مِنْ خَلْفٍ، بَارِكَةً، فَتَزُوجُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، فَارَادَ أَنْ يَفْعَلَ عَادَتَهُ، فَامْتَنَعَتْ، وَأَرَادَتْ عَادَتَهَا، فَاخْتَصَمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَزَلَتْ آيَةٌ بِالْخِيَارِ لِلرَّجُلِ، مَعَ الْإِثْيَانِ فِي الْمَحَلِّ، وَأَمَّا الْإِثْيَانُ فِي الدَّبْرِ فَحَرَامٌ، مَلْعُونٌ فَاعِلُهُ، وَقَالَ فِي الْقَوْتِ: { فأتوا حرثكم أنى شئتم { أي: في أي وقت شئتم، ومن أي مكان شئتم، مع اتحاد المحل. هـ.

ثم حذر الحق تعالى من متابعة شهوة النساء، والغفلة عن الله، فقال: { وقداموا لأنفسكم { ما تجدون ثوابه مُدخراً عنده، وهو ذكر الله في مظان الغفلة، قيل: التسمية قبل الوطاء وقيل: طلب الولد، والتحقيق: أنه الحضور مع الحق عند هيجان الشهوة، قال بعض العارفين: إني لا أعيب عن الله ولو في حالة الجماع.
@ وهذا شأن أهل الجمع، لا يفترون عن الحضرة ساعة. وهذه التقوى التي أمر الله بها بقوله: { واتقوا الله { أي: لا تغيّبكم عنه شهوة النساء، { واعلموا أنكم ملاقوه { فترون وبال الغفلة وجزاء اليقظة، { وبشر المؤمنين { بالقرب من رب العالمين.

الإشارة: إذا سُئلت - أيها العارف - عن النفس في حال جنباتها بالغفلة، وحال تليّسها بنجاسة حب الدنيا، فقل: هي أذي، أي: قدر ونجس، من قُرب منها لطخته بنجاستها، فلا يحل القرب منه، أو الصحبة معها، حتى تطهر من جنبات الغفلة باليقظة، ومن نجاسة حب الدنيا بالزهد، ورفع الهمة عنها، فإذا تطهرت فاتها، وردّها إلى حضرة مولاها، كما أمرك الله، { إن الله يحب التوابين { ، وقد تابت ورجعت إلى مولاها، { ويحب المتطهرين { ، وقد تطهرت من جنبات الغفلة، وتنزهت عن نجاسة الدنيا برفع الهمة، فصارت لك أرضاً لزراعة حقوق العبودية، ومُتَبِّتاً لبذر شهود عظيمة الربوبية، فأتوا حرثكم - أيها العارفون - أنى شئتم، أي: ازرعوا في أرض نفوسكم من أوصاف العبودية ما شئتم، وفي أي وقت شئتم.

فبقدر ما تزرعون من العبودية تحصدون من الحرية. وبقدر ما تزرع فيها من الذل تحصده من العز، وبقدر ما تزرع فيها من الفقر تحصده من الغنى، وبقدر ما تزرع فيها من التواضع تحصده من الشرف والرفعة.

والحاصل: بقدر ما تزرع فيها من السفليات تحصد ضده من العلويات. قال تعالى: { وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْبُغُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ { [القصص: 5، 6]. فإذا تركتها هَملاً، أنبتت لك الشوك والحنظل، { وقداموا لأنفسكم { من أوصاف العبودية ما تجدونه أمامكم من مشاهدة الربوبية، واتقوا

الله فلا تشهدوا معه سواه، واعلموا أنكم ملاقوه حين تغيبون عن وجودكم وتفقدونه، وبشر المؤمنين الموقنين بشهود رب العالمين.

ولما تكلم الحقّ جلّ جلاله على بعض أحكام النكاح، أراد أن يتكلم على الإيلاء، وهو الحلف على عدم مس المرأة وجماعها، وقدم على ذلك النهي عن كثرة الحلف؛ لأنه هو السبب في الوقوع في الإيلاء
@ { وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } * { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ }
قل: العرضة: فُعلة، بمعنى مفعولة: أي: معرضاً منصوباً، لأيمانكم تحلفون به كثيراً، فيصير اسم الجلالة مبتدلاً بينكم. و { أن تبروا } مفعول من أجله.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولا تجعلوا لله } أي: اسم الجلالة، معرضاً { لأيمانكم }، فتبدلونه بكثرة الحلف، فتمتنعون من فعل الخير بسبب الحلف، كراهة { أن تبروا } أي: تفعلوا فعل البر، وهو الإحسان، وكراهة أن { تتقوا } أن تجعلوا بينكم وبين الله وقاية بفعل المعروف، وذلك أن يحلف الرجل ألا يصل رحمه، أو لا يسلم على فلان، أو لا يضمن أحداً، أو لا يبيع بدين، أو لا يسلف أحداً، أو لا يتصدق، فهذه الأمور كلها بر وتقوى، نهى الله تعالى عن الحلف على عدم فعلها، أو يحلف ألا يصلح بين الناس، فيجب على الحالف على ذلك أن يحنث، ويكفر عن يمينه. ولذلك قال - عليه الصلاة والسلام - : " إِيَّيْ لَأُحْلِفُ عَلَى يَمِينِ قَارِي خَيْرًا مِنْهَا، فَأَكْفُرُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتِي الَّذِي هُوَ خَيْرٌ " وقال لابن سمرّة: " إِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَاتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكْفَرُ عَنْ يَمِينِكَ " .

أو يقول الحقّ جلّ جلاله { ولا تجعلوا لله } معرضاً لأيمانكم، تحلفون به كثيراً، نهيتكم عن ذلك، إِرَادَةٌ أَنْ تَكُونُوا أَبْرَارًا مُتَّقِينَ، مُصْلِحِينَ { بين الناس }؛ فإن الحالف مجترئ على الله، والمجترئ لا يكون بَرًّا متقياً، ولا موثقاً به في إصلاح ذات البين، { والله سميع } لأيمانكم، { عليم } بنياتكم.

ثم رفع الحق تعالى الحرج عن يمين اللغو الذي لا قصد فيه - فقال: { لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم } ، وهو ما يجري على اللسان من غير قصد، كقول الرجل في مجرى كلامه: لا والله وبلى والله، قاله ابن عباس وعائشة - رضي الله عنهما -، وبه قال الشافعي.

وقال أبو هريرة والحسنُ وابنُ عباس - في أحد قوليه -: هو أن يحلف على ما يعتقد فيظهر خلافه. وبه قال مالك رضي الله عنه، والأول أَلْيَقُ بقوله تعالى: { ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم } أي: بما عقدت عليه قلوبكم، { والله غفور }؛ حيث لم يؤاخذكم باللغو، { حلیم }؛ حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجدِّ، تربصاً للتوبة.

الإشارة: يقول الحقّ جلّ جلاله: { لا تجعلوا لله عرضة لأيمانكم } ، لكن اجعلوه عرضة لتعظيم قلوبكم ومشاهدة أسراركم، فإني ما أظهرت اسمي لتبتذلوه في الأيمان والجدال، وإنما اسمي لتلقؤه بالتعظيم والإجلال، فمن عظم اسمي

فقد عظم ذاتي، ومن عظم ذاتي جعلته عظيماً في أرضي وعند أهل سمواتي، وجعلته برّاً تقيّاً، من أهل محبتي وودادي، وداعياً يدعو إلى معرفتي، ويصلح بيني وبين عبادي، فمن حلمي ورأفتي: أني لا أؤاخذ بما يجري على اللسان، وإنما أؤاخذ بما يقصده الجَنَان.

تنبيه: كثرة الحلف مذموم يدل على الخفة والطيش، وعدم الحلف بالكلية تعسف، وخير الأمور أوساؤها، كان عليهم الصلاة والسلام يحلف في بعض أحيانه، يقول: " لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ " " وَالَّذِي تَفَسُّنُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ " والله تعالى أعلم.

@ { لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ قَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } * { وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

قلت: { الإيلاء } : يمين زوج مكلف على عدم وطء زوجته، أكثر من أربعة أشهر. وآلى: بمعنى حلف، يتعدى بعلى، ولكن لما ضُمَّن هنا معنى البُعد من المرأة، عُذِّي بمن، و { تریص } : مبتدأ، و { للذين يؤلون } : خبر.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { للذين } يبعدون { من نسائهم } ويحلفون ألاَّ يجامعوهن أكثر من أربعة أشهر، غضباً وقصداً للإضرار، { تریص } أي: تمهل { أربعة أشهر } ، لا يُطالبُ فيهن بفيئة ولا حنث، { فإن فاءوا } أي: رجعوا حلفوا عليه، وحنثوا وكفروا أيماهم، { فإن الله غفور } لما قصدوا من الإضرار، بالفيئة التي هي كالتوبة، { رحيم } بهم؛ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، { وإن عزموا الطلاق } أي: صمموا عليه، ولم يرجعوا عما حلفوا عليه، { فإن الله سميع } لطلاقهم { عليهم } بقصدهم ونيتهم. ومذهب مالك الشافعي: أن القاضي يُوقفه: إما أن يرجع بالوطء إن قدر، أو بالوعد إن عجز، أو يُطلق عليه طلاقة رجعية، عند مالك. ومذهب أبي حنيفة: أنها تبين بمجرد مُضي أربعة أشهر، وأحكام الإيلاء مقررة في كتب الفقه.

الإشارة: لا ينبغي للعبد أن يصرف عمره كله في معاداة نفسه ومجانبتها، إذ المقصود هو الاستغال بمحبة الحبيب، لا الاشتغال بعداوة العدو، فلمجاهدة نفسه ومجانبتها حد معلوم ووقت مخصوص، وهو ما دامت جموحة جاهلة بالله. فإن فاءت ورجعت إلى الله، وارتاضت لحضرة الله، وجبت محبتها والاصطلاح معها؛ لأن النفس بها ربح مَنْ ربح، ومنها خسر من خسر، من عرف قدرها، واحتال عليها حتى ردها إلى ربها - ربح، ومن أهملها وجهل قدرها - خسر، وكان شيخ شيوخنا يقول: جزاها الله عنا خيراً؛ والله ما ربحتنا إلا منها، يعني نفسه. وفي بعض الآثار: (مَنْ عَرَفَ تَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ). وإن عزموا الطلاق، يعني: العباد والزهاد عزموا ألا يرجعوا إلى أنفسهم أبداً، فإن الله سميع عليم بقصدهم هل قصدهم طلب الحطوط أو محبة الحبيب، وأما العارفون فلا تبقى لهم معادة مع أحد قط، قد اصطلحوا مع الوجود بأسره، فمكثهم الله من التصرف في الوجود بأسره. والله ذو الفضل العظيم.

@ { وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتْهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي

ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {

{ وَالْمُطَلَّعَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ
اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي
ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا... }

قلت: القُرء هو الطهر الذي يكون بعد الحيض، عند مالك، وجمع القلة: أقرأء،
والكثرة: قروء، واستعمله هنا باعتبار كثرة المطلقات، و { ثلاثة } مفعول
مطلق، أو ظرف، و { بعولتهن } جمع بعل، والتاء لتأنيث الجماعة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { والمطلقات يتربصن } أي: يمكن عن التزوج،
{ بأنفسهن ثلاثة قروء } أي: أطهار، وتعدّ بالطهر الذي طلقها فيه، فتحيض، ثم
تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، فإذا رأت الحيضة الثالثة خرجت من العدة، هذا
في غير الحمل، واما الحمل فعدتها وضع حملها. { ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما
خلق الله في أرحامهن } من الولد؛ استعجالاً لإتمام العدة، أو من الحيض؛
استبقاءً لتمادي العدة، وتصدق في ذلك كله، فإن كانت { تؤمن بالله واليوم
الآخر } فلا يحلّ لها أن تكتم ما استؤمنت عليه، { وبعولتهن } أي: أزواجهن:
{ أحق بردهن في ذلك } التربص، إن كان الطلاق رجعيّاً، وإلا بانته منه،
وينبغي للزوج أن يراجعها في العدة، إن أراد بذلك الإصلاح والمودة، لا الإضرار
بها، وإلا حرم عليه ارتجاعها، إذ " لَا صَرَرَ وَلَا ضَرَارَ " ، كما قال - عليه الصلاة
والسلام - .

الإشارة: إذا طُلِّقَتِ النَّفْسُ، ووقع البعد منها حتى طهرت ثلاثة: الطهر الأول: من
الإضرار على الذنوب والمخالفات، الطهر الثاني: من العيوب والغفلات، الطهر
الثالث: من اليركون إلى العادات الوقوف مع المحسوسات، دون المعاني وأنوار
التجليات - حلت رجعتها والاصطلاح معها، ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما خلق الله
في أرحامهن: من العلوم والمعارف والأنوار، وذلك إذا استشرفت على حضرة
الأسرار، فإنها تفيض بالعلوم والحكم، أو ما لا يحصى، فينبغي أن تطلع عليها
من يقتدي بشأنها. وبعولتهن أحق بردهن، والصلح معهن، بعد تمام تطهيرهن، إن
أرادوا بذلك إصلاحاً، وهو إدخالها في الحضرة، ونعيمها بالشهود والنظرة. وبالله
التوفيق.

ثم ذكر الحقّ جلّ جلاله حقوق الزوجية، فقال:

{ ... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
{

يقول الحقّ جلّ جلاله: وللنساء حقوق على الرجال، كما أن للرجال حقوقاً على
النساء، فحقوق النساء على الرجال: الإنفاق، والكسوة، والإعفاف، وحسن
المعاشرة، وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: إني لأحبُّ أن أتزيّن
للمرأة كما تتزيّن لي، ويقرأ هذه الآية.

وحقوق الرجل على المرأة: إصلاح الطعام والفراش، وطاعة زوجها في كل ما
يأمرها به من المباح، وحفظ فرجها، وصابنة ماله الذي ائتمنت عليه - إلى غير

ذلك من الحقوق، فللنساء حقوق على الرجال { مثل الذي عليهن بالمعروف } من غير ضرر ولا ضرار.
@ولا تفريط ولا إفراط، { وللرجال عليهم درجة { أي: فضيلة؛ لأن الرجال قوامون على النساء، ولهم فضل في الميراث، والقسمة، وكثير من الحقوق، فضلهم الله على النساء: { والله عزيز { لا يعجزه عقاب من خالف أمره، لكنه يمهل ولا يهمل، { حكيم { لا يفعل إلا لمصلحة ظاهرة أو خفية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: للنفس حقوق على صاحبها، كما له حقوق عليها، قال - عليه الصلاة والسلام -: " إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَوْحِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ " فالنفس مغرفة للسر، فإذا تعبت سقط منها السر، كذلك نفس الإنسان، إذا تحامل عليها حتى تعلت، ودخلها الوجد، تعذر عليها كثير من العبادات، لا سيما الفكرة، فلا بد من حفظ البشرية، وإنا ينبغي قتلها بالأمور التي لا تُجَلُّ بصحتها، فعليها طاعتك فيما تأمرها به، كما عليك حفظها مما تنضرر به. وللرجال الأقوياء عليها تسلط وتصرف، فهي مملوكة في أيديهم، وهم غاليون عليها، والله غالب على أمره، وهو العزيز الحكيم.
@ { لَطَلَّاقٌ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْنًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } * { فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }

قلت: { فإمساك بمعروف }؛ مبتدأ، والخبر: محذوف، أي: أحسن أو أمثل. أو خبر، أي: فالواجب إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

يقول الحق جلّ جلاله: { الطلاق } الذي تقع الرجعة بعده - إنما هو { مرتان }، فإن طلق ثلاثة فلا رجعة بعدها، فإنطلق واحدة أو اثنتين فهو مُخِير، فإذا أن يمسكها ويرجعها بحسن المعاشرة، والقيام بحقوق الزوجية بالمعروف. وإما أن يُسَرِّحَهَا حتى تنقضي عدتها { بإحسان }، من غير إضرار، ولا تطويل عدة. { ولا يحل لكم }، أيها الأزواج، { أن تأخذوا مما آتيتموهن } من الصداق { شيناً } - خُلْعاً - { إلا أن يخافا إلا يقيما حدود الله } بأن ظن الزوج أو الزوجة فساد العشرة بينهما، وعدم القيام بحقوق الزوجية، { فإن خفتم } أيها الحكام، أو من ينوب عنهم، { ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به } من العصمة، فيحل للزوج أن يأخذ منها الفداء، ولو بجمع ما تملك إذا كان الضرر منها أو منهما، فإن انفرد بضررها، حُرِّمَ عليه أخذ الفداء، وطلَّقَتْ عليه.

{ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون } أي: هذه الأحكام التي ذكرنا من عدد الطلاق وأخذ الخُلْع على وجهه - هي حدود الله التي حدها لعباده، فمن تعداها فهو ظالم.

{ فإن } طلق الزوج مرة ثالثة { فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره }، ويدخل بها، من غير شرط التحليل، { فإن طلقها } الثاني، { فلا جناح عليهما

أن يتراجعا { بنكاح جديد { إن طئاً أن يقيما { حقوق الزوجية، وحسن العشرة،
{ وتلك { الأحكام المذكورة هي { حدود الله بينها { الحق تعالى { لقوم
يعلمون { أي: يفهمون ويتدبرون الأمور.

الإشارة: إذا طلق المريد الدنيا، ثم رجع إليها، ثم تاب وتوجه إلى الله، ثم رجع
إليها، ثم تاب وتوجه مرة ثانية، فبليت توبته، فإن رجع إليها بعد الطلقة الثانية،
فلا يُرجى فلاحه في الغالب؛ لأنه متلاعب، قال تعالى: { الطلاق مَرَّتَانِ {
فإمسك لها بمعروف بأن يواسي بها من يحتاج إليها، أو تسريح لها من يده
بإحسان من الله إليه، حتى يدخله في مقام الإحسان، فإن طلقها مرة ثالثة فلا
تحل له أبداً حتى يأخذها من يد الله بالله، بعد أن كان بنفسه، فكأنه أخذها
بعصمة جديدة، فإن تمكن من الفناء والبقاء، فلا جناح عليه أن يرجع إليها غنياً
بالله عنها. والله تعالى أعلم.

ثم نهى الحق تعالى عن إمساك الزوجة، إضراراً، كما كانت تفعل الجاهليّة.

@ { وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ
اللَّهِ هُزُواً وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
بِعِظْمِكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {

قلت: { ضراراً { مفعول له، أو حال، أي: مُضَارِّينَ.

يقول الحق جلّ جلاله: { وإذا طلقتم النساء { فقرب بلوغ أجل عدتهن
{ فأمسكوهن { بالرجعة متلبسين بالمعروف والإحسان إليها، { أو سرحوهن {
يتزوجن غيركم { بمعروف { لا إضرار فيه، { ولا تمسكوهن { بنية طلاقهن
{ ضراراً { أي: لأجل الضرر بتطويل عدتهن { لتعتدوا { عليهن { ومن يفعل
ذلك فقد ظلم نفسه {.

نزلت في رجل قال لامرأته: لا أوبك، ولا أدعك تحلين لغيري. فقالت: كيف؟
فقال: أطلقك، فإذا دنا مُصِيٌّ عِدَّتِكَ راجعتك، فَشَكَتْ ذلك لرسول الله صلى
الله عليه وسلم فنزلت الآية. وكان بعضهم يطلق، ويعتق، ثم يرجع، ويقول: كنت
أهراً بذلك وألعب، فنزل قوله تعالى: { ولا تتخذوا آيات الله هزواً { أي: مهزوءاً
بها، وفي الحديث: " تَلَاثُ هَزْلُهُنَّ جُدُّ: التَّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ " { واذكروا نعمة
الله عليكم { بالهداية وبعثة الرسول، { وما أنزل عليكم من الكتاب { فيه ما
تحتاجون إليه ظاهراً وباطناً، { والحكمة { أي: السنة المطهرة، { يعظكم { بذلك
وبزكيتكم { واتقوا الله { فيما يأمركم به، وبينهاكم عنه، { واعلموا أن الله بكل
شيء عليم {؛ " يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ " [الأنعام: 3].

الإشارة: يقال للمريدين المتجردين إذا طلقتم الدنيا، وآيستم أنفسكم من الرجوع
إليها حتى تمكن اليقين من القلب بحيث انقطع الاهتمام بالرزق من القلب،
وزالت عنه الشكوك والأوهام، فإذا رجعت إليه الدنيا، فإما أن يمسكها بمعروف
بأن تكون في يده لا في قلبه، أو يسرحها من يده، بسبب مقام الإحسان الذي
عوضه الله عنها، ولا تمسكوا الدنيا، أيها الفقراء، قبل كمال اليقين، فإنها ضرر
لكم، فقد أخذت الرجال لا سيما الأطفال. { ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه

{؛ حيث حرّمها الوصول، وتركها في حيرة الأوهام تجول، فاحذروا لذيذ عاجلها، لكرهه آجلها، { ولا تتخذوا آيات الله هزواً } بالرخص والتأويلات، { واذكروا نعمة الله عليكم } بالعداية إلى الطريق، { وما أنزل عليكم من الكتاب }؛ فيه بيان التحقيق { والحكمة } التي هي إصابة عين التوفيق، { واتقوا الله } فلا تركنوا إلى شيء سواه، فإن مالت قلوبكم إلى شيء من السوى، أو نزعت إلى محبة الهوى فاعلموا { أن الله بكل شيء عليم } فيبعدكم بعد الوصول. ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

@ { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَأُ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

قلت: العَضْلُ: المنع والتصيق والتعسير، يقال: أعضلت الدجاجة، إذا عسر بيضها.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وإذا طلقتم النساء { فانقضت عدتهن { فلا { تمنعوهن، أيها الأولياء، من { أن ينكحن أزواجهن { الذي كانوا يملكوهن ثم طلقوا، أو الخطاب الأجنبي، { إذا تراضوا بينهم بالمعروف { أي: بأن كانوا أكفاء لهم، وبذلوا من المهر ما يناسبهن، أو كانت رشيدة. { ذلك { الذي ذكرنا لكم - يتعظ به، ويقف معه، من كان { يؤمن بالله واليوم الآخر }؛ لأنه هو الذي ينجع فيه الوعظ وينتفع بالتذكير، { ذلكم أزكى لكم { أي: أرفع لقدركم، إن تمسكتم به، { وأطهر { لكم من الذنوب والعيوب، { والله يعلم { ما فيه صلاحكم، { وأنتم لا تعلمون }. نزلت الآية في مَعْقِلَ بَيْنَ يَسَارِ، زَوْجَ أُخْتِهِ ثُمَّ طَلَّقَهَا زَوْجَهَا، وَأَمَهِلَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، ثُمَّ جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقَالَ مَعْقِلٌ: تَرَكَهَا حَتَّى مَلَكَتْ نَفْسَهَا، ثُمَّ جَاءَ يَخْطُبُهَا، وَاللَّهُ لَا أَرْوَجُهَا مِنْهُ أَبَدًا. وَالْمَرْأَةُ أَرَادَتْ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، فَرَجَعَ مَعْقِلٌ عَنْ قِسْمِهِ وَرَوَّجَهَا.

وفيه دليل أن المرأة لا تُرَّجَعُ نفسها، خلافاً لأبي حنيفة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للشيخ إذا تحققوا من المریدین کمال الیقین، وظهر عليهم أمارات الرشيد، ألا يمنعوهم من تعاطي الأسباب، وأخذ ما جاءهم من الدنيا، بلا استشراف ولا طمع، فقد يكون ذلك عوناً لهم على الدين، وعمارة لزاوية الذاكرين، فذلك أزكى لهم وأطهر لقلوبهم، { والله يعلم وأنتم لا تعلمون }.

@ { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلُهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِنْ ذَلِكَ قِآنٌ إِرَادًا فَصَالًا عَنِ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: ويجب على الوالدات أن { يرضعن أولادهن حولين كاملين { إذا كنَّ في العصمة، ولا شرف لهن؛ لجرى العرف بذلك، أو مطلقات، ولم يقبل الولد غيرهنّ هذا { لمن أراد أن يتم الرضاعة }، فإن اتفقا على

فطامه قبلهما، جاز، كما يأتي. ويجب { على المولود له } وهو الأب، رزق أمهات أولاده، { وكسوتهن }؛ إذ هو الذي يُنسب المولود له، وذلك { بالمعروف }، لا يُكلف الله نفساً إلا ما في وسعها وتطبيقه، فلا { تضارَّ والدته بولدها }، بحيث ترضعه وهي مريضة، أو انقطع لبنها. بل يجب على الأب أن يستاجر من يرضعه، ولا يضار { مولود له بولده }، بحيث يكلف من الإنفاق والكسوة فوق جهده. فإن مات الأب وترك مالا - فعلى { الوارث } الكبير { مثل ذلك } من الكسوة والإنفاق، يُجريها من مال الأب، ويحسبها من حق الصبي، فإن لم يكن للأب مال - فعلى جماعة المسلمين.

{ فإن أراد } أي: الأب والمرضعة، { فصالاً } أي: فطاماً للصبي قبل تمام الحولين، { عن تراض منهما وتشاور } بينهما، { فلا جناح عليهما }، إن لم يخف على الولد ضعف. { وإن أردتم }، أيها الأزواج، { أن تسترضعوا أولادكم } عند غير الأم، برضاها، { فلا جناح عليكم } في ذلك { إذا سلمتم } أي: أعطيتم للمراضع، { ما أتيتم } أي: ما أردتم إيتاءه من الأجرة { بالمعروف } من غير مَطْلٍ ولا تقتير. والشرط إنما هو على وجه الكمال والإحسان، { واتقوا الله } فيما كلفتم به من الحقوق، { واعلموا أن الله } لا يخفى عليه شيء من أموركم؛ فإنه { بما تعملون بصير }.

الإشارة: اعلم أن تربية الولاية في قلب المرید، على نمط تربية الطفل الصغير، تنبت في قلب المرید وقت عقد الصلابة بينهما، ثم لا تزال تنمو، أو الشيخ يرضعه بلبن الإمداد حتى يتم أوان رضاعه، ولذلك قالوا: الثدي الميتة لا ترضع. هـ. يشيرون إلى أن الشيخ الميت لا يُربى، فلا يزال الشيخ يُربى الروح، ويمدها حتى تدخل بلد الإحسان، وتشتعل فكرتها. وهذا تمام الحولين في حقها، وهو أوان كمال الحقيقة والشريعة لمن أراد إتمامها، فتأكل الروح حينئذٍ من كل شيء، وتشرب من كل شيء، وتستمد من الأشياء كلها، ثم لا يزال يحاذيها بهمته حتى ترشد، فيطلق لها التصرف، فتصلح لتربية غيرها.

وعلى الشيخ رزق المریدين من قوت القلوب وكسوتهم، تقيهم من إصابة الذنوب والعيوب، إلا ما سبق به القضاء في علم الغيوب، فليس في طوق أحدٍ دفعه، لا تُكلف نفسٌ إلا وسعها، فإذا مات الشيخ، ووصى بمن يرث مقامه، فعلى الوارث مثل ذلك، فإن أراد المرید انفصالاً عن الشيخ، وتعمير بلد، أو تذكير عباد الله، عن تراض منهما وتشاور من الشيخ، فلا جناح عليهما، وإن أردتم، أيها الشيوخ، أن تسترضعوا أولادكم بإرسال من يُذكرهم، ويمدهم، نائباً عنكم، فلا جناح عليكم إذا سلمتم لهم من الإمداد ما يمدهم به، واتقوا الله في شأن المریدين، في جبر كسرهم، وقبول عذرهم، واعلموا أن الله بما تعملون بصير.

@ { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيمَا عَلَّمْنَ بِمَا عَلَّمْنَ اللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ } * { وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَبْتُمْ فِيمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ اللَّهُ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ }

قلت: و { الذين يُتوفون } : مبتدأ: و { يتربصن } : خبر، ولا بد من الحذف ليصح الإخبار، إما من الصدر أو من العَجْر، أي: وأزواج الذين يتوفون، أو الذين يتوفون أزواجهن يتربصن.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { والذين } يموتون منكم، أيها المؤمنون، ويتركون { أزواجاً } ، فلا يتزوجن حتى { يتربصن } أي: يمكن { بأنفسهن أربعة أشهر } وعشرة أيام؛ لأن الجنين يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكراً، ولأربعة إن كان أنثى في الغالب، وزيد عشرة، استظهاراً، هذا في غير الحامل، أما الحامل، فعدتها وضع حملها. { فإذا بلغن أجلهن } أي: انقضت عدتهن، { فلا جناح عليكم } أيها الأولياء { فيما فعلن في أنفسهن } من التزين والتعرض للنكاح أو التزوج، { بالمعروف } ، بحيث لا ينكره الشرع من تزين ونكاح، { والله بما تعملون خبير } فيجازيكم على ما فعلتم.

{ ولا جناح عليكم } أيها الخطّاب { فيما عرّضتم به } للمعتدات { من خطبة النساء }؛ كقول الرجل: إني لراغب في صحبتكم، وإني أريد أن أتزوج في هذه الساعة. وإنك لنافقة، أو لا يصلح لك أن تبقى بلا زوج، ونحو هذا، { أو أكنتم } أي: أضمرتم { في أنفسكم } في زمن العدة من أمر التزوج دون تصريح، { علم الله أنكم } ستذكرون النساء المعتدات، وتتكلمون في نكاحهن، حرصاً وتمنياً، فعرضوا بذلك، { ولكن لا تواعدوهن سرّاً } أي: في الخلوة، أو لا تواعدوهن نكاحاً أو جماعاً، { إلا أن تقولوا قولاً معروفاً } وهو التعريض بالألفاظ المتقدمة.

ولا تقطعوا { عقدة النكاح } ، وتعزموا على فعله { حتى يبلغ } كتاب المعتدة { أجله } ، وتنقضي العدة، { واعملوا أن الله يعلم ما في أنفسكم } من الرغبة والحرص، { فاحذروه } فإنّ الحرس على الشيء، والرغبة فيه، قبل أوّانه، ربما يعاقب صاحبه بحرمانه، وما قدر لك لا يكون لغيرك، وما كان لغيرك لا يكون لك، ولو فعلت ما فعلت، { واعلموا أن الله غفور } لِمَا استعجلتم؛ فإنّ الإنسان حُلُق عجولاً، { حلِيم } فلا يعاجلكم ولا يفضح سرائركم.

الإشارة: إذا ماتت النفس عن الهوى، وتركت حظوظاً وشهوات، فلا ينبغي أن يردّها إلى ذلك حتى تتربص مدة، فيظهر عليها آثارُ الزهد؛ من السكون إلى الله، والتأنس بمشاهدة الله حتى تغيب عما سواه. فإذا بلغت هذا الوصف فلا جناح على المرید أن يسعفها فيما تفعل بالمعروف، من غير سرّ ولا ميل إلى هوى، لأن فعلها حينئذٍ بالله، ومن الله، وإلى الله، { والله بما تعملون خبير } لا يخفى عليه شيء من أمرها، ولا جناح عليكم، أيها المریدون، إن تزكت نفوسكم، وطهرت من الأغيار قلوبكم، فيما عرضتم به من خطبة أبكار الحقائق وثيبات العلوم، أو أكنتم في أنفسكم من المعارف والفهوم، علم الله أنكم ستذكرون ذلك باللسان قبل أن يصل الذوق إلى الجتّان، فلا تصرحوا بعلوم الحقائق مع كل الخلائق؛ فإن ذلك من فعل الزنادق، إلا أن تقولوا قولاً معروفاً، إشارة أو تلويحاً، فعلمنا كله إشارة، فإذا صار عبارة خفي.

ولا تطلبوا علم الحقائق قبل بلوغ أجله، وهو موت النفوس، والزهد في الفلوس، وكمال التربية، وتمام التصفية، { واعملوا أن الله يعلم ما في أنفسكم

{ من الشرة إليها قبل أوانها، { فاحذروه { أن يعاقبكم بحرمانها، { واعلموا أن الله غفور حلیم { لا يعاجلكم بحرمان قصدكم، إن صح مقصدكم، والله تعالى أعلم، وبالله التوفيق.

@ { لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ } * { وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَيُضْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَا وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

قلت: { ما { مصدرية ظرفية، و { أو تفرضوا { معطوف على { تمسوهن { أي: لا تبعة عليكم ولا إثم إن طلقتم النساء قبل البناء، مدة كونكم لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن مهراً، و { إلا أن يعفون { مبنى؛ لاتصاله بنون النسوة، ووزنه: يفعلن كقوله تعالى: { السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ } [يوسف: 33]، وقوله: { وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا } [النور: 60]، و { حقاً { مفعول مطلق.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: لا حرج عليكم من إثم أو صداق، { إن طلقتم النساء { مدة كونكم { لم تمسوهن { بالجماع، { ولم تفرضوا لهن فريضة { من الصداق، فطلقوهن حينئذٍ، { وامتعهن { أي: اعطوهن ما يتمتعن به ويجبر كسرهن، على قدر حال الزوج؛ { على الموسع { أي: الغنى، { قدره { من المتعة كأمة أو كسوة أو مال يليق بحاله، { وعلى المقتر { أي: الذي تقتر رزقه، أي ضيق عليه، وهو الفقير، { حقاً على المحسنين { أي: حق ذلك عليهم حقاً. حمل مالك الأمر على الندب، وحمله غيره على الوجوب، وهو الظاهر.

وإن طلقتموهن بعد المسيس فالصداق كامل، { وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن { صداقاً { فنصف ما فرضتم { يجب عليكم، { إلا أن يعفون { أي: النساء، عن نصف الصداق، { أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح { ، وهو الأب في ابنته البكر؛ قاله مالك، أو الزوج بأن يدفعه كاملاً، قاله الشافعي، { وأن تعفوا { أيها الأولياء عن الزوج، فلا تقبضوا منه شيئاً، { أقرب للتقوى {؛ لأن المرأة لم يذهب لها شيء فسلعتهما قائمة، { ولا تنسوا الفضل { والإحسان { بينكم { فتسامحوا يسمح لكم، { إن الله بما تعملون بصير { لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجازي المحسن بإحسانه، { والله يحب المحسنين {.

الإشارة: من المرابين من تحصل له الغيبة عن نفسه، والجذب عنها، بعد أن يمسه بالمجاهدة والمكابدة، فحينئذٍ يمتعها بالشهود والعيان، وهذه طريق الجادة. ومنهم من تحصل له الغيبة عن نفسه والجذب عنها قبل أن يمسه، ويجاهدها، وهو نادر بالنسبة إلى الأول، فيقال لهؤلاء الفريق: لا جناح عليكم إن طلقتم أنفسكم، وغتيم عنها، من قبل أن تمسوها، وقبل أن تعرضوا عليها وظائف العبودية. وامتعهن بالشهود والعيان على قدر وسعكم وقوة شهودكم، على

الموسع قدره من لذة الشهود، وعلى المقتر - أي: المضيق عليه في المعرفة - قدره من لذة الشهود، حق ذلك حقاً على المحسنين الذي حازوا مقام الإحسان، وفازوا بالشهود والعيان.

وإن حصل لكم جذب العناية، وطلقتم أنفسكم قبل أن تمسوها، وقد كنتم وظفتم عليها أوراذاً من وطائف العبودية؛ فنصف ما فرضتم، وهو المهم منها؛ لأن عبادتها صارت قلبية، فيكفيها من العبادة القلبية المهم، إلا أن تقوى على ذلك مع الشهود. أو يأمرها الذي بيده عقدة نكاحها، وهو الشيخ، فلا يضرها الاشتغال بها حيث كان باذناً، وأن تعفوا، أيها الشيوخ، عن المريدين في العبادة الحسية، وتأمروهم بالعبادة القلبية، أقرب للتقوى الكاملة، وهي تقوى السوى. والله تعالى أعلم.

ولما ذكر الحق تعالى شأن النساء، حذر من الاشتغال بهن عن العبادة.

@ { حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ } * { قَانَ خِفْتُمْ فَرَجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ }

يقول الحق جلّ جلاله: { حافظوا } أيضاً علي أداء { الصلوات } الخمس في أوقاتها؛ باتقان شروطها وأركانها وخشوعها وأدابها، ولا تشتغلوا عنها بشهوات النساء وتشغيب أحكامهن، ولا بغير ذلك، وحافظوا أيضاً على { الصلاة الوسطى } وهي العصر عند الشافعي، وهو ظاهر الحديث، أو الصبح عند مالك؛ لفضلها، أو لتوسطها بين صلاتي الليل والنهار. وما من صلاة إلا وقيل فيها الوسطى. وقيل: أخفيت كساعة الجمعة وليلة القدر.

{ وقوموا لله } في الصلاة { قانتين } أي: ساكتين، وكان، قبل نزول الآية، الكلام في الصلاة جائزاً، أو قيل: مطيعين: إذ القنوت في القرآن كله بمعنى الطاعة. { فإن خفتم } من عدو، أو سبع، أو سيئ، فصلوا قياماً على أرجلكم بالإيماء للسجود، { أو ركباناً } على خيولكم بالإيماء للركوع والسجود، { فإذا أمنتكم } في الصلاة، أو بعدها، فصلوا صلاة أمن، و { اذكروا الله } في الصلاة، وصلوا { كما علمكم } من الكيفية { ما لم تكونوا تعلمون } قبل ذلك.

الإشارة: حافظوا على الصلوات الحسية قياماً بوظائف العبودية، وعلى الصلاة القلبية قياماً بشهود عظمة الربوبية؛ وهي الصلاة الوسطى لدوامها في كل ساعة، قيل لبعضهم: هل للقلوب صلاة؟ قال: نعم، إذا سجد لا يرفع رأسه أبداً. هـ. أي: إذا خضع لهيبة العظمة لم يرفع أبداً، وفي ذلك يقول الشاعر:

فإسجدُ لهيبةِ الجلالِ عندَ التَّدَابِي
وَلتَقْرَأْ آيَةَ الكَمَالِ سَبَّحَ المَتَانِي
وأشار بقوله: " آية الكمال " لقوله تعالى:
{ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ }

[القائحة: 5] ليجمع بين الشريعة والحقيقة، فسجد القلب حقيقة، وسجد الجوارح شريعة، وقوموا لله بأداب العبودية قانتين خاشعين، فإن خفتم ألا تصلوا إلى ربكم، قبل انقضاء أجلكم، فسيروا إليه رجلاً أو ركباناً، خفاً أو ثقلاً،

فإذا أمنت من القطيعة - وذلك بعد التمكين - فاذكروا الله شكراً لأجل ما أطلعكم عليه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون؛ من عظمة الربوبية، وكمال آداب العبودية.

@ { وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }

قلت: { وصية } : مبتدأ، والخبر محذوف، أي: عليهم وصية، وَمَنْ تَصَبَّ، فمفعول مطلق، أي: فليوصوا وصية، و { غير } : حال من الأزواج، أي: حال كونهن غَيْرَ مُحْرَجَاتٍ.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { والذين يتوفون منكم } ويتركون { أزواجاً } بعدهم، فيجب عليهم أن يوصوا لأزواجهم وصية يتمتعن بها من كسوة ونفقة وسكنى، إلى تمام { الحول } ما دام الأزواج لم يخرجن من مسكن الزوج، { فإن خرجن } بأنفسهن، فلا نفقة ولا كسوة ولا سكنى عليكم أيها الأولياء، ولا حرج عليكم { فيما فعلن في أنفسهن } من التزين والتعرض للنكاح بعد تمام عدتهن، على ما هو معروف في الشرع، والوصية منسوخة بأية الميراث، وتربص الحول بأية { أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا } [البقرة: 234] المتقدمة المتأخرة في النزول، { والله عزيز حكيم } ينسخ ما يشاء، ويحكم ما يريد، باعتبار الحكمة والمصلحة.

الإشارة: والذين يتوفون عن الحطوط والشهوات، ويتركون علوماً وأسراراً، ينبغي لهم أن يوصوا بحفظها وتدوينها، كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه إذا استغرف في الكلام وفاضت عليه المواهب، يقول: (هلاً رجل يقيد عنا هذه العلوم). هـ ليقع التمتع بها للسائرين والطالبين، { غير إخراج } لغير أهلها، فإن قضى الوقت بخروجها، من غير قصد، فلا حرج، إما لغلبة وجد أو هداية مريد، { والله عزيز حكيم } ، فعزته اقتضت الغيرة على سره: أن يأخذه غير أهله، وحكمته اقتضت ظهوره في وقته لأهله. والله تعالى أعلم.

@ { وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ } * { كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

قلت: إنما كرره لأن الأولى في غير المدخول بها، إذا طُلقت قبل الفرض، وهذه في المدخول بها، وعبر أولاً بالمحسن: لأن المتعة قبل الدخول لا يعطيها إلا أهل الإحسان؛ لأن المطلق لم يحصل له تمتع بالزوجة، بخلاف الثاني، فمطلق المدخول بها، التقوى تحمله على الإمتاع.

وقيل: لما نزلت الآية الأولى، قال رجل من المسلمين: إن أحسن ما منعني وإلا تركت، فنزلت الثانية تأكيداً. وقال: { حقاً على المتقين } الشرك، أي: على كل مؤمن، وحكمها: الندب، عند مالك، على تفصيل ذكره، في المختصر، فقال عاطفاً على المندوب: والمتعة على قدر حاله، بعد العدة للرجعة، أو ورثتها، ككل مُطلقة في نكاح لازم، لا في فسح؛ كلعانٍ وملك أحد الزوجين، إلا من

اِخْتَلَعَتْ، أو فُرِضَ لها وطُلقت قبل البناء، ومختارة لعتقها أو لِعَيْبِهِ أو مُخَيَّرَةً أو مُمْلَكَةً.

الإشارة: كل من طلق نفسه وخالف هواها تمتع بحلاوة المعاملة مع ربه، فمن اتصل بشيخ التربية تمتع بحلاوة العبادة القلبية كالشهود والعيان، ومن لم يتصل بالشيخ تمتع بحلاوة العبادة الحسية. فالآية الأولى في المريرين والواصلين، وهذه الآية في العباد والزهاد، ولذلك عبّر في الأولى بالمحسنين، وفي الثانية بالمتقين، والله تعالى أعلم.

@ { أَلَمْ يَرِ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أَلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَآكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } {

قلت: الاستفهام للتعجب والتشويق، والرؤية قلبية، والواو للحال، و { حَذَرَ } مفعول من أجله.

يقول الحقّ جلّ جلاله: ألم تنظر يا محمد، بعين الفكر والاعتبار، { إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم أوف { عشرة، أو ثلاثون، أو أربعون، أو سبعون، حذراً من { الموت } في زمن الطاعون.

وكانوا في قرية يقال لها: (داوردان) فلما وقع بها الطاعون، خرجت طائفة هارين، وبقيت أخرى، فهلك أكثر من بقي، وسلم الخارجون، ثم رجعوا، فقال الباقون: لو صنعنا مثلهم لبقينا، لئن أصابنا الطاعون مرة ثانية لخرجنا، فأصابهم من قابل، فهربوا كلهم، ونزلوا وادياً أفيح، فناداهم ملك من أسفل الوادي، وآخر من أعلاه، أن: موتوا، فماتوا كلهم أجمعون، ومرت عليهم مدة ثمانية أيام أو أكثر حتى انتفخوا، وقيل: صاروا عظاماً، فمّر عليهم نبيّ الله (حزقيل)، فدعا الله تعالى، واستشفع فيهم، فأحياهم الله، وعاشوا دهرًا، عليهم سيما الموت؛ لا يلبسون ثوباً إلا عاد كالكفن، واستمر في أسباطهم. هـ.

قال الأصمعي: لما وقع الطاعون بالبصرة، خرج رجل منها على حمار معه أهله، وله عبد يسوق حماره، فأنشأ العبد يقول:

لن يُسَيِّقَ اللَّهُ على جِمارٍ ولا على ذي مَشَعَةٍ طَيَّارٍ
قَدْ يُسِيخُ اللهُ أَمَامَ السَّارِي فرجع الرجل بعياله.

والآية تدل على أن الفرار من الطاعون حرام في تلك الشريعة، كما حرم في شرعنا، وروى عبد الرحمن بن عوف أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " إِذَا سَمِعْتُمْ هَذَا الْوَبَاءَ بِلَدٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِلَدٍ وَأَنْتُمْ فِيهِ فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهُ " .

قلت: وقد اختلف الأئمة في حكم الفرار والقدوم: فمنهم من شهر المنع فيهما تمسكاً بظاهر الحديث، ومنهم من شهر الكراهة، والمختار في الفرار: التحريم،

وفي القدوم: التفصيل، فمن قوي يقينه، وصفا توحيده، حَلَّ له القدوم، ومن ضعف يقينه، بحيث إذا أصابه شيء نسب التأثير لغير الله حرم عليه القدوم.

وفي حديث عائشة - رضي الله عنها - قلت: يا رسول الله، ما الطاعون؟ قال: " غدة كغدة البعير، المقيم فيه كالشهيد، والفاؤ منه كالفار من الزحف " قال ابن حجر: كون المقيم فيه له أجر شهيد إنما بشرط أن يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن يسلم إليه أمره ويرضى بقضائه، وأن يبقى في مكانه ولا يخرج منه بقصد الفرار، فإذا اتصف الجالس بهذه القيود حصل له أجر الشهادة، ودخل تحته ثلاث صور، الأولى: من اتصف بذلك فوقع له الطاعون ومات فهو شهيد. والثانية: من وقع به ولم يمت به فهو شهيد وإن مات بعد ذلك. والثالثة: من لم يقع به أصلاً ومات بغيره عاجلاً أو أجلاً فهو شهيد، إذا حصلت فيه القيود الثلاثة، ومن لم يتصف بالقيود الثلاثة فليس بشهيد، ولو مات بالطاعون، والله أعلم.

@وأما القدوم من بلد الطاعون إلى البلد السالمة منه فجائز. ولا يُمنع من الدخول، قاله الباجي وابن حجر والحطاب وغيرهم لقوله - عليه الصلاة والسلام -: " لَا عَدْوَى وَلَا طَيْرَةٌ " وأما قوله عليه الصلاة والسلام: " فَرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ " وقوله: " لَا يُرَدُّ مُمْرَضٌ عَلَى مُصِحٍّ " فهو محمول على حسم المادة، وسد الذريعة؛ لئلا يحدث للمخالط شيء من ذلك، فيظنه بسبب المخالطة، فيثبت العدوى التي نفاها الشارع، هذا المختار في الجمع بين الحديثين. والله تعالى أعلم. وإنما أطلت في المسألة لِمَسْنُ الحاجة؛ لأن التأليف وقع في زمن الوباء، حفظنا الله من وبالها.

وقيل: إن الذين خرجوا من ديارهم قوم من بني إسرائيل، أمروا بالجهاد، فخافوا الموت بالقتل في الجهاد، فخرجوا من ديارهم فراراً من ذلك، فأماهم الله؛ ليعرفهم أنهم لا ينجيهم من الموت شيء، ثم أحياهم؛ وأمرهم بالجهاد، بقوله: { وقاتلوا في سبيل الله { الآية. وقوله تعالى: { إن الله لذو فضل على الناس {؛ حيث أنزل بهم رحمته، ففروا منها، ولم يعاقبهم، حيث أحياهم بعد موتهم، { ولكن أكثر الناس لا يشكرون { إذ لا يفهم النعم في طي النقم إلا القليل، فيشكروا الله في السراء والضراء.

الإشارة: ألم تر أيها السامع إلى الذين خرجوا من ديار عوائدهم وأوطان شهواتهم، وهم جماعة أهل التجريد، القاصدين إلى صفاء التوحيد، الغرق في بحر التفريد، حذراً من موت أرواحهم بالجهل والقَرْقِ، فاصطفاهم الله لحضرته، وجذبهم إلى مشاهدة ذاته، فقال لهم الله: موتوا عن حظوظكم، وغيبوا عن وجودكم، فلما ماتوا عن حظوظهم، وغابوا عن وجودهم، أحياهم الله بالعلم والمعرفة، { إن الله لذو فضل على الناس { حيث فتح لهم باب السلوك، وهياهم لمعرفة ملك الملوك، { ولكن أكثر الناس لا يشكرون { حيث تجلى لهم، وعزَّفهم به، وهم لا يشعرون، إلا من فتح الله بصيرتهم، وقليل ما هم.

@ { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وقاتلوا { الكفار { في سبيل الله { وإعلاء كلمة الله حتى يكون الدين كله لله، { واعلموا أن الله سميع { لأقوالكم ودعائكم { عليم { بنياتكم وإخلاصكم؛ فيجازي المخلصين، وبحرم المخلطين.

الإشارة: وجاهدوا نفوسكم في طريق الوصول إلى الله، وأديموا السير إلى حضرة الله، فحضرة القدوس محرمة على أهل النفوس. قال الششتري:

إِنْ تُرِدْ وَضَلْنَا فَمَوْتُكَ شَرَطٌ لَا يَنَالُ الْوِصَالَ مَنْ فِيهِ فَضْلُهُ
ومجاهدة النفس هو تحميلها ما يثقل عليها، وبعدها مما يخف عليها، حتى لا يثقل عليها شيء، ولا تشره إلى شيء، بل يكون هواها ما يقضيه عليها مولاها. قيل لبعضهم، [ما تشتهي؟ قال: ما يقضي الله]. واعلموا أيها السائرون أن الله سميع لأذكاركم، عليهم بإخلاصكم ومقاصدكم.

ولما كان الجهاد يحتاج إلى مؤنة التجهيز، وليس كل الناس يقدر على ذلك، رَعَبَ الحق تعالى الأقوياء بالإنفاق على الفقراء.
@ { مَنْ دَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }

قلت: القرض هو القطع، أُطْلِقَ على السلف؛ لأن الْمُقْرِضَ يقطع قطعة من ماله ويدفعها للمستلف، والمراد بها الصدقة؛ لأن المتصدق يدفع الصدقة فيردها الحق تعالى له بضعف أمثالها؛ فأشبهت القرض في مطلق الرد.

يقول الحق جلّ جلاله: مَنْ هَذَا الَّذِي يَعَامَلُ اللَّهَ تَعَالَى وَيَقْرِضُهُ { قَرْضًا حَسَنًا } { أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَى عِبَادِهِ صَدَقَةً حَسَنَةً بَنِيَّةً خَالِصَةً، فَيُكْثِرُهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ { أَضْعَافًا كَثِيرَةً }؛ بسبعمئة إلى ما لا نهاية له، ولا يحمله خوف الفقر على ترك الصدقة؛ فإن الله تعالى يقبض الرزق عمن يشاء ولو قل إعطاؤه، ويبسط الرزق على من يشاء ولو كثر إعطاؤه، بل يقبض على من قبض يده شيئاً وبخلاً، ويبسط على من بسط يده عطاءً وبذلاً، يقول: " يا ابن آدم أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ " ، " أَنْفِقْ وَلَا تَخَشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا " .

ونسبة القرض إليه تعالى ترغيب وتقريب للإفهام، كما قال في الحديث القدسي: " يقول الله تعالى يوم القيامة: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرَضْتُ قَلْمَ عُنْدِي، قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَغُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عُنْدِي قَلْمًا مَرِيضًا قَلْمَ تَعُدُّهُ. أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعْمُكَ قَلْمَ تُطْعِمُنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عُنْدِي فَلَنْ قَلْمَ تُطْعِمُهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ قَلْمَ تَسْقِيَنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عُنْدِي فَلَنْ قَلْمَ تَسْقِيَهُ. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي "

الإشارة: من هذا الذي يقطع قلبه عن حب الدارين، ويرفع همته عن الكونين، فإن الله { يضاعفه له أضغافاً كثيرة } بأن يُمْلِكَهُ الوجود بما فيه، " أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك " ، { والله يقبض ويبسط } فيقبض الوجود تحت حكمك وهمتك، إن رفعت همتك عنه، ويبسط يدك بالتصرف فيه، إن علقت عمتك بخالقه. أو يقبض القلوب بالفقد والوحشة، ويبسطها بالإيناس والبهجة. أو يقبض الأرواح بالوفاة، ويبسطها بالحياة. والقبض والبسط عند أهل التصوف: حالتان تتعاقبان على القلوب تعاقب

الليل والنهار، فإذا غلب حال الخوف كان مقبوضاً، وإذا غلب حال الرجاء كان مبسوطاً، وهذا حال السائرين. أما الواصلون فقد اعتدل خوفهم ورجاؤهم، فلا يؤثر فيهم قبض ولا بسط، لنهم مالكو الأحوال.

قال القشيري: فإذا كاشف العبد بنعت جماله بسطه، وإذا كاشفه بنعت جلاله قبضه. فالقبض يوجب إيحاشه، والبسط يوجب إيناسه، واعلم أنه يراد العبد إلى حال بشريته، فيقبضه حتى لا يطيق دزة، وبأخذه مرة عن نعوته، فيجد لحمل ما يراد عليه قدرة وطاقه، قال الشبلي رضي الله عنه: (من عرف الله حمل السماوات والأرض على شعرة من جفن عينه، ومن لم يعرف الله - جل وعلا - لو تعلق به جناح بعوضة لضج).

@وقال أهل المعرفة: [إذا قبض قبض حتى لا طاقة، وإذا بسط بسط حتى لا فاقة، والكل منه وإليه]. ومن عرف أن الله هو القابض الباسط، لم يعتب أحداً من الخلق، ولا يسكن إليه في إقبال ولا إدبار، ولم يياس منه في البلاء، ولا يسكن إليه في عطاء، فلا يكون له تدبير أبداً. هـ.

ولكل من القبض والبسط آداب، فآداب القبض: السكون تحت مجاري الأقدار، وانتظار الفرج من الكريم الغفار. وآداب البسط: كف اللسان، وقبض العنان، والحياء من الكريم المنان، والبسط مرة أقدام الرجال. قال بعضهم: (فتح علي باب من البسط فزلت رلة، فحجبت عن مقامي ثلاثين سنة). ولذلك قيل: قف على البساط وإياك والانبساط.

واعلم أن القبض والبسط فوق الخوف والرجاء، وفوق القبض والبسط: الهيبة والأنس فبالخوف والرجاء للمؤمنين، والقبض والبسط للسائرين، والهيبة والأنس للعارفين، ثم المحو في وجود العين للمتمكنين، فلا هيبة لهم، ولا أنس، ولا علم، ولا حس.

وأنشدوا:

فلو كُنت من أهل الوجود حقيقةً لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي
وكنت بلا حال مع الله واقفاً تُصان عن التذكار للجن والإنس

@ { ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبينا لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين }

يقول الحق جل جلاله: { ألم تر } يا محمد - فتعتبر - { إلى } قصة جماعة { من بني إسرائيل من بعد } موت { موسى } حين طلبوا الجهاد، وقالوا { لنبينا لهم } يقال له: شمويل، وقيل: شمعون { ابعث لنا ملكاً } يسوس أمرنا ونرجع إليه في رأينا؛ إذ الحرب لا تستقيم بغير إمام { نقاتل } معه { في } سبيل الله قال { لهم ذلك النبي: } هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا { أي: هل أنتم قريب من التولي والفرار إن كتب عليكم القتال؟ والمعنى: أتوقع جبنكم عن القتال إن فرض عليكم، والأصل: عساكم أن تجبنوا إن

فرض عليكم، فأدخل { هل } على فعل التوقع، مستفهماً عما هو المتوقع عنده، تقريراً وتشبيهاً.

{ قالوا } في جوابه: { وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله { أي: أيُّ مانع يمنعنا من القتال وقد وُجد داعيه؟ وهو تسلط العدو علينا فأخْرَجْنَا من ديارنا وأسْرَ أبناءنا، وكان الله تعالى سلط عليهم جالوت ومن معه من العمالقة، كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وذلك لَمَّا عصوا وسفكوا الدماء، فخرَّب بيت المقدس، وحرق التوراة، وأخذ التابوت الذي كانوا ينتصرون به، وسبي نساءهم وذراريهم. رُوِيَ أنه سبي من أبناء ملوكهم أربعمئة وأربعين، فسألوا نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يجاهدون معه، { فلما كتب عليهم القتال } ويَسر لهم ملكاً يسوسهم وهو طالوت. جنُّوا وتولوا { إلا قليلاً منهم } ، وهم من عَبَرَ النهر مع طالوت، { والله عليم بالظالمين } فيخزيهم ويُفسد رأيهم... نعوذ بالله من ذلك.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس يتمنون أو لو ظفروا بشيخ التريبة، ويقولون: لو وجدناه لجاهدنا أنفسنا أكثر من غيرنا، فلما ظهر، وعُرف بالتريبة، تولى ونكص على عقبيه، وتعلل بالإنكار وعدم الأهلية، إلا قليلاً ممن خصه الله بعنايته { وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ }

[التَبَقَّة: 105]

{ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }

[التَبَقَّة: 105] سبحانه من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

@ { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَا يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَةً مَّن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وقال لهم نبيهم { شمويل: { إن الله قد بعث لكم ملكاً، أي: عينه لكم لتقاتلوا معه، وهو { طالوت } وهو عَلِمَ عِبْرَانِي كَدَاوُد، { قالوا } تعنتاً وتشغيلاً: { أنى يكون له الملك علينا { أي من أين يستأهل التملك علينا وليس من دار الملك؟ لأن المملكة كانت في أولاد يهودا، وطالوت من أولاد بنيامين، والنبوة كانت في أولاد لاوى. وقالوا: { نحن أحق بالملك منه { وراثة ومُكنة، لأن دار المملكة فينا. وأيضاً هو فقير { لم يُؤْتَ سعة من المال { يتقوى به على حرب عدوه، وكان طالوت فقيراً راعياً أو سَقَاءً أو دباغاً. { قال } لهم نبيهم - عليه السلام-: { إن اصطفاه عليكم { رغم أنفكم. قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبيهم: إذا دخل عليك رجل فَنَشِ الدَّهْنَ الذي في القرن فهو ملكهم، فلما دخل طالوت نَشَّ الدهن.

وقال السدي: أرسل الله إليه عصا، وقال له: إذا دخل عليك رجل على طول هذه العصا فهو ملكهم، فكان ذلك طالوت فتبين أن الله تعالى اصطفاه للملك، { وزاده بسطه في العلم } فكان أعلم بني إسرائيل بالتوراة وقيل: بالحروب وعلم السياسة. وزاده أيضاً بسطه في { الجسم } ، فكان أطول بني إسرائيل

يبلغ إلى مَنْكِبِهِ. وذلك ليكون أعظم خطراً في القلوب، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب، { والله يؤتي ملكه من يشاء }؛ لأنه مَلِكُ الملوك يضع مُلكه حيث شاء، { والله واسع } فيوسع على الفقير ويغنيه بلا سبب، { عليم } بمن يليق بالملك بسبب وبلا سبب.

@ { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ }

قلت: قال الجوهرى: أصل التابوت: تَأْبُوت، مثل تَرْفُوت وهي فَعْلُوتٌ، فلما سُكِّنَتْ الواو، انقلبت هاء التأنيث تاءً، فلغة قريش بالتاء، ولغة الأنصار بالهاء.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وقال لهم نبيهم } لَمَّا طلبوا منه الحجة على اصطفاه طالوت للملك: { إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت } وهو صندوق من خشب الشمشار مُمَوَّه بالذهب، طوله ثلاثة أذرع في سعة ذراعين { فيه سكينه من ربكم } أي: فيه ما تسكن إليه قلوبكم وتثبت عند الحرب. وكانوا يُقدمونه أمامهم في الحروب فلا يفرون، ويُنصرون على عدوهم، وقيل: كان فيه صور الأنبياء من آدم السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: كان فيه طسنت من ذهب عُسلت به قلوب الأنبياء - عليهم السلام - وهي السكينه - وفي { بقيمة مما ترك آل موسى } وهي رُضاض الألواح، وعصا موسى، وثيابه، وعمامة هارون والآل: مقحم فيهما.

{ تحمله الملائكة } قال وهب: لما صار التابوت عند القوم الذين غلبوا بني إسرائيل - فوضعوه في كنيسة لهم فيها أصنام، فكانت الأصنام تُصبح مُنكسرة، فحملوه إلى قرية قوم، فأصاب أولئك القومَ أوجاعٌ، فقالوا: ما هذا إلا لهذا التابوت، فلنتركه إلى بني إسرائيل، فأخذوا عَجَلَةً فجعلوا التابوت عليها وربطوها ببقرتين، وأرسلوهما نحو بلاد بني إسرائيل، فبعث الله ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا على بني إسرائيل، وهم في أمر طالوت فأيقنوا بالنصر، وقيل غير ذلك.

وقوله تعالى: { إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين } يحتمل أن يكون من كلام نبيهم، أو من كلام الحق تعالى لنبينا - عليه الصلاة والسلام -.

الإشارة: من شأن غالب النفوس ألا تقبل الخصوصية عند أحد حتى تظهر علامتها، ولذلك طالب الكفار الرسل بالمعجزات، وطالب العوام الأولياء بالكرامات، وبكفي في الولي استقامة ظاهره، وتحقيق اليقين في باطنه.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: "إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان ونعت العيان، وكرامة العمل على السنة والمتابعة، وترك الدعاوى والمخادعة، فَمَنْ أعطيهما ثم جعل يشتاقي إلى غيرهما فهو مفترٍ كذاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل... " الخ كلامه رضي الله عنه.

وقال في العوارف: وقد يكون مَنْ لا يُكاشَفُ بشيء من معاني القَدَرِ أفضل ممن يكاشف بها، إذا كاشفه الله تعالى بصرف المعرفة، فالقدرة أثر من

القادر، ومن أهل لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئاً من القدرة، ويرى القدرة تتجلى من سُحْب أجزاء عالم الحكمة. فالكرامة إنما تظهر للقلوب المضطربة والنفوس والمنتزلة، وأما من سكن قلبه باليقين واطمأنت نفسه بالعيان لم يحتاج إلى دليل برهان؛ إذ الجبال الراسية لا تحتاج إلى دُعامة، والله تعالى أعلم.

وكل من طالب أهل الخصوصية بالكرامة الحسية ففيه نزعة إسرائيلية، حيث قالوا لنبيهم بعد أن عيّن لهم مَنْ أكرمه الله بخصوصية الملك: { أئى يَكُونُ لَهُ لَمُلْكٌ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ } [البقرة: 247]. ورد الحق تعالى عليهم بقوله: { والله يؤتي ملكه من يشاء }. وما أظهر لهم كرامة التابوت إلا بعد امتناعهم من الجهاد الْمُتَعَيّنِ عليهم رحمةً بهم. والله تعالى أعلم.

@ { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ عَلَبْتُمْ فِئْتَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }

قلت: قال في القاموس: عَرَفَ الماءَ يَغْرِفُهُ: أخذ بيده، كاعْتَرَفَهُ، والغَرْفَةُ للمَرَّةِ، وبالكسر: هيئة الغرف وبالضام: اسم للمفعول، كالغرافة، لأنك ما لم تعرفه لا تسميه غَرْفَةً، ثم قال: والغَرْفَةُ، بالضم: العُلْيَةُ.

يقول الحقُّ جلّ جلاله: ولما اتفقوا على مُلك طالوتٍ تجهز للخروج، وقال: لا يخرج معه إلا الشبابُ النشيطُ الفارعُ ليس وراءه عُلقة، فاجتمع ممن اختار ثمانون ألفاً، وقي: ثلاثون، فلما انفصل عن بلده بالجنود وساروا في البداء - وكان وقت الحرِّ والقيظ - عطشوا، وسألوا طالوتَ أن يُجري لهم نهراً، فقال لهم بوحي، أو بالهام، أو بأمر نبيهم: { إن الله مبتليكم } أي: مُختبركم { بنهر } بسبب اقتراحكم، { فمن شرب منه } كَرَعاً بلا واسطة { فليس مني } أي: من جيشي، { ومن لم يطعمه } أي: يَدِّقَه، { فإنه مني } إلا من اغترف غرفة بيده { فإنها تكفيه لنفسه ولفرسه، فالاستثناء من الجملة الأولى.

{ فشربوا منه } أي: كَرَعُوا، وسقطوا على وجوههم، { إلا قليلاً منهم } ثلاثمائة وأربعة عشر، على عدد أهل بدر، وقيل: ألفاً. رُوِيَ أن من اقتصر على العَرْفَةِ كَفَّته لشربه ودوابه، ومن لم يقتصر غلب عطشُه، واسودَّتْ شفثُه ولم يقدر أن يمضي. وعن ابن عباس: أن القومَ شربوا على قدر يقينهم: فالكفار شربوا شَرْبَ الهيم، وشرب العاصي دون ذلك، وانصرف من القوم ستة وسبعون ألفاً، وبقي بعضُ المؤمنين لم يشرب شيئاً، وأخذ بعضهم العَرْفَةَ، فأما من شرب فاشتد به العطشُ وسقط، وأما من ترك الماءَ فحسن حاله، وكان أجلد ممن أخذ العَرْفَةَ.

وحكمة هذا الامتحان: ليتخلص للجهاد المطيعون المخلصون، إذ لا يقع النصر إلا بهم، فلما جاوز النهر طالوتُ ومن بقي معه ممن لم يشرب قال بعضهم

لبعض: { لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده }؛ لكثرتهم وقلة عددنا، { قال الذين يظنون } أي: يَتَيَقَّنُونَ { أنهم ملاقوا الله } ويتوقعون ثواب الشهادة وهم الخُلصُّ من أهل البصيرة: لا تفرعوا من كثرة عددهم { كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله } وإرادته ومعونته، و { كم } للتكثير، { والله مع الصابرين } بالنصر والمعونة.

الإشارة: قال بعض الحكماء: الدنيا كنهز طالوت، لا ينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفةً بيده، فمن أخذ منها قَدَّرَ الضرورةَ كَفَنَهُ، وَتَسَطَّ لِعِبَادَةِ مَوْلَاهُ، ومن أخذ فوق الحاجة حُبس في سجنها، وكان أسيراً في يدها.

وقال بعضهم: طالبُ الدنيا كشارب ماءِ البحر، كلما زاد شربه ازداد عطشه. هـ. وقال صلى الله عليه وسلم: " من أشرب قلبه حُبَّ الدنيا التاط منها بثلاث: بشغل لا ينفذ عنه، وأمل لا يبلغ منتهاه، وحرص لا يدرك مداه " وقال عيسى عليه السلام: الدنيا مزرعة لإبليس، وأهلها حراث له هـ. وقال عليّ رضي الله عنه: الدنيا كالحية: لَيِّنَ مسها، قاتل سمها، فكن أحذر ما تكونُ منها، أسَرَ ما تكون بها؛ فإن من سكن منها إلى إيناس أزاله عنها إيحاش. @ وقال عليه الصلاة والسلام: " مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ لَا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا، وَلَا يَنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا " وقال سيدنا عليّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ -: أول الدنيا عناء، وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب، ومتشابها عتاب، من استغنى فيها فُتن، ومن افتقر فيها حزن. هـ. وقيل: الدنيا تُقبل إقبال الطالب، وتُدبر إدبار الهارب، وتصل وصال الملول، وتُفارق فراق العجول، خيرها يسير، وعمرها قصير، ولذاتها فانية، وتبعاتها باقية.

وقال عيسى عليه السلام: تعملون للدنيا، وأنتم تُرزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة، وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل. هـ. وقيل: أوحى الله إلى الدنيا: مَنْ خَدَمَنِي فَخَدِمِيهِ، وَمَنْ خَدَمَكَ فَاسْتَحْدِمِيهِ.

وكان عمرُ بنُ عبد العزيز يتمثل بهذه الأبيات:

نهارك مغرورٌ سهوٌ وغفلةٌ وليلك نومٌ، والأسى لك لازمٌ
تُسَرُّ بما يفتى، وتفرح بالمتى كما سُرَّ باللذات في النومِ حالمٌ
وشغلك فيها سوف تكره عبه كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ
وقال آخر:

هي الدارُ دارُ الأذى والقدى ودارُ الفناء ودارُ العَيْرِ
فلو نلتها بحذافيرها لمتَّ ولم تقضِ منا الوطرُ
أيا مَنْ يؤملُ طولَ الخلودِ وطولُ الخلودِ عليه ضررُ
إذا ما كبرتْ وفات الشبَابُ فلا خيرَ في العيشِ بعد الكِبَرِ

@ { وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَّبِعْ آفَادِمَنَا وَابْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } * { فَهَرَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَآكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } * { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: ولما برز طالوت بقرن معه { لجالوت } ، أي: ظهر في البراز، ودينا بعضهم من بعض، تصرعوا إلى الله واستنصروه، وقالوا: { ربنا أفرغ علينا صبراً } أي: أضبّه علينا صبراً، { وثبت أقدامنا } عند اللقاء لئلا تفرّ، { وانصرنا على القوم الكافرين }. وفي دعائهم ترتيب بليغ؛ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مَدَاحِصِ الحرب المُسببِ عنه، ثم النصر على العدو المرتب عليها غالباً.

فهزم الله عدوّهم وأجاب دعاءهم بإذنه وقدرته، { وقتل داود جالوت }. وقصة قتله: أن أصحاب طالوت كان فيهم ينو إيش، وهو أبو داود عليه السلام ستة أو سبعة، وكان داود صغيراً يرعى غنماً، فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهبن لرؤية هذه الحرب، فمرّ في طريقه، بحجر فناداه: يا داود خذني، فبي تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر ثم آخر فأخذها، وجعلها في مخلاته وسار، فلما حضر البأس خرج جالوت يطلب البراز، وكاع الناس عنقه، أي: تأخروا خوفاً، حتى قال طالوت: من يبرز له ويقتله فأنا أزوجه ابنتي، وأحكّمه في مالي، فجاء داود، فقال له طالوت: اركب فرسي وخذ سلاحي، ففعل، وخرج في أحسن شكله، فلما مشى قليلاً رجع، فقال الناس: جبنّ الفتى، فقال داود: إن الله يسبحانه لم يقتله ولم يُعنى عليه، لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السلاح، ولكني أحب أن أقاتله على عادتي. وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فنزل، وأخذ مخلاته فتقلدها، وأخذ مقلاعه فخرج إلى جالوت، وهو شاك في السلاح، فقال جالوت: أنت يا فتى تخرج إليّ! قال: نعم، قال: هكذا كما تخرج إلى الكلب! قال: نعم، وأنت أهون، قال: لأطعمن لحمك اليوم الطير والسباع، ثم تدانيا فأدار داود فأخذ مقلاعه وأدخل يده إلى الحجارة، فروى أنها التامت، وصارت حجراً واحداً، فأخذه ووضع في المقلاع، وسَمّى الله، وأداره، ورماه، فأصاب رأس جالوت فقتله، وجزّ رأسه، وجعله في مخلاته، واختلط الناس، وحمل أصحاب طالوت فكانت الهزيمة.

ثم إن داود جاء يطلب شرطه من طالوت، فقال: حتى تقتل مائتين من هؤلاء الجرامة الذين يؤذون الناس يؤذون الناس وتجيئني بسلبهم، فقتل داود منهم مائتين، وجاء بذلك، فدفع إليه امرأته وتخلّى له على الملك. ولما تمكن داود - عليه السلام - من الملك، أجلى من بقي من قوم جالوت إلى المغرب، فمن بقيتهم البرابرة من الشلوح وسائر الأرياف.

فآتي الله داود { الملك والحكمة } وهي النبوة، وقيل: صنعة الدروع ومنطق الطير { وعلمه مما يشاء } من أنواع العلوم والمعارف والأسرار، وقد دفع الله بأس الكافرين ورد كيدهم في نحرهم، { ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض } أي: لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، فينصر المسلمين على الكافرين، ويكف فسادهم، لغلّبوا وأفسدوا في الأرض.
@أو: لولا أن الله نصب السلطان، وأقام الحكام لينصفوا المظلوم من الظالم. ويردوا القوي عن الضعيف، لتواثب الخلق بعضهم على بعض، وأكل القوي الضعيف فيفسد النظام. أو: لولا أن الله يدفع بالشهود عن الناس في حفظ الأموال والنفوس والدماء والأعراض، لوقع الفساد في الأرض.

أو: لولا أن الله يدفع بأهل الطاعة والإحسان عن أهل الغفلة والعصيان، لفسد الأرض بشؤم أهل العصيان. وفي الخبر عنه صلى الله عليه وسلم: " إنَّ الله

يَدْفَعُ بِالْمُصَلِّيِّ مِنْ أُمَّتِي عَمَّنْ لَا يُصَلِّي، وَيَمْنُ بُرْكَتِي عَمَّنْ لَا يُرْكَتِي، وَيَمْنُ بِصُومٍ، عَمَّنْ لَا يَصُومُ، وَيَمْنُ بِحُجٍّ، عَمَّنْ لَا يَحُجُّ، وَيَمْنُ بِجَاهِدٍ عَمَّنْ لَا يَجَاهِدُ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى تَرْكِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مَا أَنْظَرَهُمُ اللَّهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ."

وفي حديث آخر: "لولا عباد الله رُكِعَ، وصيبة رُضِعَ، لصَبَّ عليكم العذاب صبًّا"

وروى جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله ليُضِلِّحُ بِصَلَاةِ الرَّجُلِ - ولده وولده ولده، وأهل دُوبَرَتِهِ، ودويراتٍ حوله، ولا يزالون في حَفْظِ اللَّهِ مَا دَامَ فِيهِمْ" هـ. فهذا من فضل الله على عباده يصلح طالهم بصلاتهم، ويُسَفِّعُ خِيَاظَهُمْ فِي شَرَارِهِمْ، ولولا ذلك لعوجلوا بالهلاك، { ولكن الله ذو فضل على العالمين }.

{ تلك } يا محمد، { آيات الله } والإشارة إلى ما قصَّ من حديث الألوْفِ، وتمليك طالوت، وإتيان التابوت، وانهزام الجابرة أصحاب جالوت، { نلتوها } أي: نقصها عليكم { بالحق } أي: بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ، { وإنك لمن المرسلين } حيث أخبرت بها من غير تعرف ولا استماع ولم يعهد منك تعلم ولا اطلاع، فلا يشك أنه من عند الخبير العليم، إلا من طبع الله على قلبه. نعوذ بالله من ذلك.

الإشارة: " من علامة النُّجْحِ فِي النِّهَايَاتِ الرَّجُوعُ إِلَى اللَّهِ فِي الْبِدَايَاتِ " ، فإذا برز المرید لجهاد أعدائه من النفس وَالْهَوَى وَالشَّيْطَانِ وَسَائِرِ الْقُطَاعِ، واستنصر بالله وتبرأ من حوله وقوته، كان ذلك علامة على نصره وظفره بنفسه، وكان سبباً في نجاح نهايته، فيملكه الله الوجود بأسره، ويفتح عليه من خزائن حكمته. قال أبو سليمان الداراني " (إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام، جالت في الملكوت ثم عادت إلى صاحبها بطرائف الحكيم من غير أن يُؤدِّيَ عَالَمٌ عِلْمًا). وفي الخبر: " من عَمِلَ بِمَا عِلِمَ أُوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمًا مَا لَمْ يَعْلَمْ " . وكان حينئذٍ رحمة للعباد، يدفع الله بوجوده العذاب عمن يستحقه من عباده.

وفي الحديث القدسي: " يقول الله عزَّ وجلَّ: " إذا كان الغالب على عبدي الاشتغالُ بي جعلتُ همته ولدته في ذكري، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه، لا يسهو إذا سها الناس، أولئك كَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ، أولئك الْأَبْطَالُ حَقًّا، أولئك الَّذِينَ إِذَا أُرِدْتُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ عَقُوبَةً أَوْ عَذَابًا ذَكَرْتَهُمْ فَصَرَفْتَهُ بِهَمِّ عَنَّهُمْ " حَقَّقْنَا اللَّهُ بِمَحَبَّتِهِمْ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ... آمين.

ولمَّا ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ جَمَلَةً مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وشهد لرسوله صلى الله عليه وسلم أنه من المرسلين ذكر تفضيل بعضهم علي بعض في الجملة. @ { تِلْكَ الرُّسُلُ فَصَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَيَا بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَنَاتُ وَلَا كُنْ أَحْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلْنَا وَلَا كُنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }

{ تِلْكَ الرُّسُلُ فَصَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَيَا بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ... }

{ قلت } : { تلك } : مبتدأ، و { الرسل } : نعت، أو بدل منه، أو بيان، و { فضلنا } : خبر، أو { الرسل } : خبر، و { فضلنا } : خبر ثان، والإشارة إلى الجماعة المذكور قَصَّصُهَا في السورة.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { تلك الرسل } الذين قصصناهم عليك، وذكرْتُ لك أنك منهم، { فضلنا بعضهم على بعض } بخصائص ومناقب لم توجد في غيره. لكن هذا التفضيل إنما يكون في الجملة من غير تعيين المفضل، لأنه تنقيص في حقه وهو ممنوع. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: " لا تُحَيَّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ " " ولا تفضلوني على يونس بن متى " فإن معناه النهي عن تعيين المفضل، لأنه غيبة وتنقيص، وقد صرَّح صلى الله عليه وسلم يفضله على جميع الأنبياء بقوله: " أَا سَيِّدٌ وَّلِدِ آدَمَ وَلَا فَحْرَ " ولكن لا يُعَيَّنُ أَحَدًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمَفْضُولِيَّةِ؛ لِثَلَا يُؤَدِي إِلَى نَقْصِهِ، فَلَا تَعَارُضُ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ.

{ منهم مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ } وهو موسى عليه السلام في جبل الطور، وسَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَانَ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، { ورفع بعضهم درجات } وهو نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فَإِنَّهُ خُصَّ بِالِدَعْوَةِ الْعَامَّةِ، وَالْحُجَّجِ الْمُتَكَثِّرَةِ، وَالْمُعْجَزَاتِ الْمُسْتَمِرَّةِ، وَالآيَاتِ الْمُتَعاقِبَةِ بِتَعاقِبِ الدَّهْرِ، وَالْفَضَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ الْفَائِتَةِ لِلْحَصْرِ. وَالإِهْامِ لِتَفْخِيمِ شَأْنِهِ، كَأَنَّهُ الْعِلْمُ الْمَشْهُورُ الْمُتَعَيَّنُ لِهَذَا الْوَصْفِ الْمُسْتَغْنِي عَنِ التَّعْيِينِ. وَقِيلَ: إِبْرَاهِيمَ، خَصَّهُ بِالْخَلَّةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ. قُلْتُ: بَلِ الْمَحَبَّةُ أَعْلَى مِنْهَا، وَقِيلَ: إِدْرِيسَ لِقَوْلِهِ: { وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا } [مريم: 57]، وَقِيلَ: أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرِّسْلِ، قَالَه الْبِيضَاوِيُّ.

{ وآتينا عيسى ابن مريم البينات } أي: الآيات الواضحات، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، { وأيدناه بروح القدس } ، أي: جبريل عليه السلام كان معه أينما سار، وخصَّه بالتعيين؛ فأفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه، فردَّهم إلى الصواب باعتقاده نبوته دون ربوبيته.

الإشارة: كما فضَّلَ اللهُ الرِّسْلَ بعضهم على بعض، كذلك فضل الأولياء بعضهم على بعض، وإنما يقع التفضيل بكمال اليقين، والتغلغل في علم التوحيد الخاص، ذوقاً وكشفاً، والترقي في المعارف والأسرار، وذلك بخدمة الرجال وصحبة أهل الكمال، والتفرغ التام، والزهد الكامل في النفس والقلس والجنس، فمنهم من تحصل له المشاهدة وتصحبها المكاملة، ومنهم من تحصل له المشاهدة دون المكاملة، ومنهم من تحصل له الكرامات الواضحة، ومنهم من لا يرى شيئاً من ذلك استغناءً عنها بكرامة المعرفة. وما قيل في الرسل من عدم تعيين المفضل، مثله يقال في حق الأولياء، وإلا وقع في الغيبة الشنيعة؛ فإن لحوم الأولياء سموم، فليعتقد الكمال في الجميع، ولا يصح بتعيين المفضل كما تقدم.
@والله تعالى أعلم.

ولما ذكر الحقُّ تعالى أحوال الرسل، وتفاوتهم في العناية، ذكر أحوال أممهم وتفاوتهم في الهداية، فقال:

{... وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَئِنْ
أَخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَئِنَّ اللَّهَ
يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }

قلت: إذا وقع فعل المشيئة بعد { لو } فالغالب حذف مفعوله، كقوله:
{ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا }

[الأعراف: 176]، أي: لو شئنا رفعه لرفعناه بها، وكقوله: { ولو شاء الله ما
اقتل... } ، أي: لو شاء هدايتهم ما اقتتلوا، وغير ذلك.

يقول الحق جلّ جلاله: ولما بعثت الرسل، وفصلت بعضهم على بعض، اختلفت
أممهم من بعدهم فاقتتلوا، وكل ذلك بإرادتي ومشيتي، { ولو شاء الله } هداية
أممهم { ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم } المعجزات الواضحات
في تحقيق رسالتهم وصحة نبوتهم، { ولكن اختلفوا } بغياً وحسداً؛ { فمنهم من
آمن } بتوفيقه لاتباع دين الأنبياء، { ومنهم من كفر } بمخالفتهم، فكان من
الأشقياء، { ولو شاء الله } جمّعهم على الهدى { ما اقتتلوا } ، لكن حكمته
اقتضت وجود الاختلاف؛ ليظهر سر اسمه المنتقم والقهار واسمه الكريم
والحليم، { ولكن الله يفعل ما يريد }
{ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ }
[الأنبياء: 23].

وفي الآية دليل على أن الحوادث كلها بيد الله خيرها وشرها، وأن أفعال العباد
كلها بقدرته تعالى، لا تأثير لشيء من الكائنات فيها. وهذا يرد قول المعتزلة
القائلين بخلق العبد أفعاله، فما أبعدهم عن الله. نسأل الله العصمة بمته
وكرمه.

الإشارة: اختلاف الناس على الأولياء سنة ماضية وحكمة أزلية،

{ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا }

[الأحزاب: 62]،

{ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ }

[هُود: 118]، فمن رأيت من الأولياء اتفق الناس على تعظيمه في حياته فهو
ناقص أو جاهل بالله؛ إذ الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور،
وهذا هو الغالب، والنادر لا حكم له، فلو كان الاتفاق محموداً لكان على الأنبياء
أولى، فلما لم يقع للأنبياء والرسل، لم يقع للأولياء؛ إذ هم على قدمهم،
وقائمون بالوراثة الكاملة عنهم. والله تعالى أعلم.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ
وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ }

يقول الحق جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم } واجباً أو
تطوعاً في وجوه الخير، وخصوصاً في الجهاد الذي نحن بصدده الحص عليه،
وقدموا لأنفسكم ما تجدونه بعد موتكم { من قبل أن يأتي يوم } الحساب،
واقضاء الثواب، يوم ليس فيه { بيع } ولا شراء، فيكتسب ما يقع به الفداء،
وليس فيه { خلة } تنفع إلا خلة الأتقياء { ولا شفاعة } ترجى
{ إِلَّا مَنْ أَدِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا }

[طه: 109] فأنفقوا مما حولناكم في سبيل الله، وجاهدوا الكافرين أعداء الله، فإن الكافرين { هم الظالمون }؛ حيث وضعوا عبادتهم في غير محلها، ونسبوا الربوبية لغير مستحقها، إذ لا يستحقها إلا الحي القيوم.

@ {لَلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ }

قلت: { الله } : مبتدأ، وجملة { لا إله إلا هو } : خبره، والضمير المنفصل بدل من المستتر في الخبر، و { الحي } : إما خبر ثاني، أو لمبتدأ مضمرة، أو بدل من { الله } ، و { قيوم } : قِيْعُول، مبالغة من القيام، ومعناه: القائم بنفسه المستغني عن غيره.

يقول الحق جلّ جلاله: { الله } الواجب الوجود لا يستحق العبادة غيره، فمن عبد غيره فقد أتى بظلم عظيم { الحي } أي: الدائم بلا أول، الباقي بلا زوال؛ الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، { القيوم } أي: دائم القيام بتدبير خلقه في إيصال المنافع ودفْع المضار، وجلب الأرزاق وأنواع الارتقاء، { لا تأخذه سنة ولا نوم } : السنة: ما يتقدم النوم من الفتور، والنوم: حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، فتقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً.

وتقديم السنّة عليه، على ترتيب الوجود، كقوله تعالى:

{ وَلَا يُنْفِقُونَ تَفَقَّهً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً }
[التوبة: 121]، وجمع بينهما؛ لأنه لو اقتصر على نفس السنّة عند لتوهم أن النوم يغلبه لأنه أشد، ولو اقتصر على نفي النوم لتوهم أن السنة تلحقه لخفتها. والمراد تنزيهه تعالى عن آفات البشرية، وتأكيد كونه حيّاً قيوماً، فإن من أخذه نعاس أو نوم يكون مؤوف الحياة، قاصراً في الحفظ والتدبير. ولذلك ترك العطف فيه وفي الجمل التي بعده؛ لأنها كلها مقررة له، أي: للحي للقيوم.

وقد ورد أنه اسم الله الأعظم، وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة - رضي الله عنها: " ما منَعَكَ أن تَسْمَعِي ما أوصيك به تَقُولينِ إذا أَصْبَحْتِ وإذا أُمْسَيْتِ يا حَيِّ يا قَيُّومَ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكْلِنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ " رواه النسائي وأخرج مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: " قَامَ فَيَتَأَمَّرُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَمْسِ كَلِمَاتٍ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَتَّبَعِي لَهُ أَنْ يَتَأَمَّ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ. يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، جَاءَهُ النَّورُ " - وفي رواية. النَّارُ - " لَوْ كَسَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَدْرَكَه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ " .

له ما في السماوات وما في الأرض { هذا تقرير لقيوميته تعالى، واحتاج على تفرد في الألوهية. والمراد بما فيها: ما هو أعمُّ من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما، المتمكنة فيهما، من العقلاء وغيرهم، فهو أبلغ

من (له السماوات والأرض وما فيهن)، يعني: أن الله يملك جميع ذلك من غير شريك ولا منازع، وعبر بـ { ما } تغليياً للغالب.

{ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه } هذا بيان لكبرياء شأنه، وأنه لا يدينه أحد ليقدر على تغيير ما يريد به شفاعته واستكانته، فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة.

@والاستفهام إنكاري، أي: لا أحد يشفع عنده لمن أراد تعالى عقوبته، إلا بإذنه، وذلك أن المشركين زعموا أن الأصنام تشفع لهم، فأخبر تعالى أنه لا شفاعته عنده إلا بإذنه، يريد بذلك شفاعته النبي صلى الله عليه وسلم وبعض الأنبياء والأولياء والملائكة.

{ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم } أي: ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس، لأنك تستقبل المستقبل وتستدبر الماضي؛ وقيل: { يعلم ما بين أيديهم } من الدنيا { وما خلفهم } من الآخرة، وقيل: عكسه، لأنهم يقدمون ويخلفون الدنيا وراءهم، وقيل: يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر، وما خلفهم وما هم فاعلوه، أو عكسه. والمراد أنه سبحانه أحاط بالأشياء كلها، فلا يخفى عليه شيء { ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء } أي: لا يحيطون بشيء من معلوماته تعالى إلا بما شاء أن يُطلعهم عليه، وعطفه على ما قبله؛ لأن مجموعته يدل على تفردته تعالى بالعلم الذاتي التام، الدال على وحدانيته تعالى في ذاته وصفاته.

{ وسع كرسيه السماوات والأرض } يقال: فلان يسع الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به. ويقال: وسع الشيء الشيء إذا أحاط به وغمره حتى اضمحل في جانبه، وهذا المعنى هو اللائق هنا. وأصل الكرسي في اللغة: من تركب الشيء بعضه على بعض، ومنه الكراسية، لتركب أوراقها بعضها على بعض، وفي العرف: اسم لما يُقعد عليه، سُمي به لتركب خشباته. واختلف فيه فقيل: العرش، وقيل: غيره.

والصحيح أنه مخلوق عظيم أمام العرش، فوق السماوات السبع دون العرش. يقال: إن السماوات والأرض في جنب الكرسي كحلقة في فلاة. والكرسي في جانب العرش كحلقة في فلاة. وعن ابن عباس: (أن السماوات في الكرسي كدراهم سبعة في تُرس) وقيل: كرسية: علمه.

قال البيضاوي: هو تصوير لعظمته تعالى وتمثيل مجرد، كقوله: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ }

[الزمر: 67] ولا كرسي في الحقيقة ولا قاعد. وقيل: كرسية مجاز عن علمه أو ملكه، مأخوذ من كرسي العلم والملك، وقيل: جسم بين يدي العرش محيط بالسماوات السبع لقوله - عليه الصلاة والسلام -: " ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة في فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة " ولعله الفلك المشهور بفلك البروج. هـ. قلت: وقد اعترض السيوطي في حاشيته عليه. فالله تعالى أعلم.

{ ولا يؤوده } أي: لا يُثقله ولا يُشقُّ عليه { حفظهما } أي: حفظ السماوات والأرض. وإنما لم يتعرض لذكر ما فيهما لأن حفظهما مُسْتَتَعٍ لحفظه، { وهو العلي } أي: المتعالي عن الأشباه والأنداد، { العظيم } أي: عظيم الشأن، جليل القدر، الذي يُستحفرُ كلُّ شيءٍ دون عظمته.

وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في الألوهية، متصف بالحياة الذاتية، واجب الوجود لذاته، موجد لغيره؛ إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزه عن التحيز والحلو، مُبَرَّأً عن التغير والفتور، لا يناسب الأشباح، ولا يعتربه ما يعترى الأرواح، مالك الملك والملكوت، مبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفع عنده إلا من أذن له.

@عالم بالأشياء كلها: جَلِيَّهَا وَخَفِيَّهَا، وَكُلِّيَّهَا وَجَزِيَّتَيْهَا. واسع الملك والقدرة لكل ما يصح أن يملك ويقدر عليه، لا يشقُّ عليه شاقٌّ، ولا يشغله شأن عن شأن، مُتَعَالٍ عن تناول الأوهام، عظيمٌ لا تحيط به الأفهام، ولذلك تفردت عن أخواتها بفضائل رائعة وخواص فائقة، قال صلى الله عليه وسلم: "أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ" وقال عليه الصلاة والسلام: "مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ دُبَّرَ كُلُّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْتَنِعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا الْمَوْتُ" - وفي رواية - "كَانَ الَّذِي يَتَوَلَّى قَبْضَ رُوحِهِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ - وَلَا يُوَاطِبُ عَلَيْهَا إِلَّا صِدِّيقٌ أَوْ عَابِدٌ، وَمَنْ قَرَأَهَا إِذَا أَحْذَى مَضْجَعَهُ أَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ وَجَارِهِ وَجَارِ جَارِهِ، وَالْآيَاتِ حَوْلَهُ".

وقال عليه الصلاة والسلام: " ما قُرئت هذه الآية في بَيْتٍ إِلَّا هَجَرَتْهُ الشَّيَاطِينُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَلَا يَدْخُلُهُ سَاحِرٌ وَلَا سَاحِرَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، يَا عَلِيُّ؛ عَلِمَهَا وَلَدَكَ وَأَهْلَكَ وَجِيرَاتِكَ، فَمَا نَزَلَتْ آيَةُ أَعْظَمُ مِنْهَا " قاله البيضاوي وأبو السعود، وتكلم السوطي في بعض هذه الأحاديث. والفضائل يعمل فيها بالضعيف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أيمان أهل الخصوصية -
{ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ }

[البقرة: 254] من سعة العلوم ومخازن الفهوم، من قبل أن يأتي يوم اللقاء، يوم تسقط فيه المعاملات وتغيب تلك الإشارات، لا ينفع فيه إلا الدخول من باب الكرم، فيلقى الله بالله دون شيء سواه، والجاحدون لهذا هم الظالمون لأنفسهم، حيث اعتمدوا على أعمالهم فلقوا الله بالصنم الأعظم، والحيُّ اليَوْمِ الكبير المتعال غني عن الانتفاع بالأعمال، وبالله التوفيق.

وَمَنْ عَرَفَ أَنَّهُ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ. قال تعالى:
{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ }

[الفرقان: 58]. والتعلق به: استمداد حياة الروح بالعلم والمحبة الكاملة. ومن عرف أنه الحيُّ القيوم وثق به، ونسي ذكر كل شيء بذكره، ولم يشاهد غيره بمشاهدة قيوميته. والتعلق به استمداد معرفة قيوميته حتى يستريح من نكد التدبير، والتخلق به بأن تكون قائماً على ما كُلفَت به من أَهْلِ وَوَلَدٍ وَنَفْسٍ وَمَالٍ، وَكُلِّ مَنْ تَعَلَّقَ بِكَ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ.

ولمَّا وصف الحيُّ تعالى نفسه بأوصاف الكمال من الكبرياء، والعظمة والجلال وكانت شواهد ذلك ظاهرة في خلقه حتى تبيَّن الحق من الباطل @ { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }

قلت: { الرُّشْدُ } مصدر رَشُدٌ، بالكسر والضم، رشداً ورشاداً، و { الغي } مصدر غَوَى، إذا ضلَّ مُعْتَقِدُهُ، و { الطَّاغُوتِ } فعلوت من الطغيان، وأصله: طغيوت، فقلبت لام الكلمة لعينها فصار طيغوت، ثم قلبت الياء ألفاً. وهو كل ما عُبد من دون الله راضياً بذلك، و { العروة } ما تستمسك به اليد عند خوف الزلل كالجبل ونحوه، ووثوقها: متانتها، وانفصامها أن تنفك عن موضعها، وأصل الفصم في اللغة: أن ينفك الخلال ونحوه ولا يبين، فإذا بان فهو القَصْمُ - بالقاف - وهو هنا استعارة للدين الصحيح.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: في شأن رجلٍ من الأنصار، تَنَصَّرَ ولداه قبل البعثة فلما جاء الإسلام قَدِمَا إلى المدينة فدعاهما أبوهما إلى الإسلام فامتنعا، قَلَزَمَهُمَا أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تُسَلِّما، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله: { لا إكراه في الدين }، فهو خبر بمعنى النهي، أي: لا تُكرهوا أحداً على الدخول في الدين. وهو خاص بأهل الكتاب.

قال البيضاوي: إذ الإكراه في الحقيقة هو: إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً، ولكن { قد تبين الرشد من الغي } أي تميَّز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفر غيٌّ يوصل إلى الشقاوة السرمدية. والعافل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء. هـ.

{ فمن يفكر بالطَّاغُوتِ } أي: يبعد عنها ويجحد ربوبيتها { ويؤمن بالله } أي: يصدق بوحدانيته، ويقر برسله، { فقد استمسك بالعروة الوثقى } أي: فقد تسمك بالدين المتين، لا انقطاع له أبداً، { والله سميع } بالأقوال، { عليم } بالنيات، فإنَّ الدين مشتمل على قول باللسان وعقد بالجنان، فحسن التعبير بصفة السمع والعلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال في الحكم: " لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك ". وقال أحمد بن حنبل: الطريق واضح، والحق لائح، والداعي قد أسمع، ما التحير بعد هذا إلا من العمى. هـ. فطريق السير واضحة لمن سبقته له العناية، باقية إلى يوم القيامة، وكل ما سوى الله طاغوت، فمن أعرض عن السَّوَى، وعلق قلبه بمحبة المولى، فقد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها على طول المدى، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { لِلَّهِ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }

قلت: الولي: هو المحب الذي يتولى أمور محبوبه، أو الناصر الذي ينصر محبوبه، ولا يخذله بأن يكله إلى نفسه. وجملة { يخرجهم } : حال من الضمير المستتر في الخبر، أو من الموصول أو منها، أو خبر ثان.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { الله ولي الذين آمنوا } أي: محبهم ومتولي أمورهم، { يخرجهم من } ظلمات الكفر والجهل، ومتابعة الهوى وقبول الوسواس، والشبه المشكّلة في التوحيد - إلى نور الإيمان واليقين، وصحة التوحيد، ومتابعة الداعي إلى الله، { والذين كفروا أولياؤهم } أي: أحباؤهم { الطاغوت } أي: الشياطين، أو المضلات من الهوى والشيطان وغيرهما، { يُخرجونهم من النور } الذي مُنحوه بالفطرة الأصلية، أو يصدونهم من الدخول في الإيمان إلى ظلمات الكفر والجهل، والتقليد الرديء واتباع الهوى، { أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } بسبب نيّاتهم البقاء على الكفر إلى الممات، ولم يذكر في جانب المؤمنين دخول الجنة؛ لتكون عبادتهم عبودية، لا خوفاً ولا طمعاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: { الله ولي الذين آمنوا }؛ حيث تولاهم بسابق العناية، وكلاهم بعين الرعاية، يخرجهم أولاً من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ثم من ظلمات الحس ورؤية الأكوان إلى نور المعاني بحصول الشهود والعيان، فافن عن الإحساس تر عبراً. " الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه ". أو تقول: الكون كله ظلمة لأهل الحجاب، وأما عند أهل المعرفة فالكون عندهم كله نور، وإنما حجه ظهور الحكمة فيه، " فمن رأى الكون ولم يشهد النور فيه، أو قبله، أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شمس المعارف بسحب الآثار ". والذين كفروا - وهم الذين سبق لهم الشقاء، وحكم عليهم بالبعد القدر والقضاء - أولياؤهم الطاغوت، وهم القواطع: من الهوى والشيطان والدنيا والناس، { يخرجونهم من النور إلى الظلمات } أي: يمنعونهم من شهود تلك الأنوار السابقة، إلى الوقوف مع تلك الظلمات المتقدمة، فهم متعاكسون مع من سبقت لهم العناية، فما خرج منه أهل العناية وقع فيه أهل الغواية. نسال الله الحفظ والعافية في الدنيا والآخرة.

@ { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

قلت: { أن آتاه } : على حذف لام العلة، و { إذ قال } : ظرف لـ { حاجَّ } ، أبو بدل من { آتاه الله } .

يقول الحقّ جلّ جلاله: متعجباً من جهالة النمرود، والمراد تعجب السامع: { ألم تر } يا محمد، { إلى } جهالة { الذي حاج إبراهيم } أي: خاصمه { في ربه } لأجل { أن } أعطاه { الله الملك } ، أي: حمّله على ذلك بطر الملك. وذلك أنه لما كسّر إبراهيم الأصنام، سجنه أياماً، وأخرجه من السجن، وقال له: من ربك الذي تعبد؟ { قال } له { إبراهيم } عليه السلام: { ربي الذي يحيي

وبميت { ، أي: يخلق الأرواح في الأجسام، ويخرجها عند انقضاء آجالها، } قال { نمروود: } { أنا أحيي واميت { ، فدعا برجلين فقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فلما رأى إبراهيم عليه السلام غلظه وتشغيبه عدل له إلى حجة أخرى، لا مقدور للبشر على الإتيان بمثلها، قال له: { فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها { أنت { من المغرب {؛ لأنك تدعي الربوبية، ومن شأن الربوبية أن تقدر على كل شيء، ولا يعجزها شيء، { فبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ { أي: غُلب وصار مبهوتاً، { والله لا يهدي القوم الظالمين { إلى قبول الهداية، أو إلى طريق النجاة، أو إلى محجة الاحتجاج.

الإشارة: قال بعض الحكماء: للنفس سر، ظهر على فرعون والنمرود، حتى صرّحا بدعوى الربوبية: قلت: وهذا السر هو ثابت للروح في أصل نشأتها؛ لأنها جاءت من عالم العز والكبرياء. انظر قوله تعالى:

{ وَتَفَحَّطُ فِيهِ مِنْ رُوحِي {

[الحجر: 29]، وقال أيضاً:

{ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي {

[الإسراء: 85] أي: سر من أسرارهِ، فلما رُكبت في هذا القلب الذي هو قالب العبودية - طلبت الرجوع إلى أصلها. فجعل لها الحقَّ جلَّ جلاله باباً تدخل منه فترجع إلى أصلها؛ وهو الذل والخضوع والانكسار والافتقار، فمن دخل من هذا الباب، واتصل بمن يعرفه ربه، رجعت روحه إلى ذلك الأصل، وأدركت ذلك السر، فمنها من تتسع لذلك السر وتطيقه، ومنها من تضيق عن حمله وتبوح به، فتقتلها الشريعة، كالحلاج وأمثاله، ومن طلب الرجوع إلى ذلك الأصل من غير بابه، ورام إدراكه بالعز والتكبر، طرد وأبعد، وهو الذي صدر من النمرود وفرعون وغيرهما ممن ادّعى الربوبية جهلاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الحقُّ تعالى من أدركته العناية، وفي قصته برهان على إحياء الموتى الذي احتج إبراهيم - عليه السلام - .

@ { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَيْنَا فَرَبِّهِ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَيْنَا غَرُوبِهَا قَالَ أَنبَأ يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَيْنَا طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَيْنَا حَمَازِكَ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {

قلت: { أو { عاطفة، و { كالذي { معطوف على الموصول المجرور بالي، أي: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، وإلى مثل الذي مرَّ على قرية. وإنما أدخل حرف التشبيه؛ لأن المنكر للإحياء كثير، والجاهل بكيفيته أكثر، بخلاف مدعي الربوبية فإنه قليل. وقيل: الكاف مزيدة، والتقدير: ألم تر إلى الذي حاج وإلى الذي مرَّ، و { أتى { ظرف ليحيي، بمعنى: متى، أو حال بمعنى كيف، و { يتسنه { بمعنى يتغير، وأصله: يتسنن، فأبدلت النون الثالثة حرف علة. قال في الكافية:

وَوَالَيْتِ الْأَمْثَالَ أَبَدَلْتَهُ يَا نَحْوِ (تَطَلَّتِي خَالِدٌ تَطَلَّتِيَا)

فصار تَسَنَّى ثم حُذفت للجازم، وأتى بهاء السَّكَّتْ، وقفا ووصل، كالعِوض من المحذوف، وقيل: من السَّنة، وهو التَّغْيِير، فالهاء أصلية، و { لنجعلك } معطوف على محذوف، أي: لتعتبر ولنجعلك آية للناس.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: ألم تر يا محمد أيضاً إلى مثل الذي { مرَّ على قرية } ، وهو عُرَيْر، حَبْرُ بني إسرائيل - وقيل: غيره - مرَّ على بيت المقدس حين خربها بُخْتَنَصْر { وهي خاوية } ساقطة حيطانها { على عروشها } أي: سقفها، وذلك بعد مائة سنة حتى سقطت العروش، ثم سقطت الحيطان عليها، فلما رآها خالية، وعظام الموتى فيها بالية، { قال } في نفسه: { أتى يحيي هذا الله بعد موتها } أي: متى يقع هذا. اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء، واستعظاماً لقدرة المحيي، إن كان القائل عزيزاً، أو استبعاداً إن كان كافراً، { فأماته الله مائة عام } أي: ألبثه مائة مئة عام، { ثم بعثه } بالإحياء، فقال له على لسان الملك، أو بلا واسطة: { كم لبثت } مائة؟ { قال لبثت يوماً أو بعض يوم } ، وذلك أنه مات ضحى وبعث بعد مائة عام قبل غروب الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس { يوماً } ، ثم التفت فرأى بقية منها، فقال: { أو بعض يوم } على الإضراب، قال له الحقُّ جلَّ جلاله: { بل لبثت مائة عام } .

وذلك أن عزيزاً ذهب ليخترق لأهله فجعل على حمارة سلة عنب وجرة عصير. فلما مرَّ بتلك القرية ربط حمارة، وجعل يتعجب من خرابها وخلائها بعد عمارتها، فقال في نفسه ما قال، فلطف الله به، وأراه كيفية الأحياء عياناً، فأماته مائة عام، حتى بليت عظام حمارة وبقي العصير والعنب كأنه حين جنى وعصر فقال له جلَّ جلاله: { فانظر إلى طعامك } وهو العنب، { وشرايك } وهو العصير، { لم يتسنه } ، أي: لم يتغير بمرور الزمان وطول المدة، { وانظر إلى حمارك } كيف تفرقت أوصاله، ولبيت عظامه، فعلنا ذلك بك لتشاهد قدرتنا، { ولنجعلك آية للناس } بعدك، { وانظر إلى العظام } أي: عظام حمارك، { كيف ننشرها } ، أي: نحياها، من تَسَنَّى الله الموتى: أحياء. أو: كيف ننشرها { بالزاي - أي: نرفع بعضها، ونركبه عليه، { ثم نكسوها لِحماً } .
@ فنظر إلى العظام، فقام كلُّ عظم إلى موضعه، ثم كسى لِحماً وجلداً، وجعل ينهق، { فلما تبين له } ما كان استغربه وأشكل عليه { قال أعلم } عليم اليقين { أن الله على كل شيء قدير } ، أو فلما تبين له الحق، وهو قدرته تعالى على كل شيء، قال لنفسه: { أعلم أن الله على كل شيء قدير } .

رُوي أنه أتى قومه على حمارة، وقال أنا عزيز، فكذبوه، فقرأ التوراة من حفظه، ولم يحفظها أحد قبله، فعرفوه بذلك، وقالوا: هو ابن الله - تعالى عن قولهم - وقيل: لما رجع إلى منزله - وكان شاباً - وجد أولاده شيوخاً، فإذا حدَّثهم بحديث قالوا: حديث مائة سنة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في هذه الآية والتي بعدها، الإشارة إلى الأمر بتربية اليقين والترقي فيه من علم اليقين إلى عين اليقين، فإن الروح ما دامت محجوبة بالوقوف مع الأسباب والعوائد، وبرؤية الحس والوقوف مع الوسائط، لم تخل من طوارق الشكوك وخواطر، فإذا انقطعت إلى ربها، وخرقت عوائد نفسها، كشف لها الحق تعالى عن أستار غيبه، وأطلعها على مكنونات سره، وكشف لها عن أسرار الملكوت، وأراها سنا الجبروت، فنظرت إلى قدرة الحي الذي لا يموت،

وتمتعت بشهود الذات وأنوار الصفات، في هذه الحياة وبعد الممات، فحينئذ ينقطع عنها الشكوك والأوهام، وتتطهر من طوارق الخواطر، وتزول عنها الأمراض والأسقام.

قال في الحكم: " كيف تُحرق لك العوائد وأنت لم تحرق من نفسك العوائد "

فانظر إلى عزيز... ما أراه الحق قدرته عياناً حتى خرق له عوائده فأماته ثم أحياه، فكذلك أنت أيها المرید؛ لا تطمع أن تحرق لك العوائد، فتشاهد قدرة الحق أو ذاته عياناً، حتى تموت عن حظوظك وهواك، ثم تحيا روحك وسرك، فحينئذ تشاهد أسرار ربك، ويكشف الأستار عن عين قلبك. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ثم ذكر الحق تعالى قصة خليه عليه السلام في طلبه رؤية عين القدرة في إحياء الموتى، ليترقى من علم اليقين إلى عين اليقين.

@ { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَيْنَا كُلَّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ {

قلت: رأى: البصرية، إنما تتعدى إلى مفعول واحد، فإذا أدخلت عليها الههزة تعدت إلى مفعولين. وعلقها هنا عن الثاني الاستفهام، { وصرهن إليك } أي: أملهن واطمئنهن إليك. وفيه لغتان: صار يصير ويصور، ولذلك قرئ بكسر الصاد وضمها، { سعيًا } أي حال، أي: ساعيات.

يقول الحق جلّ جلاله: واذكر يا محمد، أو أيها السامع، حين { قال إبراهيم } عليه السلام: يا { رب أني كيف تحيي الموتى } أي: ابصرني كيفية إحياء الموتى، حتى أرى ذلك عياناً، أراد عليه السلام أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، وقيل: لما قال للنمرود: { ربي الذي يحيي ويميت } قال له: هل عاينت ذلك؟ فلم يقدر أن يقول: نعم. وانتقل إلى حجة أخرى، ثم سأل ربه أن يريه ذلك؛ ليطمئن قلبه على الجواب، إن سئل مرة أخرى، فقال له الحق جلّ جلاله: { أولم تؤمن } بأني قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة؟ وإنما قال له ذلك، مع علمه بتحقيق إيمانه؛ لحيه بما أجاب فيعلم السامعون غرضه، { قال } إبراهيم عليه السلام: { بلى } أنت أنك على كل شيء قدير، { ولكن { سألتك } ليطمئن قلبي }؛ إذ ليس الخبر كالعيان، وليس علم اليقين كعين اليقين، أراد أن يضم الشهود والعيان إلى الوحي والبرهان.

يقول الحق جلّ جلاله: { فخذ أربعة من الطير } طاووساً وديكاً وغباباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمام، { فصرهن إليك } أي: اضممهن إليك لتتأملها وتعرف أشكالها، لئلا يلتبس عليك بعد الإحياء أشكالها، { ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً } أي: ثم جزّهن، وافرقت أجزاءهن على الجبال التي تحضرك. قيل: كانت أربعة وقيل: سبعة، { ثم ادعهن } وقل لهن: تعالين باذن الله، { يأتينك سعيًا } أي: ساعيات مسرعات، روي أنه أمر أن يذبحها وينتف ريشها، ويقطعها ويخلط بعضها ببعض، ويوزعها على الجبال، ويمسك رؤوسها عنده، ثم يناديها، ففعل ذلك، فجعل كل جزء يطير إلى الآخر ويلتئم بصاحبه

حتى صارت جثثاً، ثم أقبل إليه فأعطى كل طير رأسه فطار في الهواء. فسبحان من لا يعجزه شيء، ولا يغيب عن علمه شيء، ثم تَبَّه إلى التفكير في عجائب قدرته وحكمته فقال: { واعلم أن الله عزيز } لا يعجزه شيء، { حكيم } ذو حكمة بالغة فيما يفعل وبذر.

الإشارة: من أراد ان تحيا رُوْحُه الحياة الأبدية، وينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، فلا بد أن تموت نفسه أربع موتات:

الأولى: تموت عن حب الشهوات والزخارف الدنيوية، التي هي صفة الطاووس.

الثانية: عن الصولة والقوى النفسانية، التي هي صفة الديك.

الثالثة: عن خسة النفس والدناءة وبعد الأمل، التي هي صفة الغراب.

الرابعة: عن الترفع والمسارة إلى الهوى المتصف بها الحمام.

فإذا ذبح نفسه عن هذه الخصال حيث روحه، وتهذبت نفسه، فصارت طوع يده، كلما دعاها إلى طاعة أتت إليها مسرعة ساعية.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبو الحسن الشاذلي بقوله في حزيه الكبير: (واجعل لنا ظهيراً من عقولنا ومهيماً من أرواحنا، ومسخرأ من أنفسنا، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً).

ولما كانت حياة الروح متوقفة على أمرين: بذل النفوس، ودفع الفلوس وقدم الإشارة إلى الأول بقوله: { وقاتلوا في سبيل الله }.

@ { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } * { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَمَّ لَا يُبْعَثُونَ مَا أَنْقَضُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }

قلت: { مثل الذين } : مبتدأ، و { كمثل } : خبر، ولا بد من حذف مضاف، إما من المبتدأ أو الخبر، أي: مثل نفقة الذين ينفقون كمثل حبة، أو مثل الذين ينفقون كمثل باذر حبة... الخ.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: في التحريض على النفقة في سبيل الله: { مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله } أي: يتصدقون بها في سبيل الله، كالجهاد ونحوه، { كمثل } زارع { حبة أنبتت } له { سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة }، فالمجموع سبعمائة. وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " الحسنبة يعشُر أمثالها، إلى سبعمائة إلى أضغافٍ كثيرة " وإسناد الإنبات إلى الحبة مجاز، والمنبت هو الله، وهذا مثال لا يقتضي الوقوع، وقد يقع في الذرة والدخن في الأرض الطيبة، بحيث تخرج الحبة ساقاً يتشعب إلى سبع شعب، في كل شعبة سنبل، { والله يضاعف } تلك المضاعفة { لمن يشاء } بفضله، على حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، وبحسبه تتفاوت الأعمال في مقادير الثواب،

{ والله واسع } لا يضيق عليه ما يتفضل به من الثواب، { عليم } بنية المنفق وقدر إنفاقه.

ثم ذكر شرطين آخرين في قبول النفقة، فقال: { الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى }. المن: أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه؛ بحيث يقول: أنا فعلت معه كذا، وكذا إظهاراً لميزته عليه. والأذى: أن يتناول عليه بذلك. ويقول: لولا أنا لم يكن منك شيء، مثلاً. فمن فعل هذا فقد ذهبت صدقته هباءً منثوراً، ومن سلم من ذلك، وأنفق ماله ابتغاء وجه الله ف { لا خوف عليهم ولا هم يحزنون }. وقال زيد بن أسلم رضي الله عنه: إذا أعطيت أحداً شيئاً وظننت أن سلامك يتقل عليه فكف سلامك عنه. هـ.

قيل: إن الآية نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهما؛ أما عثمان فإنه جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها. وقال عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة، فصبتها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، قرأه النبي صلى الله عليه وسلم يدخل يده فيها، ويقلبها ويقول: " ما صرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم " زاد في رواية سعيد: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم رافعاً يدعو لعثمان، ويقول: " يا رب عثمان بن عفان، رضيث عنه فارض عنه " وأما عبد الرحمن: فإنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم، صدقة، وأمسك أربعة آلاف لعياله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت " .

وإنما لم يدخل الفاء في قوله: { لا خوف عليهم } ، مع أن الموصول قد تضمن معنى الشرط، إيهاماً بأنهم أهل لذلك، وإن لم يفعلوا، فكيف بهم إذا فعلوا.
@قاله البيضاوي.

الإشارة: التقرب إلى الله تعالى يكون بالعمل البدني وبالعملي المالي، وبالعمل القلبي، أما العمل البدني، ويدخل فيه العمل اللساني، فقد ورد فيه التضعيف بعشر وبعشرين وثلاثين وبخمسين وبمائة، وبأكثر من ذلك أو أقل، وكذلك العمل المالي: قد ورد تضعيفه إلى سبعمائة، وتفاوت ذلك بحسب النيات والمقاصد، وأما العمل القلبي: فليس له أجر محصور، قال تعالى:
{ إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ }
[الرَّمْر: 10]، فالصبر، والخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والتوكل، والمحبة، والرضا، والتسليم، والمعرفة، وحسن الخلق، والفكرة، وسائر الأخلاق الحميدة، إنما جزاؤها: الرضا، والإقبال، والتقريب، وحسن الوصال. قال تعالى:
{ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ }
[التَّوْبَة: 72] أي: أكبر من الجزاء الحسي الذي هو القصور والخور.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: " تفكر ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة ".
فإنما هو كناية عن الكثرة والمبالغة، كقوله تعالى:
{ إِن تَسْتَعْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ }
[التَّوْبَة: 80]. ومثله قول الشاعر:

كُلُّ وَفِيٍّ مِنْ حَبِيْبِي قَدَّرَهُ كَأَلْفِ حَجَّةٍ
أَي: سَنَةً. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

ثم بيّن الحقّ تعالى أن حسن الخلق ولين الجانب أفضل من الصدقة المشوبة.
@ { قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ }

قلت: { قول } مبتدأ، و { خير } خبر، والمسوّغ الصفة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قول } جميل يقوله الإنسان للسائل في حال رده، حيث لم يجد ما يعطيه، { خير } وأفضل عند الله من الصدقة التي يتبعها المن والأذى، ومثال القول المعروف: الله يرزقنا وإياك رزقاً حسناً. والله يغنيننا وإياك من فضله العظيم، وشبه ذلك من غير تعبير ولا كراهية. { ومغفرة } للسائل والعفو عن جفوته وإحاحه، { خير } أيضاً { من صدقة يتبعها } مَنْ، أو { أذى } للسائل، علم الحقّ جلّ جلاله أن الفقير إذا رُدَّ بغير نوال شقّ عليه، فربما أطلق لسانه وأظهر الشكوى فأمر المسؤول بالعفو والتواضع. ولو شاء الحقّ تعالى لأغنى الجميع، لكنه أعطى الأغنياء ليظهر شكرهم، وابتلى الفقراء لينظر كيف صبرهم، { والله } تعالى { غني } عن أنفاق يصحبه مَنْ أو أذى، { حلیم } عن معالجة من يَمُنُّ أو يؤذي بالعقوبة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يُفهم من الآية أن حسن الخلق، ولين الجانب، وخفض الجناح، وكف الأذى، وحمل الجفاء، وشهود الصفاء، من أفضل الأعمال وأزكى الأحوال وأحسن الخلال، وفي الحديث: " إِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ يَعْدِلُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ "

وفي قوله: { والله غني حلیم } تربية للسائل والمسؤول، فترية السائل: أن يستغني بالغنيّ الكبير عن سؤال العبد الفقير، ويكتفي بعلم الحال عن المقال، وتربية المسؤول: أن يحلم عن جفوة السائل فيتلف في الخطاب، ويحسن الرد والجواب. قال في شرح الأسماء: والتخلق بهذا الاسم - يعني الحلیم - بالصفح عن الجنایات، والسّمح فيما يقابلونه به من الإساءات، بل يجازيهم بالإحسان، تحقيقاً للحلم والغفران. هـ.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدْنَىٰ كَالَّذِي يُبْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ فِإِصَابَةٌ وَإِيلٌ فَتَرَكُهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيَّا شَيْءٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }

قلت: { كالذي } الكاف في محل نصب على المصدر، أي: إبطالاً كإبطال الذي ينفق ماله رياء الناس. أو حال، أي: مشبهين بالذي ينفق رياء. و { رياء } مفعول له، والصفوان: الحجر الأملس، والصلد: البارز الذي لا تراب عليه، وجمع الضمير في قوله: { لا يقدرُونَ } باعتبار معنى { الذي }؛ لأن المراد به الجنس.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا } أجر صدقتكم بسبب { المن } بها على المتصدق عليه، { والأذى } الذي يصدر منكم له، بأن تذكروا ذلك للناس، فتكون صدقتكم باطلة، { كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن

بالله واليوم الآخر { ، فإن أجره يوم القيامة يكون هباءً منثوراً، { فمثلته { في انتفاعه بصدقته، وتستتره بها في دار الدنيا، وافتضاحه يوم القيامة، كحجر أملس { عليه تراب { يستتره، فيظن الرائي أنه أرض طيبة تصلح للزراعة، { فأصابه وابل { أي: مطر غزير { فتركه صليداً { حجراً يابساً خالياً من التراب، كذلك المراءون بأعمالهم، ينتفعون بها في الدنيا بثناء الناس عليهم وستر حالهم، فإذا قدموا يوم القيامة وجدوها باطلة، { لا يقدرّون على { الانتفاع بـ { شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين { إلى مرادهم ومصالح دينهم. وفيه تعريض بأن الرياء والمن والأذى من صفة الكافر، ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها. وبالله التوفيق.

الإشارة: تصفية الأعمال على قدر تصفية القلوب، وتصفية القلوب على قدر مراقبة علام الغيوب، والمراقبة على قدر المعرفة. والمعرفة على قدر المشاهدة. والمشاهدة تحصل على قدر المجاهدة.
{ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا {
[العنكبوت: 69]. وفي الحكم: " حسن الأعمال من نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال " والحاصل أن من لم يتحقق بمقام الفناء لا تخلوا أعماله من شوب الخلل، ومن تحقق بالزوال لم ير لنفسه نسبة في عطاء ولا منع، ولا حركة ولا سكون، ولم ير لغيره وجوداً حتى يرجو منه نفعاً ولا خيراً. وفي بعض الإشارات: يا من يراني أمر مَنْ من ترائي بيد من تعصيه. هـ. وفي تمثيله بالحجر إشارة إلى قساوة قلبه وبيوسه طبعه، فلا يجرى منه خير قط. والعياذ بالله.

ثم ذكر الحقّ تعالى ضد هؤلاء، وهم المخلصون.

@ { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُبَيِّنَاتٍ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أَكْثَرًا أَكْلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {

قلت: الربوة - مثلثة الراء - : المكان المرتفع، والوابل: المطر الغزير، والطل: المطر الخفيف، وفي ذلك يقول الراجز:

والطلُّ ما خَفَّ من الأمطارِ والوابلُ الغزيرُ ذو أنْهمارِ
و { ابتغاء مَرْضَاتِ الله { و { تبيئات { : حالان من الواقي في: { ينفقون { ، أو مفعولان له. والتثنية بمعنى التثنية، أي: التحقق، كقوله تعالى:
{ وَتَبَيَّنَ إِلَيْهِ تَبْيِيلاً {
[المزمل: 8] أي: تتلاً.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { مثل الذين ينفقون أموالهم { في سبيل الله { ابتغاء مرضات الله { وتحقيقاً { من أنفسهم { بثواب الله، أو تحقيقاً من أنفسهم بالوصول إلى رضوان الله إن بذلوا أموالهم في طلب رضى الله، مَثَلُ نَفَقَتِهِمْ في النمو والارتفاع { كمثلي جنة { أي: بستان { بربوة { بمكان مرتفع، فإن شجره يكون أحسن منظراً وأزكى ثمرًا، { أصابها وابل { أي: مطر غزير { فآتت أكلها { أي: ثمارها { ضعفين { أي: مثلي ما كانت تثمر في عاداتها، أي:

حملت في سنة ما يحمل غيرها في سنتين، بسبب هذا المطر الذي نزل بها، { فإن لم يصبها وابل فطل } أي: فيصيبها طل، أي: مطر قليل يكفيها؛ لطيب تربتها وارتفاع مكانها، فأقل شيء يكفيها.

والمراد: أن نفقات هؤلاء، لإخلاصهم وكمال يقينهم، كثيرة زاكية عند الله، وإن كانت قليلة في الحسب فهي كثيرة في المعنى. وفي الحديث: " مَنْ تَصَدَّقَ وَلَوْ بِلُقْمَةٍ وَقَعَتْ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ فَيُرَبِّبُهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ أَوْ قَصِيلَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجِبَلِ " وفي قوله: { والله بما تعلمون بصير }؛ تحذير من الرياء، وترغيب في الإخلاص. الله تعالى أعلم.

الإشارة: تنمية الأعمال على قدر تصفية الأحوال، وتصفية الأحوال على قدر التحقق بمقامات الإنزال، أي: على قدر التحقق بالإنزال في مقامات اليقين، فكل من تحقق بالنزول في مقامات اليقين، ورسخت قدمه فيها، كانت أعماله كلها عظيمة، مضاعفة أضعافاً كثيرة، فتسيحها واحدة من العارف، أن تهليلة واحدة، تعدل الوجود بأسره، ولا يزنها ميزان، وكذلك سائر أعمال العارف: كلها عظيمة مضاعفة؛ لأنها بالله ومن الله وإلى الله، وما كان بالله ومن الله يطرقة نقص ولا يشوبه خلل، ولأجل هذا صارت أوقاتهم كلها ليلة القدر، وأماكنهم كلها عرفات، وأنفاسهم كلها زكيات، وصحبتهم كلها نفحات، ومخالطتهم كلها بركات. نفعنا الله بذكرهم وخرطنا في سلكهم.

أمين @ { أَيَوُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ }

قلت: الإعصار: عمود من ريح فيه عجاجة، يدور ويرتفع.

يقول الحقّ جلّ جلاله: أيتمنى حدكم { أن تكون له جنة } أي: بستان { من نخيل وأعنان } ، هما الغالبان فيه؛ لكثرة منافعهما، { تجري من تحت تلك الأشجار { الأنهار }؛ إذ من كمال البستان أن يشتمل على الماء البارد والظل الممدود، و { له فيها } أي: في تلك الجنة { من كل الثمرات } زائدة على على النخيل والأعنان، ثم { أصابه الكبر } فضعف عن القيام بتلك الجنة، { وله ذرية ضعفاء } لا يستطيعون القيام بأنفسهم لصغرهم، فأصاب تلك الجنة { إعصار } أي: ريح شديد { فيه نار فاحترقت } تلك الجنة، فلا تسأل عن حسرة صاحب هذا البستان، لخوفه من ضياع نفسه وعياله. وهذا مثال لمن يُكثر من أعمال البر، كالصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وغير ذلك، وهذا يُعجب به، ويفتخر وَيَمُنُّ بصدقته أو يؤذي، فتحبط تلك الأعمال وتذهب، فيتحسر عليها يوم القيامة، وهو أحوج ما يكون إليها. أو يعمل بالطاعة في أيام عمره، فإذا قرب الموت عمل بالمعاصي حتى ختم له بها فحبطت تلك الأعمال، والعياذ بالله { كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون } فيها فتعتبرون، وتخلصون في أعمالكم، وتخافون من سوء عاقبتكم. أعاذنا الله من ذلك.

الإشارة: في الآية تخويف للمريد أن يرجع إلى عوائده، ويلتفت إلى عوالم حسه، فيشتغل بالدنيا بعد أن استشرف على جنة المعارف، تجري على قلبه

أنهار العلوم، فينفضُّ العهد مع شيخه، أو يسيء الأدب معه، ولم يتب حتى تيبس أشجار معارفه، وتلعب به ريح الهوى، فيحترق قلبه بنار الشهوات.

قال البيضاوي: وأشبههم به من جال سره في عالم الملكوت، وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزور، والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباءً منثوراً. هـ.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ }

قلت: { تيمموا } أصله: تميموا، أي تقصدوا، وجملة { تنفقون } : حال مقدره - من فاعل { تيمموا } ، و { منه } : يصح أن يتعلق بـ { تنفقون } أو بـ { الخبيث } ، أي؛ ولا تقصدوا الخبيث حال كونكم تنفقونه، أو لا تقصدوا الخبيث تنفقون منه، و { لستم بأخذيته } : حال أيضاً من فاعل { تنفقون } .

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم } من الأموال في التجارة وغيرها، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يا معشر التجار، أنتم فجار إلا من اتقى وبّر وصدق وقال بالمال هكذا وهكذا "

وقوله: { من طيبات ما كسبتم } أي: من حلاله، أو من خياره، أما في الزكاة فعلى الوجوب، إذ لا يصح دفع الرديء فيها، وأما من التطوع فعلى سبيل الكمال، وأنفقوا أيضاً من طيبات { ما أخرجنا لكم من الأرض } من أنواع الحبوب والثمار والفواكه، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسَ عَرْسًا، أَوْ يَزْرِعَ زَرْعًا، قِيَأَ كُلُّ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا طَائِرٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " ولا تقصدوا { الخبيث } أي: الرديء من أموالكم، فتنفقون منه وأنتم { لستم بأخذيته } في ديونكم { إلا أن تُغمضوا } بصركم فيه، وتقبضونه حياءً أو كرهاً أو مسامحة.

نزلت في قوم كانوا يتصدقون بخبيث التمر وشراره، فنهوا عنه، وأدبهم بقوله: { واعلموا أن الله غني } عن إنفاقكم، وإنما أمركم به منفعة لكم، { حميد } يقبوله وإثابته، فهو فعيل بمعنى الفاعل، مبالغة، أي: يحمد فعلكم ويشكره لكم، إن أحسنتم فيه، وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِنْ اللَّهُ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، لَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ فَيَتَصَدَّقُ مِنْهُ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَنْفِقُ مِنْهُ فَيَبَارِكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتْرِكُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ، وَإِنَّ الْخَبِيثَ لَا يَمْحُو الْخَبِيثُ " .

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص، أنفقوا العلوم اللدنية والأسرار الربانية، من طيبات ما كسبتم؛ من تصفية أسراركم وتزكية أرواحكم، وأنفقوا أيضاً علوم الشريعة وأنوار الطريقة، مما أخرجنا لكم من أرض نفوسكم التي تزكت بالأعمال الصافية والأحوال المرصية.

ولا تيمموا العمل الخبيث أو الحال الخبيث، تريدون أن تنفقوا منه شيئاً من تلك العلوم، فإن ذلك لا يزيد النفس إلا جهلاً وبعداً، فكما أن الحبة لا تنبت إلا في الأرض الطيبة، كذلك النفس لا تُدْفَن إلا في الحالة المرضية، فلا تؤخذ العلوم اللدنية من النفس حتى تدفن في أرض الخمول، وأرض الخمول هي الأحوال المرضية، الموافقة للقواعد الشرعية، وإليه الإشارة بقوله: { ولستم بأخذيهِ } أي: لستم بأخذي العلم اللدني من الحال الخبيث، غلا أن تغيبوا فيه عن جِسِّكم، ومن غلبه الحال لم يبق عليه مقال. وعليها تخرج قصة لص الحَمَام، فلا يقتدى به لغلبة الحال عليه، واعلموا أن الله غني حميد، لا يتقرب إليه إلا بما هو حميد. والله تعالى أعلم.

@ { الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }

قلت: يقال: وعده خيراً ووعدته شراً، هذا إن ذكر الخير أو الشر، وأما إذا لم يذكر فيقال في الخير: وعده، وفي الشر: أوعدته، قال الشاعر:

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمَخْلِفٌ إِيْعَادِي وَمَنْجِرٌ مَّوْعِدِي
و { الفحشاء } هنا: البخل والشح.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { الشيطان يعدكم } أي: يخوفكم { الفقر } بسبب الإنفاق، ويقول في وسوسته: إن أعطيت مالك بقيت فقيراً تتكف الناس، { ويأمركم بالفحشاء } أي: ويأمركم بالبخل والشح، والعرب تسمي البخل فاحشاً، وفي الحديث:

" البخلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس، بعيدٌ من الجنة قريبٌ من النار. والسخي قريبٌ من الله. قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنة، بعيدٌ من النار. ولجاهلٌ سخيٌّ أحبُّ إلى الله من عابدٍ بخيلٍ " وفي حديث آخر: " إنَّ الله يأخذُ بيدَ السَّخِيِّ كلما عثر " { والله يعدكم } في الإنفاق { مغفرةً منه } لذنوبكم، وستراً لعيوبكم، { وفضلاً } أي: خَلفاً أفضل مما أنفقتم في الدنيا والآخرة، { وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه } ، { والله واسع } الفضل والعطاء، { عليم } بما أنفقتم، ولماذا أنفقتم، وفيما أخلصتم، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

الإشارة: إذا توجه المرید إلى الله تعالى، وأراد سلوك طريق التجريد والزهد والانقطاع إلى الله تعالى، تعرض له الشيطان، اختباراً منه تعالى وابتلاء، إذ الحضرة محروسة بالقواطع؛ ليظهر الصادق في الطلب من الكاذب، فيخوفه من الفقر، ويأمره بالوقوف مع الأسباب والعوائد، وهي أفحش المعاصي عند الخواص، إذ إذ الهمة العالية تأنف عن الاشتغال بغير الحضرة الإلهية. والله يعدكم - أيها المتوجهون إليه - مغفرة لذنوبكم، وستراً لعيوبكم، فيغطي وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته، فيوصلكم بما منه إليكم من الفضل والجود، لا بما منكم إليه من المجاهدة والمكابدة،

{ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا }

[الثور: 21]، { والله واسع } الجود والإحسان، { عليم } بمن يستحق الفضل والامتنان.

ومن نتائج الزهد والانقطاع: ورود الحكمة على لسان العبد وقلبه.
@ { يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ }

قال البيضاوي: الحكمة: تحقيق العلم وإتقان العلم. هـ. وقيل: هي سرعة الجواب وإصابة الصواب، وقيل: كل فصل جَزَلٍ من قول أو فعل.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { يُؤْتِي } الحقُّ تعالى { الحكمة من يشاء } من عباده، وهي التفقه في الدين والتبصر في الأمور. قال صلى الله عليه وسلم: { مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَيُلْهِمْهُ رُشْدَهُ } وقيل: الحكمة: الإصابة في الرأي. وقيل: الفهم في كتاب الله. وقيل الفهم عن الله. { ومن يؤت الحكمة } أي: أعطيتها، { فقد أوتي خيراً كثيراً }؛ لأنه حاز خير الدارين، ولا شك أن من حقق العلم بالله وبأحكامه، وأتقن العمل بما أمره الله به، فقد صفا قلبه، وتطهر سره، فصار من أولي الألباب ولذلك قال عقبه: { وما يذكر إلا أولوا الألباب }.

الإشارة: الحكمة هي: شهود الذات مرتديّةً بأنوار الصفات، وهي حقيقة المعرفة، ومن عرف الله هابه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: " رأس الحكمة مخافة الله " وقيل: هي تجريد السر لورود الإلهام، وقيل: هي النور المفروق بين الوسواس والإلهام، وقيل: شهود الحق تعالى في جميع الأحوال. والتحقيق: أن الحكمة هي إبداع الشيء وإتقانه حتى يأتي على غاية الكمال، ويجري ذلك في العلم والعمل والحال والمعرفة.

وقال الفُشَيْرِي: الحكمة: أن يحكم عليك خاطر الحق لا داعي الباطل، وأن تحكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان. ويقال: الحكمة: صواب الأمر، ويقال: هي ألا تغلب عليك رعونات البشرية، ومن لا حكم له على نفسه لا حُكْمَ له على غيره. ويقال: الحكمة: موافقة أمر الله، والسفه: مخالفة أمره، ويقال: الحكمة شهود الحق، والسفه: شهود الغير. قاله المحشي.

واعلم أن الصوفية، في اصطلاحهم، يُعبِّرون عن أسرار الذات بالقدرة، وعن أنوار الصفات - وهي ظهور آثارها - بالحكمة. فالوجودُ كله قائم بين الحكمة والقدرة، فالقدرة تُبرز الأشياء، والحكمة تَسْتَرُها. فربط الأشياء واقترانها بأسبابها تُسمى عندهم الحكمة، وإنفاذ الأمر وإظهار يُسمى القدرة، فمن وقف مع الحكمة حجب عن شهود القدرة، وكان محجوباً عن الله. ومن نفذ إلى شهود القدرة ولم يرتبط مع الأسباب والعوائد كان عارفاً محبوباً. فالعارف الكامل هو الذي جمع بين شهود القدرة وإقرار الحكمة، فأعطى كل ذي حق حقه، وَوَقَّى كل ذي قسط قسطه، لكن يكون ذلك ذوقاً وكشفاً، لا علماً وتقليداً. وباللغة تعالَى التوفيق.

@ { وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذْرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْبَارٍ } * { إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

قلت: النذر: هو الزام المكلف نفسه ما لم يجب، كقوله: لله علي أن أتصدق بكذا، أو أن أصلي كذا، أو أن أصوم كذا، أو إن شفى الله مريضاً فعلي كذا، فمن نطق بشيء من ذلك لزمه، ومن علق بشيء وحصل ذلك لزمه ما نطق به. و { نعماً } أصلها: نعم ما هي، فأدغمت الميم في الميم، وفي { نعم } ثلاث لغات: " نعم " بفتح النون وكسر العين وهي الأصل، وبسكونها، وبكسر النون وسكون العين، فمن قرأ بكسر النون والعين، فعلى لغة كسر العين، وأتبع النون للعين، ومن اختلس، أشار إلى لغة السكون، ومن قرأ بفتح النون وكسر العين، فعلى الأصل وأدغم المثليين، ومن قرأ بفتح النون وسكون العين فعلى لغة { نَعَمْ } بالفتح والسكون، ثم أدغم، ولم يعتبر التقاء الساكنين لعروضه، أو لكون الثاني مُشَدِّداً سهل ذلك. والله أعلم.

ومن قرأ: { وَنَكَفَرُوا } ، بالجزم، فعطف على محل الجزاء، ومن قرأ بالرفع، فعلى الاستئناف، أي: ونحن نكفر، أو: فهو يكفر، على القراءتين.

يقوله الحق جلّ جلاله: { وما أنفقتم من نفقة أو قليلة أو كثيرة، سرّاً أو علانية، في حق أو باطل، { أو نذرتهم من نذر } بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية، { فإن الله يعلمه } ، فيجازيكم عليه، فمن أنفق في طاعة أو نذر قربة كان من المحسنين، ومن أنفق في معصية أو نذر معصية كان من الظالمين. { وما للظالمين من أنصار } ينصرونهم من عذاب الله.

{ إِنْ } تُظْهِرُوا { الصَّدَقَاتِ } ، مخلصين فيها، { فَنِعِمَّا هِيَ } أي: فنعم شيئاً إبداءها، ولا سيما للمقتدى به، فهو أفضل في حقه، { وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ } خفيه { فهو خير لكم }؛ لأنه أقرب للإخلاص، وهذا في التطوع، تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً. وأما الفريضة ففيها تفصيل، فمن خاف على نفسه شوب الرياء أخفى أو تَوَبَّ، وَمَنْ أَمِنَ أَظْهَرَ. فقد ورد أن علانية الفريضة تَفْضُلٌ سَرَّهَا بخمسة وعشرين ضعفاً، فإن فعلتم ما أمرتم به في الوجهين، فقد أحسنتم، { ونكفر عنكم من سيئاتكم } أي: نستتر عنكم بعض ذنوبكم، وقد ورد في صدقة السر أن صاحبها يُظْلَمُ الله يوم لا ظل إلا ظله { والله بما تعملون خبير }؛ لا يخف عليه من أسرّ أو جهّر، ومن أخلص أو خلط، ففيه ترغيب وترهيب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: معاملة العبد مع مولاه: إما أن تكون لطلب الأجور، وإما لرفع الستور، فالأول يُعْطَى أجره من وراء الباب، والثاني يدخل مع الأحاب. وأما العامل للدنيا فهو ظالم لنفسه { وما للظالمين من أنصار } ، وفي بعض الآثار: طالب الدنيا أسير، وطالب الآخرة أجير، وطالب الحق أمير.

ثم الناس في معاملة الحق على أقسام ثلاثة: قسّم يليق بهم الإخفاء والإسرار، وهم طالبوا الإخلاص من المریدين السائرين. وقسّم يليق بهم الإظهار وهم أهل الاقتداء من العلماء المخلصين. وقسّم لا يقفون مع ظهور ولا خفاء، بل مع ما يبرز في الوقت، وهم العارفون الكاملون. ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضي

الله عنه: (من أحبَّ الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أم أخفاه).

والهداية كلها بيد الله، ليس لغيره منها شيء.

@ { لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا كِنَّةَ اللَّهِ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } {

{ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا كِنَّةَ اللَّهِ يَهْدِي مَن يَشَاءُ... }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: لنبه عليه الصلاة والسلام: { ليس عليك } يا محمد { هداهم } أي: لا يجب عليك أن تخلق الهداية في قلوبهم، وليس من شأنك ذلك، إنما أنت نذير تدلُّ على الخير، كالنفقة وغيرها، وتنهى عن الشر كالمَن والأذى، وإنفاق الخبيث، وغير ذلك من المساوئ { ولكن الله يهدي من يشاء } بفضله وإحسانه، فالأمور كلها بيد الله خيرها وشرها، لكن من جهة الأدب { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ } [النساء: 79]. وبالله التوفيق.

الإشارة: ما قيل في الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقال في ورثته من أهل التذكير، فليس بيدهم الهداية والتوفيق، وإنما شأنهم الإرشاد وبيان الطريق، فليس من شأن الدعاة إلى الله الحرص على هداية الخلق. وإنما من شأنهم بيان الحق.

{ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ } [التحل: 37]. والله تعالى أعلم.

ثم رجع الحقُّ تعالى إلي الترغيب في الصدقة والإخلاص فيها، فقال: { ... وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } {

قلت: هذه ثلاث جمل كلها تدل على الترغيب في إنفاق الطيب وإخلاص النية.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وما تنفقوا من خير } قليل أو كثير، فهو { لأنفسكم } لا ينتفع به غيركم، فإن كان طيباً فلأنفسكم، وإن كان خبيثاً فأجره لكم، وإن مننتم به أو آذيتم فقد ظلمتم أنفسكم، وإن أخلصتم فيه فلأنفسكم، وأيضاً إنكم تَدْعُونَ أنكم { ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله }، فكيف تقصدون الخبيث، وتجعلونه لوجه الله؟ وكيف تَمْتُونَ أو تؤذون بها وهي وجه الله؟ هذا تكذيب للدعوى، وكل ما تنفقون من خير قليل أو كثير { يُؤف إليكم } جزاؤه يوم القيامة بسبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ويخلفه لكم في الدنيا، { وأنتم لا تظلمون } شيئاً من أعمالكم إن أخلصتم أو أحسنتم. وستأتي إشارتها مع ما بعدها.

@ { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }

قلت: { للفقراء } متعلق بمحذوف، أي: يعطي ذلك للفقراء، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، والإلحاف: هو الإلحاح في السؤال، وهو أن يلزم المسؤول حتى يعطيه، وهو منصوب على المصدر أو الحال.

يقول الحقّ جلّ جلاله: تجعلون ما تنفقونه { للفقراء الذين أحصروا } أي: حبسوا أنفسهم في { سبيل الله } وهو الجهاد، { لا يستطيعون ضرباً في الأرض } أي: ذهاباً في الأرض للتجارة أو للأسباب، بل شغلهم الجهاد والتبتل للعبادة عن الأسباب، وهم أهل الصّفة، كانوا نجواً من أربعائة من فقراء المهاجرين، يسكنون صفة المسجد، يستغرقون أوقاتهم في العلم والذكر والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: " وقف النبيّ صلى الله عليه وسلم يوماً على أصحاب الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم، فقال: " أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقي من أمتي على النعت الذي أتم عليه، راضياً بما فيه فإنه، من رفقائي "

وقيل: المراد الفقراء مطلقاً، حصرهم الفقر عن الضرب في الأرض للتجارة، { يحسبهم الجاهل } بهم { أغنياء من التعفف } ، أي: من أجل تعففهم عن السؤال، { تعرفهم بسيماهم } من الضعف وريثة الحال. الخطاب للرسول، أو لكل أحد { لا يسألون الناس إلحافاً } ، أي: لا يسألون، وإن سألوا عن ضرورة لم يلحوا، وقيل: نفي للأمرين معاً، ليس لهم سؤال، فيقع فيه إلحاف، كقول الشاعر:

على لا حب لا يهتدى بمثاره
وليس تمّ لا حب ولا منار، وإنما المراد نفيهما، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " من سأل، وله أربعون درهماً، فقد سأل إلحافاً "

{ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم } فيجازي على القليل والكثير، وهذا ترغيب في الإنفاق، وخصوصاً على هؤلاء.

الإشارة: ما أفلح من أفلح، وخسر من خسر، إلا من نفسه وفلسه، فمن جاد بهما، أو بأحدهما، فقد فاز وأفلح وظفر بما قصد، والجود بالنفس أعظم، وهو يستلزم الجود بالفلس، والجود بالفلس، إن دام، يوصل إل الجود بالنفس، والمراد بالجود بالنفس: إسلامها للشيخ يفعل بها ما يشاء، وتكون الإشارة فيها كافية عن التصريح، ومن بخل بهما أو بأحدهما، فقد خسر وخاب في طريق الخصوص، ومصرف ذلك هو الشيخ، أو الفقراء المنقطعون إلى الله؛ الذي حصروا أنفسهم في سبيل الله، وهو الجهاد الأكبر.

قال في القوت: وكان بعض الفضلاء يؤثر بالعطاء فقراء الصوفية دون غيرهم، فقيل له في ذلك، فقال: لأن هؤلاء همهم الله عزّ وجلّ، فإذا ظهر منهم فاقة تشنت قلب أحدهم، فلأن أرد همة واحدٍ إلى الله أحب إليّ من أن أعطي ألفاً

من غيرهم ممن همه الدنيا. فذكر هذا الكلام لأبي القاسم الجنيدي، فقال: هذا كلام ولي من أولياء الله.
@ ثم قال: ما سمعت كلاماً أحسن من هذا. وبلغني أن هذا الرجل اقتر حاله في أمر الدنيا حتى همّ بترك الحانوت؛ فبعث إليه الجنيدي بمال كان صرف إليه، وقال له: اجعل هذا في بضاعتك، ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضُرُّ مثلك. ويقال: إن هذا لم يكن يأخذ من الفقراء ثمن ما يتاعون منه. هـ.

وكان عبد الله بن المبارك يصرف مصروفه لأهل العلم، ويقول: إني لا أعرف بعد النبوة أفضل من العلماء، فإذا اشتغل قلب أحدهم بالحاجة والعيلة لم يتفرغ للعلم، ولا يقبل على تعليم الناس، فرأيت أن أكفيهم أمر الدنيا؛ لأفرغهم للعلم، فهو أفضل. هـ. والله تعالى أعلم.

@ { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }

قلت: الموصول مبتدأ، و { فلهم أجرهم } خبر، والفاء للسببية، ولأن في الموصول معنى الشرط، وقيل: الخبر محذوف، أي: ومنهم الذين ينفقون الخ: و { فلهم } : استئناف بياني.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية } ، ويعمرون أوقاتهم بفعل الخيرات، { فلهم أجرهم عند ربهم } إذا قدموا عليه، { ولا خوف عليهم } من لحوق مكروهه، { ولا هم يحزنون } على فوات محبوب، بل وجدوا الله فأغناهم عن كل شيء.

قيل: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه؛ تصدّق بأربعين ألف دينار، عشرة بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر، وعشر بالعلانية، أو في عليّ - كرم الله وجهه - لم يملك إلا أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلاً، ودرهم نهاراً، ودرهم سرّاً، ودرهم علانية. وهي عامة لمن فعل فعلهما.

الإشارة: أجر بذل الأموال هو إعطاء الثواب من وراء الباب، والأمن من العذاب وسوء المآب، وأجر بذل النفوس هو دخول حضرة القدوس، والأنس بالأحباب داخل الحجاب، فمن بذل نفسه لله على الدوام، أمنه من الحجة في دار السلام، فلا خوف يلحقهم في الدارين، ولا يعتربهم حزن في الكونين. وبالله التوفيق.

ولما رغب في الصدقة، وكانت في الغالب لا يتوصل إليها إلا بتعاطي أسباب المال، وهو البيع والشراء حذر من الربا؛ لئلا يتساهل الناس في المعاملة به، حرصاً على الصدقة.

@ { الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبَعَهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَإِمْرَةٌ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } * { يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا

يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ { * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَاتَوَاتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }

قلت: { الربا } في الأصل: هو الزيادة، ربا المال يربو: زاد. وكتبت بالواو مراعاة للأصل، وهو المصدر، قال الفراء: إنما كتبوه بالواو لأن أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحيرة، ولغتهم الربو، فعلموهم صورة الحروف، وكذلك قرأها أبو السمال العدوي، وقرأ الأخوان بالإمالة لمكان الكسرة، والباقون بالتفخيم.

والربا في اصطلاح الشرع على قسمين: ربا الفضل وربا التَّسَاءِ، فأما ربا الفضل فهو التفاضل بين الطعامين أو النقدين في المبادلة من الجنس الواحد، فإن اختلفت الأجناس فلا حرج، وأما ربا النساء فهو بيع الطعامين أو النقدين بعضهما ببعض بالتأخير، وهذا حرام ولو اختلفت الأجناس.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { الذين يأكلون الربا } أي: يأخذونه، وإنما خص الأكل لأنه أعظم منافع المال، { لا يقومون } من قبورهم يوم البعث { إلا كما يقوم { المجنون } الذي يتخطه الشيطان من { أجل { المس } الذي يمسه يقوم ويسقط، رُوي أن بطونهم تكون أمامهم كالبيت الضخم، يقوم أحدهم فتميل به بطنه فيصرع، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لما أُسْرِيَ بي إلى السماء رأيت رجلاً رجلاً بُطُونُهُمْ كَالثِيُوتِ، فِيهَا حَيَاتٌ تُرَى مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ، فَقُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيْلُ؟ فَقَالَ: أَكَلَةُ الرِّبَا ".

ذلك العذاب بسبب أنهم استحلُّوا الربا، و { قالوا إنما البيع مثل الربا } فنظموا الربا والبيع في سبيل واحد، وفيه عكس التشبيه. والأصل: إنما الربا مثل البيع، قصدوا المبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا عليه البيع. وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حلَّ ماله على غريمه يقول الغريم: زدني في الأجل أزدك في المال، فيفعلان، ويقولان: سواء علينا الزيادة في أول البيع بالربح أو عند محل الدين، هو مراعاة فكذبهم الحقُّ تعالى بقوله: { وأحلَّ الله البيع وحرم الربا }؛ لأن القياس مع وجود النص فاسد، والفرق ظاهر؛ فإن من باع درهما بدرهمين ضيع درهماً من غير فائدة، بخلاف من اشترى سلعة بدرهم، وباعها بدرهمين، فلعل مساس الحاجة، والرغبة فيها، توقع رواجها فيجبر الغبن.

{ فمن جاءه موعظة من ربه } كالنهي عن الربا { فانتهى } وترك الربا { فله ما سلف } قبل التحريم ولا يَرُدُّهُ، { وأمره إلى الله } لا إلى أحد منكم، فلا يتعرض له، { ومن عاد } إلى تحليل الربا بعد بلوغه النهي { فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون } لأنهم كفروا وسفهوا أمر الله. { ويمحق الله الربا } أي: يذهب بركته، ويهلك المال الذي يدخل فيه { ويربي الصدقات } أي: يضاعف ثوابها ويبارك في المال الذي أخرجت منه، فقد رُوي عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: " ما تَقَصَّ مالٌ مِنْ صَدَقَةٍ " " وأنه يُرَبِّي الصَّدَقَةَ حتى تكونَ مثلَ الجبل " قال يحيى بن معاذ: (ما أعرفُ حبةً تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة).

{ والله لا يحب كل كفَّارٍ } أي: مُصِرٍّ على تحليل المحرمات، { أثيم } أي: منهمك في ارتكاب المنهيات، أي: لا يرتضي حاله، ولا يحبه كما يحب التوايين.

ثم ذكر مقابله فقال: { إن الذين آمنوا } بالله، وصدقوا بما جاء من عنده، { وعملوا } الأعمال { الصالحات وأقاموا الصلاة } أي: اتقوها { وآتوا الزكاة } أي: أدوها على التمام، فلهم أجرهم عند ربهم إذا قدموا عليه، { ولا خوف عليهم } من آت، { ولا هم يحزنون } على ما فات، إذ لم يفتهم شيء حيث وجدوا الله.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } *
{ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ
لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ }

{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذرروا ما بقي من الربوا } أي: اتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا، فلا تقبضوها منهم، { إن كنتم مؤمنين }. فإن دليل الإيمان: امتثال ما أمرتم به، رُوي أنه كان لثقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند الحل بالمال والربا، فنزلت الآية.

{ فإن لم تفعلوا } وتتركوا ما نهيتم عنه، { فأذنوا } أي: فاعلموا { بحرب من الله ورسوله } ومن قرأ: { فأذنوا } بالمد، فمعناه: أعلموا بها غيركم، رُوي أنها لما نزلت، قالت ثقيف: لا يدان لنا بحرب الله ورسوله. { وأن تبتم } من تعاطي الربا واعتقاد حله { فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون } الغريم بأخذ الزيادة، { ولا تظلمون } بنقص رأس مالكم. مفهومه أن لم يتب فليس له شيء، لأنه مرتد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مدار صفاء المعاملة على تصفية اللقمة، فمن صفًا طعمته صفت معاملته، ومن صفت معاملته أفضى الصفاء إلى قلبه، ومن خلط في لقمته تكدرت معاملته، ومن تكدرت معاملته تكدر قلبه، ولذلك قال بعضهم: (مَنْ أَكَلَ الحلال أطاع الله، أحب أم كره، ومن أكل الحرام: عصى الله، أحب أم كره) وكذلك الواردات الإلهية، لا ترد إلا على من صفا مطعمه ومشربه، ولذلك قال بعضهم: (من لا يعرف ما يدخل بطنه لا يفرق بين الخواطر الربانية والشيطانية).

وقال سيدي علي الخواص رضي الله عنه: (اعلم أن المدد الذي لم يزل فياضاً على قلب كل إنسان ويتلون بحسب القلب، والقلب يتلون بحسبه هو بحسب صلاح الطعمة وفسادها). هـ. فالذين يأكلون الحرام؛ كالربا وشبهه، ولا يقومون إلى معاملتهم للحق إلا كما يقوم المجنون الذي يلعب به الشيطان، ولا يدري ما يقول ولا ما يقال له، فقد حُرِمَ لذيذ المناجاة وحلاوة خلوص المعاملات، فإن احتج لنفسه واستعمل القياس لم يُرَجَّ فلاحه في طريق الخواص، فمن جاءه موعظة من ربه فاتته، وطلب العفاف فقد عفا الله عما سلف. ومن عاد إلى ما خرج عنه؛ من متابعة هواه، فنار القطيعة مثواه ومأواه.

ومن شأن الحق جل جلاله مع عباده: أن من طلب الزيادة في حس ظاهره محق الله نور باطنه، ومن حسم مادة زيادة الحس في ظاهره قوي الله مدد الأنوار في باطنه،
{ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ }

[البقرة: 276]، أَي: يُقَوِّي مدد ثواب الصدقات.

{ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ }

[البقرة: 276]، وإنما يحب كل مطيع منيب، وهو من آمن بإيمان أهل التحقيق، وسلك أهل التوفيق. فلا جرم أنه ينخرط في سلك أهل العناية، ويسلك به

مسلك أهل الولاية، الذين

{ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }

[يونس: 62].

{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله { حق تقاته، واتركوا ما بقي في باطنكم من بقايا الحس وأسبابه، إن كنتم طالبيين إيمان أهل الشهود، والوصول إلى الملك المعبود. فإن لم تفعلوا ذلك فاعلموا أنكم في مقام البعد من حيث لا تظنون، معاندون وأنتم لا تشعرون. وإن رجعتم إلى ربكم فلكم رؤوس أموالكم، وهم نور التوحيد، لا تنقصون منه ولا تزيدون عليه، إلا إن أفردتم الوجهة إليه، وطلبتهم الوصول منه إليه، فإن الله لا يخيب من أمل جوده، ولا يرد من وقف ببابه، بمنه وكرمه.

@ { وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ لِآلِهِ مِيسِرَةٌ وَإِنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } * { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }

قلت: { كان } تامة بمعنى حضر، وقرأ أبي وابن مسعود: { ذا عسرة } فتكون ناقصة، و { نظرة } مبتدأ، والخبر محذوف، أي: فعليكم نظرة، أو فالواجب نظرة. وهو مصدر بمعنى الإنظار، وهو الإمهال، و { ميسرة } فيه لغتان: الفتح والضم، وهي مفعلة من اليسر، فالضم لغة أهل الحجاز، والفتح لغة تميم وقيس وتجد.

يقول الحق جل جلاله: وإن حضر الغريم وهو معسر، فعليكم إنظاره، أي: إمهاله إلى زمان يسره ولا يحل لكم أن تُصَيِّقُوا عليه، وتطالبوه بما ليس عنده إن أقام البيئته على عسره { وأن تصدقوا } عليه برؤوس أموالكم ولا تطالبوه بها { خير لكم إن كنتم تعلمون } ما في ذلك من الخير الجزيل والذكر الجميل.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَصَعَ عَنْهُ، أَظْلَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ " وقال - عليه الصلاة والسلام -: " مَنْ أَحَبَّ أَنْ تُسْتَجَابَ دَعْوَتُهُ، وَتُكْشَفَ كُرْبَتُهُ، فَلْيُسِّرْ عَلَى الْمُعْسِرِ " وقال صلى الله عليه وسلم: " مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ بِمِثْلِ مَا أَنْظَرَهُ بِهِ " وقد ورد في فضل الدين قوله - عليه الصلاة والسلام: " إن الله مع المدين حتى يقضي دينه، ما لم يكن فيما يكره الله " فكان عبد الله يقول: " إني أكره أن أبيت ليلة إلا والله تعالى معي، فيأمر غلامه أن يأخذ بدين "

وقد ورد الترغيب أيضاً في الإسراع بقضاء الدين دون مطلق، قال صلى الله عليه وسلم: " مَنْ مَشَى إِلَى عَرِيْمِهِ بِحَقِّهِ، صَلَّتْ دَوَابُّ الْأَرْضِ وَتَوَنَّى الْمَاءُ،

وكتبت له بكل خطوة شجرة في الجنة، وذنوب يغفر له فإن لم يفعل ومطل فهو مُعْتَدٍ " وقال أيضاً: " طَلُّ الْعَيْنِ ظَلَمٌ، وَإِذَا أُتْبِعَ أَحَدَكُمْ عَلَى مَلِيءٍ فَلْيَتَّبِعْ " .

ثم قال تعالى: { واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله } ، وهو يوم القيامة، فتأهبوا للمصير إليه بالصدقة وسائر الأعمال الصالحة، { ثم توفى كل نفس } جزاء ما أسلفت، { وهم لا يظلمون } ينقص ثواب أو تضعيف عقاب. قال ابن عباس: (هذه آخر آية نزل بها جبريل، فقال: ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة، وعاش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً وعشرين يوماً). وقيل: أحداً وثمانين، وقيل غير ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإن كان ذو عسرة من نور اليقين والمعرفة، فلينظر إلى أهل الغنى بالله، وليصحبهم ويتعلق بهم، وهم العارفون، فإنهم يغنونه بالنظر. وفي بعض الأخبار: إن لله رجالاً، من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً. هـ. ولله رجال إذا نظروا أعتوا، وفي هذا المعنى يقول صاحب العينية:

@ فَسَمِّرْ، وَلُدْ بِالْأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهُمْ هُمُ الدُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ، وَالكَثْرُ لِلرَّجَا وَمِنْهُمْ يَتَالُ الصَّبِّ مَا هُوَ طَامِعٌ لَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تِلْكَ الْوَقَائِعُ
وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه وقد أغنيت. وقال فيه شيخه: نعم الرجل أبو العباس، يأتيه البدوي يبول على ساقه، فلا يُمسي إلا وقد أوصله إلى ربه. وقال شيخ شيوخان سيدي العربي بن عبد الله: لو أتاني يهودي أو نصراني، لم يُمس إلا وقد أوصلته إلى الله. هـ. وفي كل زمان رجال يُعْتَوْنَ بالنظر، وقد أدركتهم، وصحبهم والحمد لله، والإشارة بقوله: { وأن تصدقوا خير لكم } إلى أهل الغنى بالله، يتصدقون على الفقراء بالنظرة والهبة، حتى يحصل لهم الغنى بالله. والله تعالى أعلم.
@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ آخِلٍ مِّنْكُمْ فَأُكْتُبُوا لِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلِيُمِلَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسِرَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ يَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةَ إِلَّا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ آخِلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ إِذْ تَدُنَا أَلَّا تَرْبَاهُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُصَاحَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ آخِلٍ مِّنْكُمْ فَأُكْتُبُوا لِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلِيُمِلَّ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسِرَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ يَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ... }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين { أي: دابن بعضكم بعضاً في بيع أو سف، { إلى أجل مسمى { أي: معلوم بالأيام أو الأشهر، لا بالحصاد أو قدوم الحاج، ألا في السّلم، { فاكتبوه {؛ لأنه أوثق وأدفع للنزاع. والجمهور: أن الأمر للاستحباب، { وليكتب بينكم كاتب بالعدل { لا يزيد ولا ينقص، ولا بد أن يكون عدلاً حتى يجيء مكتوبه موثقاً به، { ولا ياب كاتب أن يكتب { أي: ولا يمتنع كاتب من الكتابة { كما علمه الله فليكتب { أي: فليكتب كما علمه الله من كتابه الوثائق، أو: لا ياب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها. { وليملل الذي عليه الحق { أي: وليكن المملي من عليه الحق؛ لأنه المقر للشهود، يقال: أملل وأملي، إذا ذكر ما عنده أو ما عليه، { وليتق الله ربه { أي: المملي أو الكاتب، { ولا يبخس منه شيئاً { أي: ولا ينقص من الحق الذي عليه شيئاً في الإملاء أو في الكتابة

{ فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً { ناقص العقل مُبذراً، { أو ضعيفاً { شيخاً مخبلاً، أو صبيّاً صغيراً، { أو لا يستطيع أن يمل هو {، لخرس أو جهل باللغة، { فليملل { عنه { وليه بالعدل {، من وصيّ أو وكيل، { واستشهدوا { علي معاملتكم { شهيدين من رجالكم { المسلمين، { فإن لم يكونا رجلين {، بأن تعذر إحضارهما، { فرجل وأمرأتان { فأكثر، تقوم مقام رجلين { ممن ترضون من الشهداء { لعلمكم بعادلتهم، وإنما شرط تعدد النساء لأجل { أن تصل إحداهما فتذكر إحداها الأخرى { أي: إن ضلت إحداها الشهادة، ونسيتها، ذكرتها الأخرى؛ لأنها ناقصة عقل ودين.

ثم حذّر الشهود من الامتناع عن تحمل الشهادة أو أدائها، فقال: { ... وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَّا أَجَلَهُ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْبِيًّا إِلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَلُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {

قلت: السَّامُ هو: المَلَلُ، و { لا يضار { يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، وأصله: يضار بالكسر، أو للمفعول، فيكون الأصح بالفتح.
@ يقول الحقّ جلّ جلاله: ولا يمتنع { الشهداء { من تحمل الشهادة إذا دعا إليها، حيث تعينت عليهم، وسُموا شهداء باعتبار المال، وإنما تتعين إذا لم يوجد غيرهم. أو: من أدائها حيث لا ضرر، { ولا تساموا أن تكتبوه { أي: ولا تملوا من كتابة الحق إذا تكرر { صغيراً { كان { أو كبيراً {، فقيدوا ذلك { إلى أجله {، { ذلكم أقسط عند الله { أي: ذلك الكتاب والتقيد للحقوق، أكثر قسطاً عند الله؛ لأنه أدفع للنزاع وأحفظ للحقوق، { وأقوم للشهادة { أي: أثبت لها وأعون على أدائها، { وأدنى ألا ترتابوا { أي: وأقرب لعدم الريب والشك في جنس الدين وقدره وأجله، لأنه إذا كتب جنسه وقدره وأجله لم يبق لأحد شك في ذلك، { إلا أن تكون تجارة حاضرة { لا أجل فيها، { تديرونها بينكم { أي: تتعاملون فيها نقداً، { فليس عليكم جناح ألا تكتبوها {؛ لقلّة النزاع فيها، { وأشهدوا إذا تبايعتم { مطلقاً بدين أو نقد؛ لأنه أحوط، خوفاً من الإنكار، والأوامر في هذه الآية للاستحباب عند الأكثر.

{ ولا يضار كاتب ولا شهيد } بالتحريف والتغيير في الكتابة والشهادة، على البناء للفاعل، أو: ولا يضارا بأن يُعْجَلَا عن مهم، أو يكلفا الأداء من شقة بعيدة، أو يمنع من أجرته، { وإن تفعلوا } ذلك الضرار وما نهيتهم عنه { فإنه فسوق بكم } أي: خروج بكم عن حد الاستقامة، { واتقوا الله } في مخالفة أمره ونهيه، { ويعلمكم الله } العلوم اللدنية { والله بكل شيء عليم }؛ فلا يخفى عليه من اتقى الله ممن عصاه. وكرر لفظ الجلالة في الجمل الثلاث، لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى والثانية وعد بتعليم العلم، والثالثة تعظيم لشأنه، ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية. قاله البيضاوي.

وأدخل الواو في جوابه الأمر ليقضي أن تعليمه سبحانه لأهل التقوى ليس هو مسبباً عن التقوى، بل هو بمحض الفضل والكرم، والتقوى إنما هي طريق موصل لذلك الكرم، لا سبب فيه " جَلَّ حُكْمُ الْأَزَلِ أَنْ يُصَافَ إِلَى الْعَلَلِ ".
والله تعالى أعلم.

@ { وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَيَا سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ }

قلت: { فرهان } خبر، أو مبتدأ، أي: فالمستوثق به رهان، أو فعلية رهان.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وإن كنتم على { جناح } سفر { أي: مسافرين، } ولم تجدوا كاتباً { يكتب شهادة البيع أو الدين، فالمستوثق به عروضاً من الإشهاد: { فرهان مقبوضة }، وليس السفر شرطاً في سحة الارتهان، لأنه عليه الصلاة والسلام: " رَهَنْ دِرْعَهُ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِالْمَدِينَةِ فِي شَعِيرٍ " لكنّ لما كان السفر مَطْنَةً إِعْوَارِ الْكِتَابِ، ذكره الحق تعالى حكماً للغالب. والجمهور على اعتبار القبض فيه، فإن لم يقبض حتى حصل المانع، فلا يختص به في دينه، { فإن أمن بعضكم بعضاً { واستغنى بأمانته عن الارتهان، لوثوقه بأمانته فداينه بلا رهن، { فليؤد الذي أؤتمن أمانته { أي: دينه، وسماه أمانة؛ لائتمانه عليه بلا ارتهان ولا إشهاد، { وليتق الله ربه { في أداء دينه وعدم إنكاره.

{ ولا تكتموا الشهادة } أيها الشهود، أو أهل الدين، أي: شهادتهم على أنفسهم، { ومن يكتمها { منكم بأن يمتنع من أداء ما تحمل من الشهادة، أو من أداء ما عليه من الدين، { فإنه آثم قلبه } حيث كتم ما علمه به، لأن الكتمان من عمل القلوب فتعلق الإثم به، ونظيره: " العين زانية وزناها النظر "، أو أسنده إلى القلب، مبالغة؛ لأنه رئيس الأعضاء، فإذا آثم قلبه فقد آثم كله، وكأنه قد تمكن الإثم منه فأخذ أشرف أجزائه، وفاق سائر ذنوبه، ثم هدد الكاتمين فقال: { والله بما تعملون عليم }؛ لا يخفى عليه ما تبدون وما تكتمون، رُوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " مَنْ كَتَمَ شَهَادَةً إِذَا دُعِيَ - كَانَ كَمَنْ شَهِدَ بِالزُّورِ ".

الإشارة: كما أمر الله تعالى بتقيد الديون الدنيوية، والاعتناء بشأنها، أمر بتقيد العلوم اللدنية والوردات القدسية والاعتباط بأمرها، بل هي أولى؛ لدوام ثمراتها وخلود نتائجها، فإن الحكمة ترد على القلب من عالم القدس عظيمة كالجبل،

فإن أهملتها ولم تبادر إلى تقييدها، رجعت كالجمل، فإن آخرتها رجعت كالطير، ثم كالبيضة، ثم تمتحي من القلب، وفي هذا المعنى قيل:

العلمُ صيدٌ والكتابةُ قَيْدُهُ قَيْدٌ صُيُودَكَ بِالْجِبَالِ الْمُوثِقَةَ
وَمِنَ الْجَهَالَةِ أَنْ تَصِيدَ حَمَامَةً وَتَتْرُكَهَا بَيْنَ الْأَوَانِسِ مَطْلُوقَةً
فإن لم يسحن الكتابة، فليملله على من يُحسنها، ولا يبخرس منه شيئاً، بل
يُملِّه على ما ورد في قلبه، فإن كان ضعيف العبارة، فليملل عنه من يحسنها
بالعدل، من غير زيادة ولا نقصان في المعنى، وليُشهد عليها رجال أهل الفن
وهم العارفون، فإن لم يكونوا، فمن حضر من الفقراء المتمكنين؛ لئلا يكون
في تلك الحكمة شيء من الخلل؛ لنقصان صاحبها، أو: وليُشهد على ذلك الوارد
عدلين، وهما الكتاب والسنة، فإن كان موافقاً لهما، قبل، وإلا رُدَّ.

قال الجنيد رضي الله عنه: إن النكتة لتقع في قلبي فلا أقبلها إلا بشهادة
عَدْلَيْنِ: الكتاب والسنة. هـ. وإن كنتم مستعجلين، ولم تجدوا كاتباً، فارتهنوها في
قلوب بعضكم بعضاً، حتى تُقيد. ومن كتم الواردات عن شيخه أو إخوانه، فقد
أثم قلبه؛ لأنه نوع من الخيانة في طريق التربية. والله تعالى أعلم.
@ { لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه
يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ }
{

قلت: من قرأ { فيغفر }؛ بالجزم، فعلى العطف على الجواب، ومن قرأ بالرفع
فعلى الاستئناف، أي: فهو يغفر.

يقول الحق جلّ جلاله: { لله ما في السماوات وما في الأرض { خلقاً وملاكاً
وعبيداً، يتصرف فيهم كيف شاء؛ يرحم من يشاء بفضله، ويعذب من يشاء
بعذله، { وإن تبدوا { أي: تظهروا { ما في أنفسكم { من السوء والعزم عليه،
{ أو تخفوه { في قلوبكم، { يحاسبكم به الله { يوم القيامة؛ { فيغفر لمن
يشاء { مغفرته، { ويعذب من يشاء { تعذيبه، { والله على كل شيء قدير { لا
يعجزه عذاب أحد ولا مغفرته. وعبر الحق تعالى بالمحاسبة دون المؤاخذة، فلم
يقُل: يؤاخذكم به الله؛ لأن المحاسبة أعم، فتصدق بتقرير الذنوب دون المؤاخذة
بها، لقوله - عليه الصلاة والسلام: " يدنو المؤمن من ربه حتى يضع كنفه عليه،
فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: يا رب، أعرف، فيوقفه على ذنبه
ذنباً، ذنباً فيقول الله تعالى: أنا الذي سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك
اليوم " فله الفضل والمنّة، وله الحمد والشكر.

الإشارة: { وإن تبدوا ما في أنفسكم { من الخواطر الردية والطوارق
الشیطانية، أو تخفوه في قلوبكم، حتى يحول بينكم وبين شهود محبوبكم،
{ يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء { فيمحو ظلمته من قلبه؛ بإلهام التوبة
والمبادرة إلى اليقظة، { ويعذب من يشاء { بتركه مع ظلمة تلك الأغيار،
وخوضه في بحار تلك الأقدار، فما منع القلوب من مشاهدة الأنوار إلا اشتغالها
بظلمة الأغيار، فرغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار، فإن أردت أن
تكون عين العين، فامح من قلبك نقطة الغين، وهي نقطة السوى، ولله درّ
القائل:

إِنْ تَلَّسَى الْكُوْنُ عَنْ عَيْنٍ كَشَفِي شَاهَدَ السِّرُّ عَيْبَهُ فِي بَيَانِي
فَاطْرَحَ الْكُوْنَ عَنْ عَيْنِكَ وَامْحُ نَقْطَةَ الْعَيْنِ إِنْ أَرَدْتَ تَرَانِي
واعلم أن الخواطر أربعة: ملكي ورباني ونفساني وشيطاني، فالملكي والرباني لا
يأمران إلا بالخير، والنفساني والشيطاني لا يأمران إلا بالشر، وقد يأمران بالخير
إذا كان فيه دسيسة إلى الشر، والفرق بين النفساني والشيطاني: أن الخاطر
النفساني ثابت لا يزول بتعود ولا غيره، إلا بسابق العناية، بخلاف الشيطاني:
فإنه يزول بذكر الله، ويرجع مع الغفلة عن الله. والله تعالى أعلم.

ولمَّا نزل قوله تعالى: { وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ... } الآية. شق ذلك على
الصحابة - رضي الله عنهم - فجاء الصديقُّ والفروق وعبدُ الرحمن ومعاذ، ونابئُ
من الأنصار، فَجَتَّوْا عَلَى الرَّكْبِ، وقالوا: يا رسول الله، ما نزلت علينا أيُّ أشدِّ
من هذه الآية وأنا إن أخذنا بما نُحَدِّثُ بِهِ أَنْفُسَنَا هَلَكْنَا! فقال النبي صلى الله
عليه وسلم: " هكذا نزلت " فقالوا: كلفنا من العمل ما لا نطيع، فقال - عليه
الصلاة والسلام: " فلعلكم تقولون كما قالت بنو إسرائيل: { سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا }
[البقرة: 93]، قولوا: { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } [البقرة: 285] " ، فقالوا: { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
{ ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ التَّخْفِيفَ، وَحَكَى مَا وَقَعَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ
وَالِإِدْعَانِ.

@ { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } * { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
اكَتْسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُوَاخِدْنَا إِنْ تَسِيئًا أَوْ أَحْطَاءًا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا
حَمَلْتَهُ عَلَي الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ
لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }

قلت: من قرأ: { لا نفرق } بالنون، فعلى حذف القول، أي: قالوا: لا نفرق، ومن
قرأ بالياء فيرجع إلى الكل، أي: لا يفرق كل واحد منهم بين أحد من رسله، و
{ بين } من الظروف النسبية، لا تقع إلا بين شيئين أو أشياء، تقول: جلست
بين زيد وعمرو، وبين رجلين، أو رجال، ولا تقول بين زيد فقط، وإنما أضيف
هنا إلى أحد لأنه في معنى الجماعة، أي: لا نفرق بين أحاد منهم كقوله عليه
الصلاة والسلام: " ما أحلت الغنائم لأحدٍ، سُودِ الرُّؤُوسِ، غيركم " و { غفرانك
{ مفعول مطلق، أي: اغفر لنا غفرانك. أو: نطلب غفرانك، فيكون مفعولاً به.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ } إيمان تحقيق
وشهود { والمؤمنون } كل على قدر إيقان، { كل } واحد منهم { آمَنَ بِاللَّهِ }
على ما يليق به من شهود وعيان، أو دليل وبرهان، وآمن بملائكته وأنهم عباد
مكرمون

{ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }
[التَّحْرِيم: 6]، { وكتبه } وأنها كلام الله، مشتملة على أمر وني ووعد ووعد
وقصص وأخبار، وما عرف منها؛ كالتوراة والإنجيل والزيور والفرقان، وجب
الإيمان به بعينه، وما لم يعرف وجب الإيمان به في الجملة، { ورسله } وأنهم
بشر متصفون بالكمالات، منزهون عن النقائص، كما يليق بحالهم، حال كون
الرسول والمؤمنون قائلين { لا نفرق بين أحد من رسله } أو: { لا يفرق } كل
منهم بين أحد من رسله؛ بأن يصدقوا بالبعض، دون البعض كما فرقت اليهود
والنصارى، { وقالوا } أي المؤمنين { سمعنا وأطعنا } أي: سمعنا قولك وأطعنا

أمرك، نطلب { غفرانك } يا ربنا { وإليك المصير } بالبعث والنشور، وهذا إقرار منهم بالبعث الذي هو من تمام أركان الإيمان.

فلما تحقق إيمانهم، وتيقن إدعائهم، خفف الله عنهم بقوله: { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها } أي: إلا ما في طاقتها وتسعه قدرتها. وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدل على امتناعه. أما المحال العادي فحائز التكليف به، وأما المحال العقلي فيمتنع. إذ لا يتصور وقوعه، وإذا كلف الله عباده بما يطيقونه، فكل نفس { لها ما كسبت } من الخير فتوفى أجره على التمام، { وعليها ما اكتسبت } من الشر، فترى جزاءه، إلا أن يعفو ذو الجلال والإكرام.

وعبر في جانب الخير بالكسب، وفي جانب الشر بالاكْتساب، تعليماً للأدب في نسبة الخير إلى الله، والشر إلى العبد، فتأمل.

ثم قالوا في تمام دعائهم: { ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا } ، أي: لا تؤاخذنا بما أدى إلى نسيان أو خطأ من تفريط أو قلة مبالاة، وفي الحديث: " إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما حدثت به نفسها " ويجوز أن يراد نفس الخطأ والنسيان؛ إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلاً، فإن الذنوب كالسُموم، فكما أن تناول السم ويؤدي إلى الهلاك، وإن كان خطأ - فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضي إلى العقاب، وإن لم يكن عزيمة، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمة وفضلاً.

@ ثم قالوا: { ربنا ولا تحمل علينا إصراً } أي: عهداً ثقيلاً يَأْصِرْ ظهورنا، أي: يثقله، فتعذبنا بتركه وعدم حمله، { كما حملته على الذين من قبلنا } مثل اليهود في تكليفهم بقتل الأنفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة، وغير ذلك من التكاليف الشاقة، { ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به } من التكاليف التي لا تسعها طاقتنا، وهذا يدل على جواز التكليف بما لا يطاق عادة، وإلا لما سئل التخلص منه، { واعف عنا } أي: امح ذنوبنا، { واغفر لنا } أي: استر عيوبنا، { وارحمنا } أي: تعطف علينا. { اعف عنا } الصغائر، { واغفر لنا } الكبائر، { وارحمنا } عند الشدائد والحسرات، { أنت مولانا } أي: سيدنا وناصرنا، { فانصرنا على القوم الكافرين }؛ فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء.

قال البيضاوي: (رُوي أنه عليه الصلاة والسلام - لما دعا بهذه الدعوات قيل له: فعلت)؛ وعنه عليه الصلاة والسلام: " أَنْزَلَ آيَاتِنَا مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، كَتَبْنَاهَا الرَّحْمَنُ بِيَدِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِالْقِيِّ سَنَةٍ، مِنْ قَرَأَهُمَا بَعْدَ الْعِشَاءِ الْأَخِيرَةِ أَجْرَاتَاهُ عَنِ قِيَامِ اللَّيْلِ " وعنه عليه الصلاة والسلام: " مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفَّتَاهُ " وهو يَرُدُّ قول من استكره أن يقال سورة البقرة، وقال: ينبغي أن يقال السورة التي يذكر فيها البقرة، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: " السورة التي يُذكر فيها البقرة فسباط القرآن فتعلموها؛ فإن تعلمها بركة، وتتركها حسرة، ولن يستطيعها البطلَّة. قيل: وما البطلَّة؟ قال: السحرة " .

الإشارة: يُفهم من سر الآية أن من شق عليه أمر من الأمور، أو عسرت عليه حاجة، أو نزلت به شدة أبو بلية، فليرجع إلى الله، ولينطرح بين يدي مولاه،

وليعتقد أن الأمور كلها بيده؛ فإن الله تعالى لا يخليه من معونته ورفده، فيخفف عنه ما نزل به، أو يقويه على حمليه، فإن الصحابة - رضي الله عنهم - لما شق عليهم المحاسبة على الخواطر سلّموا وأذعنوا لأمر مولاهم، فأنزل عليهم التخفيف، وأسقط عنهم في ذلك التكليف، وكل من رجع في أمره كلها إلى الله قضيت حوائجه كلها بالله. " من علامات النَّجْحِ في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات "

@وقوله تعالى: { رينا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به } ، قيل: هو الحب لله، فلا يسأل العبد من مولا من حبه إلا ما يطيقه، وتأمل قضية الرجل الذي سأل سيدنا موسى عليه السلام أن يرزقه الله حبه، فلما سأل ربه موسى عليه السلام هام ذلك الرجل، وشق ثيابه، وتمزقت أوصاله حتى مات. فناجى موسى رضي الله عنه ربه في شأنه، فقال: يا موسى، ألف رجل كلهم سألونني ما سأل ذلك الرجل، فقسمت جزءاً من محبتي بينهم، فتابه ذلك. الجزء. أو كما قال سبحانه.

وقال بعض الصالحين: حضرْتُ مجلسَ ذي النون، في فسطاط مصر، فَحَرَزْتُ في مجلسه سبعين ألفاً، فتكلم ذلك اليوم في محبته تعالى فمات أحدَ عشر رجلاً في المجلس، فصاح رجل من المريدين فقال: يا أبا الفيض، ذكَّرتُ محبة الله تعالى فاذكر محبة المخلوقين، فتأوّه ذو النون تأوّهًا شديدًا، ومدّ يده إلى قميصه، وشقه اثنتين، وقال: أه! غلقت رهونهم، واستعبرت عيونهم، وحالفوا الشُّهاد، وفارقوا الرُّقاد، فليلهم طويل، ونومهم قليل، أحزانهم لا تُنفذ. وهموهم لا تفقد، أمورهم عسيرة، ودموعهم غزيرة، باكية عيونهم، قريحة جفونهم، عاداهم الزمان والأهل والجيران.

قلت: هذه حالة العباد والزهاد، أولي الجد والاجتهاد، غلب عليهم الخوف المزعج، أو الشوق المقلق، وأما العارفون الواصلون؛ فقد زال عنهم هذا التعب، وأفضوا إلى الراحة بعد النصب، قد وصلوا إلى مشاهدة الحبيب، ومناجاة القريب، فعبادتهم قلبية، وأعمالهم باطنية، بين فكرة ونظرة، مع العكوف في الحضرة، قد سكن شوقهم وزال قلقهم، قد شربوا ورووا، وسكروا وصحوا، لا تحركهم الأحوال، ولا تهيجهم الأقوال، بل هم كالجبال الرواسي، نفعنا الله بذكرهم، وجعلنا من حزرهم. آمين.

قوله تعالى: { واعف عنا } ، قال الورتجبي: أي: { واعف عنا } قلة المعرفة بك، { واغفر لنا } التقصير في عبادتك، { وارحمننا } بمواصلتك ومشاهدتك. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.